
إبداعات الفرع
تغريبة بني حتحوت
(٣)
إلى بلاد البحيرات
رواية
مجيد طوبيا



سكرتير التحرير الفني: هشام نوار

تغريبة بنى حتحوت (٣)

رواية

مجيد طوبيا

الطبعة الأولي الكاملة

٢٠٠٥

المجلس الأعلي للثقافة

١ شارع الجبلاية، دار الأوبرا، القاهرة

الرقم البريدي: ١١٢١١

تليفون: ٧٣٥٢٣٩٦

فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

بريد إلكتروني:

egypt council @ yahoo. com

رقم الإيداع: ٢٠٠٤/٧٣١٢

التصميم والإخراج للفنان

عـدلي رزق اللــه



المجلس
الأعلى
للثقافة

ابداعات التفرغ

[٢٣]

تغريبة بني حتحوت

إلى بلاد البحيرات

(٣)

وفيها حكاية الشاطر الشجيع مع المرأة الشركسية .
وهجوم الوباء على بنى حتحوت الفقراء .
وسيرة الكرام واللئام فى وقائع الشام .
وتآمر الإنجليز على جنود العزيز ثم مجىء
البطل أمشير فى شهر الأعاصير .

مجيد طوبيا

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : تغريبة بنى حتحوت الثالثة إلى بلاد البحيرات

اسم المؤلف : مجيد طوبيا

الطبعة : الأولى - القاهرة ٢٠٠٥م .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084

(١) يا لها من امرأة

فى ذلك الزمان ، زمن عزيز مصر محمد على ، كان كل من ليس له باع مازال يُباع ، يجلبه النخاس ورجاله الأنجاس من شتّى بلاد الناس ، وكما تباع الدواب والأثاث بيع الذكور والإناث ، للتسخير أو لمتعة السرير !

إلى جوار بئر الفناء ، وتحت شجرة الجميز ، جلس تاجر العبيد غير سعيد ، ينفخ غيظه مع دخان الشيشة المخلوط بالحشيشة، عند قدميه صبيه الأسود يضع حجر الفحم على الدخان ، سحب التاجر نفسا طويلا ، وسعل فاحتقن وجهه التركى ، ولعن كل عماله الملاعين .. وصلته مؤخراً من بعيد قافلة العبيد ، بالأولاد والبنات المخطوفين من أعالى النيل ، راقته من بين البنات فتاة فى أول البلوغ ، فرح ودفع بها إلى حريمه ، فأخذوها إلى الحمام وزينوها وأعادوها إليه نضرة عطرة ، فاختلى بها فى حبور وسقاها أغلى الخمور ، ليجدها غير عذراء ، فقد وطئها عماله فى الخلاء !

كانت هوايته فض غشاء الأبكار ، فمقت الصبية المليحة السمراء وقرر بيعها لأول راغب فى الشراء !

انشغل الصبى بتغيير حجر الشيشة والحشيشة ، استعجله بركلة قدم ، بينما هو يسب أسلافه دخل الحوش أربعة حمير يسحبها أربعة حمّارين . رأى بفراسته أن الزبائن ليسوا من الأثرياء ، الأول أجنبى على رأسه قبعة سخيفة ، سميكة مبطنة بالفلين لاتقاء حر القاهرة . قد يكون من مدربى الجيش ، والباشا يستدعيهم من بلادهم ويوظفهم بأعلى الأجور . الثانى ابن بلد أرمنى يمارس الترجمة والسمسرة ، أما الآخران فقد أصاباه بالاكتئاب ، جنديان من جيش الباشا محمد على ، ظنهما لحراسة الأجنبى ، لكن هذه شغلة الشرطة والعسس !

كان مكتبئا فلم يتزحزح من مكانه ، تاركا الفرصة للتجار الآخرين ، الذين سألوا الزبائن عن رغباتهم : ذكر أم أنثى ؟ .. فقال المترجم: إن الأجنبى يريد جارية حبشية لأنه ينوى الإقامة الطويلة فى مصر .

رغم ذلك لم يتحمس التركى ، تأمل الزى العسكرى محتارا ، السروال من القطن السميك ، ثياب الصيف ، والحذاء أحمر مثل الطربوش ، الجندى الأول أنباشى ، راتبه الشهرى خمسة وعشرون قرشا ، قمحى اللون ، فهو مصرى فلاح والثانى على صدره شريطان فرتبته جاويش ، وراتبه ثلاثون قرشا ، أبيض وسيم وكأنه تركى أو شركسى ، لكنه لو كان كذلك لوجب أن يكون ضابطا . أيكون متنكرا فى زى جاويش ؟.. ألا عيب الباشا لاحصر لها !

لاحظ الجنديان نظراته . كان القمحي هو حتحوت ، والأبيض الوسيم صديقه الشاطر ، وقد حولهما محمد على – دون رغبتهما – من صنف الفلاح إلى الجندى مدرب السلاح . وكان تسعة من العبيد القلقين لصق الجدار الأيمن ، تقدم أحدهما يظهر مالديه من عضلات وأسنان سليمة . تشاغلا عنه فظنهما يريدان شراء أنثى ، أو ربما جاءا للفرجة مثلما يفعل بعض الأجانب . همس الشاطر لحتحوت والتركى يقترب منهما :

– سندّعى أننا جئنا فى طلب جارية بيضاء لأجل ضابطنا ، الشركسى !

حيّاه التاجر بلغة الأتراك ، فلما رد التحية بمثلها تهلل وجهه الأحمر ، واندفع فى حديث لم يفهماه . يعرفان من لغة الضباط بعض العبارات التركية والشركسية . أشار حتحوت إلى الشاطر وقال من وحى الخاطر :

– سيدى هذا لا يريد أن يفصح عن هويته ، كلِّمه باللغة العربية .

– من أول وهله أدركت أنه ضابط فى زى جاويش ، لعل جنابه أميرالاى !

– من أول وهلة أدركنا أنك لمّاح !

تودد بابتسامة ظافرة :

– قلبى مفعم بحب عزيز مصر محمد على باشا ، مالك بلاد السودان وكردفان . أدفع الضرائب بالتمام ولا أتهرب مثل التجار الشّوام .. هنا فى وكالة الجلاّبة توجد الأصناف الخلاّبة ، إفريقيات صغيرات من جميع الأمراض خاليات . شرفا معى !

سبقهما إلى ممر طويل ، على جانب منه أبواب لغرف صغيرة . تبعهم الأفرنجى ومترجمه . كان بالأولى خمس زنجيات ممشوقات شبه عاريات ، شعورهن ضفائر حمراء بلون الحناء ، والوشم أزرق على الأجساد !

رأى حتحوت فى أنف إحداهن هلالا نحاسيا . تذكر حكايات والديه . قبل مولده بأيام ظهرت فى قرية تلة غجرية يتلألأ هلال النحاس فى جانب أنفلها ، لا يعرفون من أين جاءت . استشارت ودعها وقالت لأمه الحامل به أن فى حياة الجنين ثلاث إشارات . الأولى أن تولد فى بر مصر بهيمة برأسين تأكل برأس وتجتر بالأخرى ، إذا ظهرت ولد بسلام وعاش للثانية ، وهى أن تخنق بنات الحور القمر خنقا كاملا ، إذا حدثت عاش للثالثة ، وهى أن ينكسف جرم الشمس . عندئذ يتغرب شمالا وجنوبا ، يصادف الأهوال وانقلاب الأحوال ، يرى ركوع الأسد للقرد وتسلط الفأر على القط ، ثم يعود من جميع ذلك فائزا بحكمة الشيوخ وهو بعد فى شرخ الشباب ... ولد وتحققت الإشارات ، وكان ما كان وشاهد هروب المماليك أمام جيش الفرنسيس ، ثم ذهب مع الشاطر وصديقهما إدريس إلى دارفور التى هى بلاد الفور ، وإلى أعالى النيل حيث منابعه ، وإلى بلاد الدنكا حيث بقى إدريس مع أهله الطيبين .. ثم عادا بعد أربعة عشر عاما كلها مخاطر ، وقررا الزواج والاستقرار بقرية تلة .. فإذا الباشا محمد على يستدعيهما ويضمهما إلى جيش ولده إسماعيل المتوجه لفتح السودان ، مات إسماعيل محروقا فى قصر المك نمر حاكم شندى ، وعاد هو والشاطر سالمين ، يقتربان من سن الأربعين ولا يدرى إن كان فاز بحكمة الشيوخ . وجميع ذلك مذكور فيما مضى من التغريبة .. لم يطل الوقت بهما حتى استدعاهما محمد على ثانية ليعملا مدربين فى جيشه الجديد الذى يكوّنه من أبناء الفلاحين بعد فناء آخر الغز ، المماليك الملاعين !

أخذهما النخاس إلى الغرفة التالية ، حيث فتاة وحيدة صغيرة ، قال إنها شبه عذراء ، طلب الأجنبى إيضاحا عن طريق مترجمه ، فعرف أن رجلا واحدا فقط استعملها فى أثناء جلبها ، سقاها خمر العرقى وفض بكارتها .

تفحصتهم المسكينة فى حيرة وسكينة . وقال البائع للمترجم :

– أبيعها لهذا الكافر مقابل كيس واحد، خمسمائة قرش لا أكثر ، تعرف الشروط، أضمنها ثمانية أيام يعيدها فيها إن ظهر بها عيب .

لم ترق الأجنبى فتوجهوا إلى غرفة ثالثة ، بها فتيات صغيرات أكثر جمالا . كلما تقدموا إلى الغرف التالية ارتفع الجمال وزاد السعر . وكنّ مخطوفات من المناطق المجاورة لمدينة سنار على النيل الأزرق ، فلعن الشاطر فى سره غدر الزمان ، كانت سنار عاصمة لإمبراطورية الفنج العريقة ، حتى دكها إسماعيل بن محمد على ، فصارت مديرية تابعة له ، وموردًا للسبايا ، علّه يعوض بعض نفقات حملته !

رفع النخاس القماشة الصغيرة عن صدر إحداهن ، ضرب بإصبعه نهديها فضحكت ، وبانت أسنانها بيضاء ، قال للمترجم :

– ترجم للكافر الذى معك : نهود متماسكة، لم يعبث بها أحد من قبل ، إلاّ قليلاً !

أصر الأجنبى على الحبشية . فقال :

– هذا الصنف سعره غال ، بالأمس فقط وصلت قافلة الحبشيات ، ومازالت خارج أسوار المدينة حتى أدفع المعلوم !

ثم إنهم ركبوا وخرجوا إلى الطرقات ، وكل سائس يجر حماره وعليه زبونه ، أما التاجر فقد امتطى بغلا لها سرج مزدان بالشراريب جرّه من لجامه عبد أسود ممشوق ، وسار من خلفه صبيه يحمل الشيشة والدخان والفحم . اقتربوا من بوابة المدينة . هبّ حارسها يحيى التاجر فى احترام . خرجوا إلى الخلاء ، فى طرق تحفّه الأتربة والغيطان وطواحين هواء بالية .. قرب بعض الأطلال الخربة، زكمت أنوفهم رائحة التوابل ، ثم وجدوا أكوام البضائع الإفريقية: صمغ وأبنوس ومسك

وببغاوات وتمر هندى وريش نعام أبيض وأسود ، أنياب أفيال وسياط من جلد فرس النهر المبروم .

كان رجال القافلة لا يزالون فى ثياب الصحراء ، اندفعوا يقبلون يدى التاجر . وكانت الفتيات عاريات الصدور غير متزينات بالخرز أو حلقات الصفيح ، مجدولات الشعر فى عشرات الضفائر اللامعة بدهان الزيت أو الزبد ، والشمس تسيله على الأكتاف والنهود المشدودة .

كان لهن شروط محفورة تمثل نجومًا أو شموسًا زرقاء ، فأدرك حتحوت أنهن لسن حبشيات . وقال الشاطر :

– أظنهن من سفوح جبال القمر .

– صدقت والله يا سيدى، أنت ابن جاه وأصول . لكن دعنى أقنع هذا الكافر بشراء واحدة ، ثم آخذك إلى دار ثروت ..

أمر بتوزيع البلح وشرائح البطيخ ، والتبغ والعرقى لمن تريد .

سرعان ما سرت البهجة ، وانطلقت فتاة تغنى بلغة عشيرتها ، صار الغناء جماعيا ، انفرجت أسارير الفرنجى، واحتار حتحوت إن كان الغناء حزينا أم سعيدا أم حنينا . ورجال القافلة يصفقون بالإيقاع .

انتشت فتاة من الجعة فاندفعت ترقص . فردت أصابع كفيها أمام نهديها كأنها أصابع رجل ، ، ظلت تنزل وتعلو بهما حتى فاحت أنوثتها وبدت رائعة الجمال ، وتمنى الشاطر لو معه المال لشرائها ومثلما ، بهرته بهرت الأجنبى، فتغاضى عن وشمها الأزرق والشروط المحفورة على صدغيها ودفع ثمنها . مضت معه وكأنها سعيدة . والزبد يسيل تحت الشمس على كتفيها ، وهو يتأملها فى غير تصديق ، بقروشه امتلك هذا الجسد البديع ، صارت ملكه بإمكانه أن يعاشرها مثل زوجة أو خليلة ، أو يبيعها أو حتى يقتلها ، سوف يمنعها من دهن شعرها بالشحم ، ويفك جدائله ويجعله منسابا كشعر نساء بلده .

خيّل لحتحوت أنه رأى دمعتين تنسالان مع الدهن . تنهد فى أسى ، قد تكون دموع الحزن لفراق الأهل ، أو ربما دموع الفرح ، لعلها كانت تخاف أن يشتريها عجوز دميم . بيت رجل وإن كان هذا الأفرنجي أفضل من وكر النخاس وعماله الأنجاس !

همس للشاطر :

– هيا بنا ننصرف فورا أيها البك الشركسى !

قبل أن يصلا إلى موقف الحمارين لحق بهما التركى مهللا فى وجه الشاطر :

– طلبك موجود يابك . جارية بيضاء صغيرة مضمونة ، لدى زميلى ثروت ، سوف أوصيه بك لأن محبتك سكنت فى قلبى !

– يوم آخر . أخبرنى باسم الوكالة .

– ليست وكالة . فى دار التاجر ثروت . لا يبيع إلاّ للأمراء والبكوات ، لا يتاجر إلا فى بنات الشركس الشقراوات البيضاوات ، ابتداء من سن العاشرة إلى ماتحت العشرين ربيعا!

انتحى الشاطر بحتحوت جانبا :

– أتينا نتفرج على أسواق الجوارى ، فهل نترك الحسناوات البيضاوات الشقراوات !

– جواسيس محمد على فى كل مكان ، وانتحالك شخصية ضابط فيها قطع الرقبة !

– إنها رقبتى أنا !

– وأنا شريكك . اسمع كلامى . كم من هزل انقلب غما !

كان التاجر قد ركب بغله وسبق بعبده وصبيه فتبعاه . عبروا من جديد على الأطلال والطواحين العتيقة وتلال الأتربة . مرة ثانية نهض حارس البوابة احتراما للتاجر . والعبد الأسود أمامه ينهر المارة لإفساح الطريق . يسب ذوى الجلاليب الرثة .

يشتم المتشحات بالملاءات الزرقاء . يتمهل جانبا لمرور ثرية فوق حمارة . يفسح الطريق تماما لكل فرس يركبه تركى أو شركسى .

ساروا فى ظلال البيوت والمساجد ، وأمام إحدى تكايا الدراويش وبعض الورش . والكلاب والجمال والحمير تزحم الطريق مثيرة الغبار . ثم دخلوا أزقة رطبة هادئة ، ما إن لحظتهم كلابها حتى جاءت تشيّع حميرهم بالنباح ، إلى أن مروا من تحت بوابة عتيقة فتركتهم لتتسلمهم مجموعة أخرى . ظلوا يخبون فوق الحمير حتى شموا رائحة المياه ، وصاروا جوار الخليج الذى يمد القاهرة بمياه النيل السعيد . أخيرا توقفوا أمام أحد البيوت .

قادهم التاجر إلى بوابة عالية مواربة . دفعها بينما راحت الحمير تشرب من الحوض المجاور . بمجرد دخولهم استقبلهم هواء رطب معطر . وكانت شجيرات ورد وياسمين تحيط بنافورة وسط فناء فسيح ، تحيطه الغرف من ثلاثة جوانب فى طابقين ، أعالى الجدران مزخرفة بكتابات عربية بلون أحمر على أرضية خضراء . والسماء أعلاهم فى صفاء حزين . وهمس التركى :

– كما ذكرت ، لا يأتى هنا إلا الأمراء والأثرياء .

ثم استدار يحضن صاحب المكان ، ثروت النخاس البدين . حادثه همسا بعض الوقت ثم انصرف مودعا الجميع . التفت ثروت بوجهه المستدير الشاب . رمق حتحوت بنظرة عابرة ، ثم اندفع يرحب بالشاطر ، فى بشاشة أمير ونظرات قرصان . أخذهما إلى حيث المقاعد الوثيرة ، وسرعان ما جاء الغلمان بشيشتين لهما ، وصينية مستديرة فوقها أكواب القهوة الصغيرة ، كل كوب مثبت داخل ظرف فضى . تخللت الشمس جانبا من المشربيات فارتسمت ظلال نقوشها على الأرض ، بينما سحابات الدخان تتبدد .

عادت الأكواب فارغة إلى فوق الصينية ، فأمر بعرض الجوارى . مع دخول خمسة منهن توقف الشاطر عن التدخين . وحملق حتحوت إلى الفتيات الصغيرات ، جميلات بيضاوات بعيون ملونة ، زرقاء خضراء رمادية . وهتف فى رثاء :

- مخطوفات من أحضان أمهاتهن !

رمقه ثروت فى قسوة . ضغط على حبات مسبحته الذهبية ، وقال للشاطر :

- تعرف جنابك أن آباءهن يحضرنهن إلى القاهرة ، يتحملون مشاق السفر لأبيعهن لحسابهم وأنال عمولتى . فأسلمهن إلى زوجاتى ليتعلمن آداب السلوك ، ويأكلن معهن فيتعلمن آداب المائدة ، ومن المعاشرة يتعلمن اللغة المصرية والنوادر والشعر والغناء .

اندفع حتحوت مقاطعًا :

- كيف يبيع الأب ابنته ؟!

ارتج لغد النخاس الأحمر :

- لأجل المال فهو فقير ، ولأجل أن يهئ لها فرصة حياة رغدة !

جعل إحداهن ترفع الطربوش عن رأسها ، فتهدل شعرها حتى الخصر ناعما كخيوط الحرير الأصفر . قال للشاطر وفى عينيه نظرة حنان :

- واحدة مثل هذه لن يشتريها إلاّ من يقدر على ثمنها ، فتعيش عنده مثل الزوجة لها عبدات لخدمتها وطواشى لحراستها ، إن ولدت له ابنا فقد يتزوجها . حوالى عشرين واحدة ممن بعتهن فى السنوات الأخيرة صرن مثل الهوانم ، واحدة صارت فى مصاف أميرة وابنها أمير !

توقف مستريبا بنظرة قرصان :

- كيف لا تعرف جنابك ؟ !

- بسبب مشاغلى العسكرية ، تعرف طبعا ؟

بينما هم فى ذلك ، إذا أحد العبيد يدخل مهرولا ويهمس فى أذن ثروت ، نهض بجسده الضخم مستأذنا ليعود بعد قليل ومعه امرأة لا يبدو منها سوى عينين سوداوين ، يتبعها عبدان وجارية سوداء حاسرة الوجه . وجدا التاجر ينحنى لها إجلالاً

فوقفا . تفحصتهما فى فضول . بعد أن عبرت نظراتها الشاطر عادت تتأمله ، ثم أخذت ترنو إليه مرارا ، فارتبك واحمر وجهه الأبيض ، وبدا أكثر جمالا بشاربه وزيه العسكرى المهندم . دهش عندما أحضر الغلام لها نرجيلة فاخرة تحيطها سلسلة فضية ذات حلقات ذهبية .

شاركتهم الجلسة وراحت تدخن فى هدوء مجاملة لمضيفها ثروت . انحسر الثوب عن جزء من ذراعها فبدت أساورها المرّصعة ، ورأى الشاطر نظراتها لا تفارق وجهه إلا لتعود إليه . فتذكر المرأة الشركسية الجميلة التى قابلها فى شندى بالسودان ، وقالت إنها زوجة المملوك عبد الرحمن المنفوخ الذى كان هاربا من مذبحة محمد على للمماليك ، وإنها من « جورجيا » خطفها عمّال النخاسين وتنقلت من بلد إلى بلد حتى استقر بها الحال بالقاهرة . وقضى معها الشاطر ليلة هانئة أنسته أهوال التغرب مع حتحوت أربعة عشر عاما فى بلاد الشايقية والفور والدنكا وأعالى النيل !

صفق التاجر فجاءت جارية مثل الحلم الجميل بقنينة العطر ، راحت تنثره فى الهواء ليزداد عبق المكان طيبًا فوق طيب ، ومن خلفها دخلت ثلاث فتيات بهيات للعرض على السيدة ، كل واحدة أجمل من زميلتها ، والثلاث أجمل من السابقات . فنهضت تتفحص إحداهن فحص الخبيرة ، بعد أن لمستها التفتت للشاطر وسألته بصوت موسيقى :

– ما رأيك ؟

– سبحان من أبدع وصوّر !

فأشارت للتاجر ثروت الذى هرول مقتربا وهمست له جانبا :

– هذه المرة أريد غلاما أمرد جميل الصورة مسلوب الذكورة !

– الأبيض الخصى نادر الوجود حاليا ، لكنى سأبحث .

– ليكن غلاما عاديا وسنجعل طبيب الأميرة الإيطالى يخصيه .

ثم رمقتهما بنظرة مودعة ، وتهادت منصرفة ومن ورائها العبدة والعبدان .

بعد خطوات وقفت وتحدثت مع التاجر وهى ترمق الشاطر ، بحيث أيقن حتحوت أنها تتحدث عن صاحبه ، وشعر بغيرة خفيفة . بعد أقل من دقيقة وقف الشاطر فاردا طوله فى ثقة مزمعا الانصراف ، على وعد العودة بعد أسبوع . تبعه حتحوت إلى الحمارين قرب الباب ، قبل أن يمتطى الشاطر حماره جاءته الجارية السوداء قائلة :

- سيدتى تريدك .

التفت إلى المرأة ، وجد سرج بغلتها فاخرا بشراريب زاهية ، تبادل وحتحوت نظرات الفضول وسأل الجارية :

- مَنْ تكون سيدتك ؟

- وصيفة الأميرة زوجة الباشا .

أومأ لحتحوت كى يصحبه ، فاعترضت :

- سيدتى تريدك وحدك ، سيدتى لا تريد هذا معك !

توجه بقوامه المشوق صوب المرأة ، شعر بنظراتها تحتويه معجبة بربكته . وقف أمامها محتقن الوجه ، شمّ رائحة عطرها ، لمدة ثانية دخل فى غيبوبة ، أفاق منها ليضع عينيه فى عينيها ، تاه فى سوادهما ، ثم رأها تتظاهر بلم حبرتها لتريه بعض ذراعها اليسرى ، بضّة مدملجة بالذهب . قالت :

- أخبرنى ثروت أنك أميرالاى ، لماذا أنت فى رداء عسكرى فلاح ؟

- لأنى عسكرى .

- فلاح فى خان تاجر الأمراء ! .. لا أصدق ! .. تبدو شركسيا جميلا مثل الشراكسة !

- ماذا تريدين ؟ ومن أنت ؟

- أريد الكلام معك . هنا لا يجوز . هل تعرف دار كلوت بك الطبيب ؟

- قرب الأزبكية .

– على أطراف الحى القبطى ومشارف الموسكى . انتظرنى فى الحديقة التى هناك . يوم الجمعة القادم صباحا . تعال وحدك .

رمقته بنظرة أخيرة آسرة ، وكأنها ابتسمت تحت البرقع . ثم أشارت لأحد العبدين فوضع صندوقا صغيرا صعدت عليه إلى البغلة ، التى سحبها العبد الآخر على مهل ، وتقدم الأول يفسح الطريق ، ومن خلفهم العبدة على حمارة . ابتعدوا والشاطر جامد فى مكانه . مرّ من جواره سقاء يبيع الماء للمارة من قربته فى أكواب نحاسية ، ضاربا أحدهما فى الآخر محدثًا رنينًا يلفت الأنظار ، لكن الشاطر ظَلّ مأخوذا وكأنه أصم ، إلى أن اقترب منه حتحوت :

– ماذا كانت تريد منك ؟

– لم أفهم .. يالها من امرأة !

– تذكر أنك زوج زهرة ابنة مبروكة العفيفة وأخى الريّس مرسى ، وأن لك منها « بهية » أجمل بنات الدنيا !

فنظر إليه ولم يتكلم ، وعادا إلى معسكرهما خارج القاهرة ، عندما التقيا بصديقهما محمد بن عمر التونسى وعرف ما حدث ، حذر الشاطر فى صوت خفيض بسر يعرفه :

– لأفندينا جواسيس فى كل مكان ، فى المقاهى والوكالات ، يدخلون بيوت الأكابر بأعذار مختلفة ، وأيضا جاسوسات يدخلن مكان الحريم بصفة بلاّنة أو ماشطة ، كما يذهبن إلى حمامات النساء العمومية للتنصت على ثرثرتهن ، ثم يبلغن جميع ما سمعوه إلى امرأة بجهة السيدة زينب ، المرأة التى أعطت دروسا فى اللغة العربية لأفندينا لأنها تجيد العربية والتركية ، وتبلغ هى ما سمعته إلى رجل بالقلعة اسمه الشيخ يوسف ، كان يعمل بصاصا لدى « لاظ أو غلى » كتخدا مصر !

نظر حتحوت للشاطر يفهمه الخطر المحدق به . اعترض الشاطر :

– لكن لاظوغلى مات !

- حل مكانه عباس حلمي حفيد أفندينا من ابنه طوسون .

سارع الشاطر في ذكاء يحول مجرى الحديث إلى ذكريات السودان ، عندما ذهب مع حتحوت وإدريس إلى الفاشر عاصمة بلاد الفور ، وصادفا في رحلة الصحراء المهلكة محمد بن عمر التونسي ، وكان متوجها للبحث عن والده هناك . ربطت الصداقة بينهم . تفرقوا ثم تجمعوا عمالا في جيش باشا مصر محمد علي ، حيث عمل التونسي واعظا ومترجما أحيانا[1]

(١) كان محمد لاظوغلي المتوفى سنة ١٨٢٧ موضع سر محمد علي ، وهو مؤسس دواوين ومصالح الحكومة . وكان بدرجة كتخدا ، تعادل الآن رئيس الوزراء ، وقصة التجسس صحيحة .

(٢) ما كان مع الحبيب

فى الليل المتأخر ، ومن مدرسة الفرسان بالجيزة ، التى كانت منذ سنوات قصرا لمراد بك أمير المماليك الذى فر إلى الصعيد مع مجىء بونابرته . من قصره الفاخر الذى شاهد عزّه ومماليكه وجواريه وغلمانه ، تحركت خيّاله جيش محمد على الجديد عابرة النيل فوق الجسر المثبت فوق المراكب ، ونيران مشاعلهم تنعكس فوق مياه النهر ، متجهين إلى مصر القديمة ، ثم مخترقين القاهرة ، على قرع الطبول ، ليستيقظ جميع الأهالى الذين أطلوا من نوافذهم ، يتأملون النظام الفريد لطابور الفرسان الطويل ، المنضبط على طريقة الفرنجة . أطلقت النسوة الزغاريد من وراء المشربيات ، والخيول تصهل وتنفر ، والكلاب تفر إلى الأركان مذعورة ، وما تكاسل منها فى إفساح الطريق وطأته السنابك . قبل ذلك كان فرسان المماليك يدخلون المدينة نهارا فى فوضى وكبكبة رهيبة ، يزحمون الطرقات بخيولهم وعبيدهم ويطئون أشخاصا من الناس وبعض الحمير !

ابتعد الفرسان بنيران مشاعلهم ، بعد اختراق العاصمة إلى الخلاء المفضى إلى جهة الخانكة وأبى زعبل ، حيث البيادة - مشاة الجيش الجديد - على أتم الاستعداد ، فى معسكر « جهاد أباد » العام ، بعتادهم من بنادق وذخيرة ومشاعل ، معهم رجال المدفعية بمدافعهم الجديدة المصنوعة فى مصر . الجنود من المصريين ، والضباط من أبناء الترك والشركس ، والمعلمون من الأجانب خاصة الفرنسيس . والجميع فى توتر وتيقظ وقد سرت شائعة بأن عزيز مصر محمد على سوف يحضر المناورة . وكان ولده إبراهيم باشا يركض بفرسه هنا وهناك مصدرا أوامره ، إلى جواره أركان حربه الكولونيل سيف المعروف باسم سليمان بك الفرنساوى ، وقد شاعت حكمتهما أن يصطف المجندون الجدد لمشاهدة التدريبات ، كى يألفوا حياة الجهادية ودوى المدافع .

فى معسكر الاستقبال تأمل الأمباشى حتحوت الفتيان الجدد بثيابهم الجديدة ، وأقدامهم لم تتعود بعد على لبس الأحذية ، أتوا بهم بعد خطفهم من قراهم . شاهد نعاس القهر فى عيونهم وسوء التغذية على وجوهم . بذل جهدا كبيرا حتى رتّب صفوفهم ، ثم أعطى التمام لرئيسه الجاويش الشاطر قائلا :

– الضحايا الجدد أفندم !

فصاح يأمره بوضع الثبات فى صرامة عسكرية أهلته للفوز بشريط وخمسة قروش زائدة كل شهر . بعد أن اطمأن إلى المجموعات المسئول عنها أعطى التمام إلى الباشجاويش ، والباشجاويشات أعطوا التمام للصولات ، ومعظم هؤلاء من المصريين . وكل عدة صولات يرأسهم ملازم ثان ، هو ومن يعلوه من أبناء الترك أو الشركس ، ومهمتهم جميعا استقبال الصغار المخطوفين من أهاليهم ، وتحويلهم من فلاحين متذمرين إلى عسكر منضبطين . كما فعلوا مع السابقين لهم ، ومنهم ثلاثون ألفا قتلوا فى العامين الماضيين صرعى على أرض اليونان أوغرقى فى مياهها !

رمى الشاطر بنظراته بعيدا إلى الأرض الفضاء وقد ملأها جنود المشاة ، الذين تدربوا فى الأعوام الثلاثة الأخيرة ، إبراهيم باشا ما زال يجول أمامهم ومعه سليمان الفرنساوى ، فى انتظار وصول الفرسان . وكان الطوبجية قد وصلوا بمدافعهم على عجلات تجرها الخيول والبغال ، لامعة نظيفة قوية كما صنعت بمصنع المقطم . جميع ما حوله لا يوحى إلا بالحرب ، بينما هو مشغول البال بالمرأة التى لا يعرف اسمها ، وتاه فى سواد عينيها ، وهو الغشيم بأسرار الغرام والهيام . قالت العبدة إنها وصيفة أميرة زوجة باشا ، محال أن يكون باشا مصر محمد على ، ولا ولده إبراهيم . الأميرات الهوانم كثيرات والأمراء الباشوات كثيرون . لكن ما زال يشم عطرها . زوجته زهرة فلاحة لا تعرف التعطر ، قمة التبرج عندها أن ترتدى ثوبا مغسولا بعد الاستحمام . تعطرت قديما من الطيب الذى عاد به من السودان ، وكان منظر مروحة ريش النعام فى يد حماته مبروكة أعجوبة العجائب ، لكن زهرة طيبة ابنة أصول ويحبها .

مع أول شعاع ضوء وصل الخيالة على إيقاع الطبول والزمامير ودوّى الأبواق ، وقد أطفأوا مشاعلهم . دخلوا ساحة المناورة بنظامهم الصارم ، داروا حتى اصطفوا لتحية إبراهيم باشا . رد تحيتهم فخورا بهم وأمرهم بالتوزع حسب ما هو مرسوم لهم . فانقسموا إلى مجموعات وصعدوا ليكمنوا فى الأماكن العالية ، وبقيت المدفعية فى أربعة صفوف .

بينما هم ينفذون ذلك اقترب المستجدون . بمجرد ثباتهم جاء إبراهيم باشا صوبهم ومعه سليمان الفرنساوى والأتباع يحملون الرايات . من فوق صهوة جواده جال يتأملهم بنظرات مسيطرة . جمدوا محملقين إلى حركته النشطة . عندما وجد الصمت يلجم الجميع حتى الخيول ، رفع ذراعه القصيرة خاطبا فيهم :

– يا أبطال المستقبل ، لكم الفخر والتباهى ، اليوم تصيرون جنودا فى جيش أبى – ولى النعم عزيز مصر – على مر العصور وأنتم محرومون من شرف حمل السلاح ، وكان المماليك الذين قضى عليهم أبى يحتكرون لأنفسهم هذا الشرف ، وياليتهم أفلحوا فى الدفاع عن مصر أمام غزوة نابليون . الآن أنتم تنالونه فكونوا سعداء !

أحكم عنان فرسه الأصيل :

– سمعتم عن حرب خضناها فى اليونان ، واليونان مثل مصر ولاية خاضعة لمولانا السلطان العثمانى ، هاج أهلها طامعين فى حكم أنفسهم ، فأرسل لهم جيشه بقيادة خورشيد باشا ، وهو نفسه الذى كان واليا هنا منذ أربع وعشرين سنة ، وغضب عليه آباؤكم لظلمه ، فخلعه المشايخ والأعيان وطلبوا من السلطان تولية والدى مكانه ، هذا الخائب أخفق أمام متمردى اليونان ، فاستغاث السلطان بأبى ، فأرسلنى بجيش عظيم ، أربعون ألفا من أخوتكم فلاحى مصر ، سخر الأتراك وتساءلوا إن كان جيش الفلاحين ينجح فيما أخفق فيه جيشهم ، وانتصر أخوتكم فى جميع معارك البر ، يشهد على ذلك رئيس الأركان سليمان بك الفرنساوى . ودليلى أيضا الخمسة آلاف أسير من اليونان الذين أرسلتهم من هناك وتوزعوا على بيوت الأكابر فى القاهرة والإسكندرية ، فتحولت إناثهم إلى جوارٍ وذكورهم إلى غلمان مماليك لنا !

رأى وجوههم فى غير حماس . قال :

– من أراد منكم الكلام فمعه الإذن .

دام صمت رهيب ، تقدم بعده حتحوت نصف خطوة مترددة بين رعب الشاطر ، لكنه تراجعها لازما الصمت بين ارتياح صاحبه . قال إبراهيم :

– منذ أسابيع سألنى مراسل أجنبى : كيف يسخر جناب القائد من الأتراك وهو منهم ؟ .. قلت له ، وهذا ما أريد منكم أن تصدقوه ، أنا لست تركيا . جئت مصر صبيا ، ومنذ ذلك الحين مصرتنى شمسها التى تشرق علينا الآن ، وغيرت من دمى وجعلته دما عربيا مصريا خالصا ، مثلكم يا من ولدتم هنا . فى بلد مثل فرنسا يعطون الجنسية الفرنسية لمن يقيم بها عشر سنوات ، أما نحن فقد جئنا إلى مصر صغارا ، فلسنا الآن أتراكا . الترك يتركون الخراب أينما ذهبوا . لقد اندمجنا فى أمة أرقى وأنبل من الأمة التركية ، اندمجناها فى مصر التى سبقت أوربا إلى الحضارة ، وآثارها الخالدة التى شيدها أجدادكم شاهد على ذلك . سمعتم عن معركة « نافارين » البحرية ، هناك انفردت بأسطولى بوارج ثلاث دول كبرى ، فأغرقوه مع ثلاثين ألف شهيد . كنت على البر مع سليمان بك . لم يساندنى الأسطول التركى كما يجب . أسطول أبى الذى قضى السنين الطوال فى إنشائه ... سوف يظل عام ١٨٢٧ عام عار على انجلترا وفرنسا والروسيا ، ولم يعوضنا السلطان إلا بجزيرة كريت الفقيرة ، نحن نريد فلسطين والشام جميعها .

أراد سليمان الفرنساوى الكلام ، فتقدم منه عمر التونسى مصغيا ثم ترجم كلامه :

– يقول حضرة رئيس الأركان إن الجندى المصرى خير جندى رآه ، شديد التحمل ، كان يقاتل فى اليونان سبع ساعات متواصلة لا يتناول فيها إلا قطعة خبز وشربة ماء .. وحضرة رئيس الأركان يشهدنى على كلامه لأنى كنت أحد وعاظ الحملة ، وأشهد أن قوله حق .

كان الشاطر قد اقترب من حتحوت وطلب منه التزام الصمت ، ثم جمد مرعوبا وهو يرى إبراهيم باشا يقترب بجواره ويتفحصه :

– أنت ......

كاد يموت رعبا ، أتكون المرأة وصيفة إحدى زوجاته . لكن القائد سأله :

– رأيتك من قبل . أنا لا أنسى جنودى .

تلعثم الشاطر ، سارع حتحوت ينقذه :

– سموك رأيتنا فى سنار عاصمة سلطنة الفنج الزائلة ، كنا ضمن جيش أخيك إسماعيل باشا فاتح السودان .

– رحمه الله . أذكر الآن . لماذا هو زائد شريط عنك ؟

التفت إلى ياوره وأمر بترقيتهما معا إلى رتبة باشجاويش . فتخلص الشاطر من هواجسه واستراح . ثم اكتأب من وسواس جديد ، إن كانت المرأة وصيفة إحدى زوجاته فهل ضاجعها ؟! ... طبعا ضاجعها .

أعطى إبراهيم الإذن ببدء المناورة ، فبدأت المدافع تضرب ، بحيث إن المدفع الواحد كان يضرب اثنتى عشرة مرة فى الدقيقة الواحدة . أحدثت الانفجارات دوياً رهيبا ، فتراجع المستجدون ينوون الفرار لولا أن الحراس منعوهم . وعلى كل مدفع ثلاثة أنفار وملازم ، اثنان يحشوان ماسورته الضخمة بالقذائف ، وثالث يحمل مشعل الفتيل ، والملازم يضبط النيشان . أما الرابع فيسكب المياه على الماسورة ليبردها . بينما أخذ فرسان الأعالى ينزلون ركضًا وهم يضربون بالبنادق ، هاجمين على المدافع التى لم تتوقف ، اختلطت أصوات المدافع والبنادق فصارت رعودا . وكل فارس تمكن من خطف شيء من أدوات الطوبجية رجال المدافع وأتى به إلى إبراهيم باشا أعطاه بقشيشا وإنعاما . استمر ذلك حتى المغرب ، ومات بسببه أشخاص وسيّاس من كثرة وقوع الخيل واختلاط الحابل بالنابل . حتى أمرهم النفير بالانفصال للراحة وتناول الطعام .

حط الليل فأشعلوا آلاف المشاعل فى دائرة متسعة تاركين الخيل ترتاح ، ثم أشعلوا النفوط ، وتعالت الصواريخ فى الهواء وفيها قدر عظيم من البارود وخشب

الزان ، بحيث إنها صعدت إلى أعلى مثل عمود النار ، وأتوا بأفعال أخرى عجيبة تفنّن فيها الفرنجة والمصريون ، حتى انتصف الليل ففضوا المناورة وقد أخذهم الإنهاك ، وانصرف إبراهيم باشا . قبيل الفجر اتجهوا لاختراق العاصمة كي يشاهدهم الأهالى .

بينما انهمك حتحوت والشاطر وزملاؤهما يدربون المستجدين على الوقوف فى طوابير منتظمة والدوران يمينا ويسارا . عند الظهيرة توقفوا لتناول العدس والخبز ، ثم انقسموا إلى مجموعات مرهقة ، تستمع كل مجموعة إلى أحد الوعاظ ، من أمثال عمر التونسى الذى يجيد الفرنسية والذى حدثهم عن فوائد الجهادية، لأن الجهاد أقصر الطرق إلى الجنة . دقائق قليلة وخفت صوته أمام عيونهم النعسانة ، فصرفهم ليناموا ، وذهب يجلس مع صديقيه حتحوت والشاطر ، هنأهما على رضاء قائد الجيش عنهما ، ثم تذاكروا معا بعض خفايا مغامراتهم بالسودان ، وكيف أن معظم بقاعه وقعت تحت حكم محمد على عدا أعالى النيل جنوبا وسلطنة الفور غربا !

غير أن الشاطر شرد ذهنه إلى موعد المرأة ، باحثا عن عذر ينفصل به عن حتحوت ، دائما يقضيان يوم الأجازة معا ، يتسكعان فى أنحاء القاهرة ، وإن كانت الأجازة أسبوعا توجها إلى زيارة الأهل بقرية تلة بالمنيا .

فى الصباح نهض الشاطر واغتسل وتأنق ، ، وحتحوت يراقبه . فكّر الشاطر فى سبعة أعذار استخفها جميعا وهما سائران إلى المدينة . لن يضحى بمحبة صاحبه بسبب امرأة . مع اقترابهما من الأزهر تمنى لوتاه عنه بفعل الزحام الشديد . مثل كل مرة وجدا محلات خان الخليلى مضاءة بالشموع والمصابيح رغم ضوء النهار ، تعرض بضائعها بالداخل والخارج ، من أنواع الخواتم والخناجر المرصعة وشيلان الحرير والكشمير والقطيفة والأقمشة الموشاة .. وكل خان يتلألأ ببريق الذهب والفضة .

اجتازا السوق التركى إلى الموسكى ، عبرا من جوار خمارة بها أجانب إنجليز ومن اليونان ومالطة وفرنسا وبعض أثرياء المصريين ، وعن قربها السيّاس الجاهزون بالخيول . ونصف الشارع تظلله الأقمشة والأخشاب ، تبيع دكاكينه البضائع الأوروبية من منسوجات وأصواف وأدوات منزلية ولحوم محفوظة .

عبر الخليج فعادت المرأة تهيمن على أفكار الشاطر ، والطريق يزداد ضيقا وازدحاما . وأمام خان الفرنجة حلاق بلا زبائن ، وأمام محلاّت الجزارة عدد كبير من الكلاب . مع تزاحم العيال والحمير وباعة الخيار والخبز ، ومجيء قطار من الجمال المحملة بالتبن ، حدث اضطراب فى السير وتداخل وتباعد ، تلفت بعده حتحوت حوله فلم يجد صاحبه !

كان الشاطر قد تسلل إلى دكان الحلاق . جلس على المقعد وظهره إلى الطريق ، وأمامه فى المرآة حتحوت يتلفت باحثا عنه ، يروح ويجيء حتى انصرف يائسا . بعد الحلاقة خرج محفوف الشارب واللحية . يسرع الخطو إلى مكان اللقاء . قريبا من تكية الدراويش تذكر ما قاله التونسى عن عسس الباشا . أبطأ مترددا أمام باب عريض مغلق فوقه تمساح كبير محشو بالقش ، من تحت هذا التمساح تخرج العربات التى تعبر الصحراء إلى السويس . عزم أمره وتقدم يخترق مجموعة من الأطفال والنسوة الملتفين من حول رجل يحرك بالخيوط دميات صغيرة !

أمام مكان اللقاء ، على بعد أمتار من الأزبكية ، احتقن وجهه يعذبه طنين مزعج . كانت الحديقة الموصوفة تقع بين بيت كلوت بك وبيوت ثلاثة قناصل ، والدخول إليها من باب أحدهم ، وإلى الجوار بعض السياس والحمير المسرجة فى انتظار خروج سيداتهم من الحديقة المتوارية . رأى بعض النسوة بالحبرات والبراقع ينفحن حارس البوابة ببعض المال فيسمح لهن وللخادمات بالدخول، الزيارة للحريم . لكن هل يجرؤ البّواب على اعتراض طريق جاويش في جيش باشا مصر ؟!

تقدم بوجه عابس فأفسح له الحارس الطريق ، عبر ممرا ضيقا وهو يدك الأرض بخطوات عسكرية ، إلى أن دخل حديقة غناء وسط البيوت الأربعة ، أبطأ متلفتا حوله ، كيف يتعرف عليها والحبرات والبراقع تجعل النسوة متشابهات ! رفعت امرأة برقعها تتنسم الهواء ، بمجرد أن رأته أسدلته ، لكنه ليس الرجل الوحيد هنا ، تجول حتى أسوار بيت كلوت بك الحديدية ، وقف يتأمل الزرافات التى يرعاها بعض النوبيين ، وعلى مرمى البصر حديقة بديعة من أشجار البرتقال وبعض أشجار التوت والنخيل والموز ، من بين كل هذه الخضرة تكشفت مظلة خشبية على أعمدة ، وبينما هو متوجه

إليها جاءت الجارية السوداء وقادته إلى حيث تجلس سيدتها تحرك مروحة أمام وجهها المستتر بالبرقع .

جاورها بعد أن غاص فى سواد عينيها . لحظات صمت وهى تصطاده بنظراتها ، تعرض له جمالها فى بخل كبير . ركنت المروحة ومدت يدها تحييه ، انحسرت الحبرة والكم الواسع عن نصف ساعدها ، أحسّ بكفها فى كفه ، بطن كفها مصبوغ بلون الحناء الوردى ، ثم سمع صوته يقول :

– حديقة بديعة .

– نزهة السيدات المتحشمات ، يوم الجمعة للمسلمات ، والسبت لليهوديات ، والأحد للمسيحيات .

عاد يسمع صوته ، يسأل :

– من أنت يا هانم ؟

– من أسبوع كنت بشريطين ، اليوم بثلاثة

– إبراهيم باشا شخصيا أنعم بالترقية علىّ وعلى صاحبى .

– لكن ثروت النخاس أخبرنى أنك أميرالاى فى زى جاويش !

– كنت جاويشا ، ومنذ الأمس باشجاويشا .

– خسارة ! أمتزوج ؟

جاءت الخادمة بكوب من عصير الليمون . رشف رشفة من كوبه ، وأزاحت هى البرقع جانبا عن فمها البديع . شربت قليلا ثم ركنت الكوب فتهدل البرقع يخفى مابدا . قالت :

– حدثنى عن نفسك

– تيتمت وأنا صبى صغير . مات والداى فى إحد نوائب الطاعون ، وقبل مجىء بونابرته . فى أثناء وجود الفرنسيس بمصر تعرفت على صديق عمرى

حتحوت ، ذلك الذى رأيتيه معى ، ورافقته إلى قريته تلة بالمنيا . هناك رأيت زهرة ابنة أخيه الريّس مرسى فسكنت محبتها قلبى من أول نظرة . قبل أن أتقدم لخطبتها شاءت الظروف والملابسات أن أتوغل مع حتحوت جنوبا .. وفى الصعيد التقينا بإدريس .

– من إدريس ؟

– كان صبيا طيبا من عمرنا ، وكان النخاسون قد خطفوه من أرض الدنكا وباعوه فى مصر . فلما وجدناه أخذناه معنا ، كنا نظن أن الفرنسيس يطاردوننا وكانوا فى طريقهم إلى الرحيل نهائيا . بعد ذلك كانت لنا مغامرات تفوق الخيال ، مع قبائل الشايقية شمال السودان ، وفى دارفور حيث تعرفنا بعمر التونسى الذى صار مترجما وواعظا بالجيش بعد ذلك ، وفى أرض قبائل الدنكا حيث تعرف إدريس على عشيرته وبقى معهم ، وعند منابع النيل ... بعد سنوات رجعت وحتحوت إلى قرية تلة ، فوجدت زهرة قد تزوجت . بلعت أحزانى وتزوجت من صبية أخرى .

– هى زوجتك الآن ؟

– هذه ماتت وهى تلد . وكان محمد على ...

– أفندينا ولى النعم محمد على باشا

– كان يعد لفتح السودان . وكان قد علم من عسسه عن مغامراتنا هناك ، فأرسل من قبض علينا ، وأدخلنا ضمن الحملة . وشاهدنا وحشية جيش ابنه إسماعيل ومماليكه مع أهل السودان . ظللنا معه حتى أحرقه نمر ، مك مدينة شندى أى حاكمها ، فهربنا وعدنا إلى قريتنا . فى أثناء ذلك كان زوج زهرة قد جنّد ، ودفعوا به إلى حرب اليونان مع إبراهيم باشا ، وغرق فى واقعة « نافارين » الأخيرة . وجميع ذلك حدث كى يتم المكتوب وأتزوجها .

– يالها من حكاية ! أتظن أن حرب اليونان قامت كى يموت زوجها ويخلو الجو لك وتتزوجها !

– للزمن تصاريفه . قبل أن نستريح أرسل أفندينا يستدعينا للعمل فى تدريب العساكر الجدد . فجئت هنا تاركا طفلتى بهية التى لم تكمل العام ، وحتحوت تاركًا ابنه إدريس الذى أسماه على اسم صاحبنا القديم ..

– أتحبها ؟

– زهرة ؟ طبعا

حركت مروحتها الفاخرة بعصبية . ركنتها ومدت أناملها تفك البرقع فبان وجهها . أيقن أن عينيها جميلتان بكحل وبدونه ، وأن عنقها الأبيض الطويل أكثر ملاسة من حرير الصين ، وعلى صدغيها جدائل من شعرها الوردى ، وترتر الذهب حول أطراف طربوشها القصير . رمقت انبهاره ورشقته بنظرة نافذة آمرة :

– طلقها

ابتسم يغوص فى غطرستها :

– لماذا ؟

أعادت برقعها ناهضة فى حدة :

– فكر على مهلك وأعطنى ردك الجمعة القادمة هنا .

أسرعت بقدر ما تسمح به ثيابها الكثيفة ومن ورائها الخادمة تحمل السلة بما حملت . تابعها من مكانه حتى اختفت ، من فرط ربكته نسى أن يسألها عن اسمها وعن اسم سيدها الباشا ! خرج وسار ساعتين أو ثلاثًا غير شاعر بالتعب ، حتى تراءى له المعسكر ، فتذكر حتحوت . ووجده بخيمة المبيت فى انتظاره . تشاغل بخلع ثيابه :

– تهنا من الزحام عند لاعب الدمى ..

– لم يكن هناك لاعب دمى ، وأراك حلقت !

– أنت تتوه كثيرا ، هل تذكر عندما تهت عن أخيك مرسى ؟

– كان ذلك يوم معامع ، يوم حرب بونابرته مع مراد بك ، وكنت صبيا !

- الآن أنت رجل كبير ومع ذلك تهت عنى من غير معامع !

من مساء الخميس التالى وحتى صباح الجمعة لم ينم الشاطر ، ظن أن الزمن توقف . كان شوقه جارفا ، قال : وضع الخالق فيها سحر جميع النساء ، أكون حمارا لو قاومتها !

هذه المرة وضعه حتحوت تحت المراقبة ، بعد التجول من خان الخليلى إلى حى الموسكى ، إلى زحام الباعة والكلاب والحمير والجمال ، غافله الشاطر ودخل إلى الحلاق ، بعد الحلاقة خرج أنيقا وتوجه إلى حديقه الحب . رد فى ثقة تحية البواب ، وتقدم مباشرة إلى الأيكة الجميلة . طال انتظاره فتهدل جسده ، لن تأتى ، كانت تظنه تركيا فإذا هو فلاح متزوج وأب ، لكنه يعرف مدى إعجاب البنات به أينما ذهب ، نساء الشايقية ودارفور والدنكا ومصر . مع تمام اليأس رآها تتهادى آتية ، شمّ عطرها وجاورته وخلعت برقعها فبلع ريقه مكررا : أكون حمارا لوقاومتها . وكلما حركت مروحتها المرصعة ، أو رفعت يدها وأنزلتها لترشف عصير الليمون ، سمع رنين أساورها الذهب .. ثم سمع صوتها :

- هل فكرت ؟

- من أنت ؟ لم أعرف شيئا عنك !

- أجبنى أولا ، هل ستطلقها ؟

- لست خائنًا للعشرة ، لن أفعل .

- حتى من أجلى ؟

أطرق صامتا ، تأملته فى ود جارف :

- أتزورها كثيرا ؟

- مرة كل شهر ، وأحيانا كل شهرين ، حسب أوامر الجيش .

- أتنوى إحضارها هنا ؟

– زهرة ترضى بالموت ولا تفارق أهلها ، كما أنها ترعى معمل التفريخ الذى أنشأته هناك .

– هل تعمل ؟

– كل فلاحة تعمل . أنت نفسك تعملين .

– أنا وصيفة لزوجة مولانا .

ركبه الخوف :

– محمد على ؟!

– اسمه افندينا ولى النعم . أنا وصيفة زوجة مولاك إبراهيم باشا .

تلفت مرعوبا . فوقفت باسمة وأعادت البرقع قائلة :

– راجع نفسك وقابلنى هنا الأسبوع القادم .

غادرته دون وداع ، ومن خلفها خادمتها بالسلة التى بها إبريق العصير وبعض المأكولات التى لم تطلبها سيدتها . نهض وعاد ماشيا المسافة الطويلة وهو بين النشوة والرهبة ، يسأل نفسه عن السر الذى جعل إبراهيم باشا يرقيه فجأة وأمام الجيش كله ، مما جعل الضباط يتلطفون معه ومع حتحوت .. ومع أى زوجة من زوجات إبراهيم تعمل حبيبته ؟ ... لإبراهيم عدة قصور فى أنحاء القاهرة وضواحيها ، وله فى كل قصر زوجة أو محظية ؟ .. المرة القادمة سوف يأخذ المبادرة ويبدأ بالسؤال .

بمجرد أن دخل خيمة المبيت سأله حتحوت فى جفاء إن كان قابلها ، فأخذه إلى الخلاء وحكى له ما حدث . انفجر فيه :

– هذه خيانة لزهرة الوفية العفيفة ، وإساءة لابنتك بهية اللطيفة !

كاد ينتحب :

– يا حتحوت ، هذا شىء مثل ضربة الشمس !

تأكد من عذابه ، كان يظن أن رواة المقاهى يبالغون فى وصف الغرام ، لكنه الآن يصدقهم . ضاع عقل صاحبه ، لفّت المرأة الشريرة رباط العشق حول عنقه ، وصارت تسحبه مثل الجحش المطيع . سأله إن كان سيقابلها مرة أخرى فامتلأت عيناه بالدموع .. ثم شعر به يتقلّب فى رقدته الليل كله . فتوجه فى الصباح إلى صديقهما عمر التونسى مستنجدا .

وتحدث عمر إلى الشاطر طويلا ، نصحه بأن يشغل يومه بالعمل الشاق ، وباقى اليوم بالدعاء ، عسى أن يمنّ عليه الخالق بالشفاء . عند نهاية الأسبوع بدا كما لو كان قد شفى . يوم الجمعة وافق على اقتراح حتحوت بالبقاء بالمعسكر للاستجمام . فرح حتحوت ، لكنه عندما ذهب لقضاء حاجته وعاد لم يجده !

أمام المرأة جلس الشاطر بوجه مرهق :

– هذه المرة أنا أسأل .

– أتأمرنى !

– نعم يا امرأة

لانت فى أنوثة ، فسأل عن اسمها واسم بلدها . قالت :

– أنا إحدى وصيفات سيدتى الأميرة خوشيار هانم ، زوجة سيدى إبراهيم باشا التى تسكن قصر المسافر خانة بالجمالية . وأظن أننى شركسية من بلاد شركسيا البعيدة . وينادوننى ثريا .

– ثريا اسم جميل .

اختنق صوتها :

– هذا اسمى وأنا كبيرة ، اختاره النخاس لى . أما الاسم الذى أختاراه أبى وأمى فلا أذكره ، ولا أذكرهما . باعانى وأنا طفلة !

أشفق عليها وتمنى لو أخذها فى حضنه ومسح دموعها :

– أنا مستعد لتلبية جميع رغباتك إلاّ أن أطلق زهرة

سالت دموعها مبتسمة :

- كنت أعرف أن أوقاتا سعيدة تنتظرنا . أنت رجل ومن حقك الزواج من اثنتين . أحببت فيك إخلاصك لزهرة . قلت اسمها زُهرة ؟

فقد قدرته على التفكير فاستردت بعض سطوتها :

- أعطنى فرصة لتدبير الأمر .

ثم أشارت لتابعتها فأحضرت مفرشا نظيفا فرشته ، وأخرجت من السلة أصناف الطعام . أدرك أن ألذ الطعام ما كان مع الحبيب ، وأقصر وقت ما كان مع المعشوق . جاء العصر فى لمح البصر . فافترقا والحب مشتعل .. ومشى هيمان ، يسترجع بخياله نظراتها وحماستها وبسماتها ، ودموعها وصوتها ومذاق طعامها . ثم خشى من اقتراب الليل ، ولم يجد حماراً يستأجره لقرب إغلاق بوابات المدينة ، فأسرع الخطو ولم يكن معه مصباح ولا حتى شمعة . ووجد حتحوت ينتظره عند باب المعسكر قلقا . توقع منه نوبة تقريع وعظة فبادر قائلا :

- الحمد لله . أنهيت كل شىء .

وفى اليوم التالى هنأه عمر التونسى :

- أخذ الله القدير بيدك واستجاب لدعائك

فأومأ موافقا ، داعيا القدير المجيب أن يضمه وإياها دارا واحدة .

(٣) أوان الحب

بسهولة حصل حتحوت على أجازة لمدة أسبوع له وللشاطر ، ظن أن أسبوعا يقضيه صاحبه مع زهرة وبهية ينسيه حب الشركسية . فوجىء الشاطر بالأجازة فكتم غيظه ، وطلب من التونسى أن يتوسط له سرا فى إلغاء أجازته . فتعجب وأيقن أنه فى حمّى العشق ، ووعده بالمساعدة قائلا :

– أمامك عاشق قديم ، لا يعرف الشوق إلا من كابده ، ولا الصبابة إلاّ من عاناها . إذا هبّت رياحك اغتنمها ، ما خلقت النساء إلاّ للرجال !

كانت المرة الأولى التى يلغى فيها الضابط التركى أجازه جندى مصرى وتحت إلحاحه . ولم يقتنع حتحوت بأن المعسكر لا يستطيع الاستغناء عن صاحبه لمدة أسبوع . فجر يوم الجمعة رافقه الشاطر ليوصله إلى ميناء مصر القديمة حيث الباخرة النيلية . بينما هما خارج المعسكر استيقظت كلاب الخلاء وجاءت ترحب بهما ، كثيراً ما ألقيا لها ببقايا الطعام ، ظلت تشيعهما بهزات الذيول حتى ابتعدا ، وهمت بالرجوع ، وإذا ببعضها يغيّر اتجاهه ويندفع نابحًا إلى أكمة قريبة . ظن الشاطر أن بالمنطقة غرباء أو بعض اللصوص . فقال حتحوت :

– أو بعض المستجدين الهاربين !

كان تخمينه صحيحا ، وشاهدا ستة أفراد يجرون خائفين من عض الكلاب ، لكنها وقفت مكانها تنبح حينا ثم استدارت راجعة ، لأن الكلب النبّاح لا يعض . رأى الشاطر الإبلاغ عنهم ، فاعترض حتحوت :

– سأتأخر عن موعد الوابور . أعطهم فرصة .

– سيمسكهم جواسيس الباشا !

– كثيرون أفلحوا فى الهرب من التجنيد ومن السخرة والضرائب ، وعدة آلاف نجحوا فى الوصول إلى فلسطين والشام . عبد الله باشا والى عكا لا يجندهم ويرفض إعادتهم . ماذنب الثلاثين ألفًا الذين ماتوا باليونان . قال إبراهيم إنه أرسل من الأسرى اليونانية خمسة آلاف غلام وفتاة توزعوا على قصور الأتراك والشراكسة ، ماذا أخذ المصريون ؟

– نوح الزوجات ولوعة الأمهات وتيتم الأطفال !

– هناك سر غامض . مصانع الأسلحة والذخيرة تعمل ليلا ونهارا . أفندينا يعد لحروب جديدة ، ولكن أين ؟ أخشى أن يكون قَصْدُه غربى السودان ، بلاد الفور وبلاد الدنكا ، فيصيب الضرر صاحبنا إدريس وعشيرته المسالمة !

– قال إبراهيم باشا إن والده يريد فلسطين والشام

– وهل يجرؤ على محاربة سيده السلطان ؟!

– لماذا إذن يبنى السفن الجديدة فى موانىء أوروبا وبالإسكندرية ؟ ولماذا يكثر من شراء الجمال والخيول والبغال ؟!

انتهى طريق الخلاء ودخلا المدينة فتوقفا عن هذا الحديث ، سارا بين الزحام حتى عبرا الخليج من فوق قنطرة الموسكى ، ثم سارا فى محازاته حتى باب الخَرْق ، ومرّا بجوار قصور المماليك السابقين ، حكام مصر قبل محمد على ، إبراهيم بك الذى مات بدنقلة شيخا ذليلا ، وابنه مرزوق بك الذى اغتيل فى مذبحة القلعة وهو بكامل أبهته ، ومراد بك الفاشل فى جميع الحروب ، والشابورى وغيرهم . أخذ محمد على القصور بحدائقها وأثاثها وبما بقى بها من عبيد وجوار ، وكانت قبله عامرة صدّاحة بأصوات الغناء على رشفات الكئوس ، فيّاحة ببخور العود والعطور وروائح الأكلات الشهية !

اجتازا قنطرة السباع قرب مسجد السيدة زينب ، تذكرا أيام عملهما لدى علماء غزوة بونابرته ، فى بيت السنارى بحارة مونج ، كانا يظنان أنهم يعملون بالكيمياء لتحويل المعادن الخسيسة إلى نفيسة . وكان إدريس يعمل مع الرسام دينون .. تابعا السير فى محازاة الخليج حتى وصلا إلى مدخله من النيل ، فم الخليج ، ثم ميناء مصر القديمة . وعندئذ واجه حتحوت الشاطر :

– ألم تشعر بالحنين لزوجتك وابنتك ، زهرة وبهية ؟!

زاغ بنظراته بعيدا ، فتركه وصعد الباخرة . لكن الشاطر ظل واقفا حتى أطلقت الباخرة النيلية صفارتها وتحركت تنفث دخانها الكثيف . فأحس راحة كبيرة . بعد حوالى أربع ساعات يرى حبيبته ثريا . فكر فى شراء هدية لها ، لكن قروشه فى جيبه لا تشترى هدية لائقة . بحث عن حمار يحمله إلى حديقة حبّه . سمع ناقوس المدرسة التجهيزية ، التفت إلى قصر العينى . فى حديقته دفن الفرنسيس رمّة كليبر ، وعند رحيلهم أخرجوها وأخذوها معهم . ثم جاء محمد على وحوّل القصر إلى المدرسة التجهيزية .

اقترب الحمار به من بركة الأزبكية . على مرمى بصره قصر الألفى بك الذى سكنه نابليون ، وفى حديقته تسلل سليمان الحلبى وقتل كليبر . إلى جواره شيّد محمد على قصر ابنته زينب هانم ، وعلى ساحل النيل بنى لابنته نازلى هانم قصر النيل ، وبنى لنفسه قصرا فى قرية شبرا البعيدة . وبنى معامل البارود والمصانع ، ونقل المدابغ من باب الخرق إلى أرض اللوق . هذا الرجل لا يهدأ ، وقد يحارب السلطان . يجد متعته فى الغزوات ، ولا يعرف أن أمتع الغزوات غزو قلب حسناء مثل ثريا !

جذب السايس الحمار مسرعًا به ، مبتعدا عن أرض المناخ ومئات الجمال التى يشتريها إبراهيم باشا ، وعن ساحة الحمير وتلال التبن والأعلاف . حتى ترجل الشاطر على شاطئ بركة الأزبكية . مازال الموعد بعيدا . مشى يتسكع، اندس بين دائرة من الناس يتفرجون على تمثيلية تدور بين رجل وقرده . الرجل يسأل والقرد يهز رأسه

بالموافقة أو الرفض . وافق أن يكون تركيا أو شركسيا أو ضابطا أو صرافا ، رفض أن يكون حرفيا أو جنديا ، هاج وقلب سحنته رافضا بعنف أن يكون فلاحا ![1] .

تسكع العاشق على مهل ، وصل إلى الحديقة قبل الموعد بساعة ، مرت وكأنها ألف ساعة . ثم دق قلبه مرحا وغاص فى سواد عينيها . أسمعته عبارات الاشتياق والهيام فضاع منه الكلام ، وطال الصمت بينهما إلاّ من نظرات الحب الفصيحة . ثم خفض عينيه وقد عكّر خاطره هاجس ، كيف يتزوجها وهى جارية يمتلكها إبراهيم الشهير المسيطر الوسيم ، لو طلبها إلى فراشه الليلة لاستحمت وتزينت له ! وهل تجرؤ إن هو تزوجها على صد رغبات سيدها ؟

قالت وكأنها قرأت هاجسه :

– اعلم ياحبيبى أننى جارية مولاتى الأميرة ، لا يتم الزواج إلا إذا أعتقتنى ، وأنا أتحين الفرصة لطلب حريتى منها ، وستوافق بإذن الله لأنها تحبنى . عندما أصير امرأة حرة ثم زوجتك أكون لك وحدك ، وهذا شرع الله .

كاد يبكى ، لمست كفه :

– نفعل ما نقدر عليه ، لكنى والله أحبك .

ثم سارعت تبدد الشجن بأن أمرت تابعتها بإحضار الطعام والشراب .

* * *

هذا ما كان من فعل الهوى بالعاشقين . أما حتحوت فقد رست به الباخرة على شاطئ النيل ليلا ، وقد أغلقت أبواب السور ، فتوجه إلى مركب أخيه الريس مرسى ، وجلس فى هدأة الليل يتأمل قوارب الصيادين ، ونجوم السماء الصافية وتل المقطم ، تذكر أول مرة نام فيها على المركب ، كان فتى صغيرا وسمع أن النيل المبارك ينبع من جبال القمر التى لا يعرف مكانها أحد . وبعد ذلك قال صديقه القديم إدريس أن بجبال

---

(١) باب الخرق هو باب الخلق . أرض اللوق هى باب اللوق . وكان شارع شريف باشا الحالى اسمه شارع المدابغ . وعبد الخالق ثروت كان اسمه شارع المناخ .

القمر دفائن ذهب تملأ زكائب ، وحرّضه والشاطر على أخذ زكيبة والتوجه إلى هناك وملئها بالذهب ، وكأن الزكيبة هى المشكلة . وحدثهما عن صندوق مسحور ، جميعه من البللور ، إذا نظر الجالس فيه شرقا رأى بلاد الشرق بملوكها وأسواقها ، وإذا نظر غربا رأى أقصى بلاد الغرب رؤية العين !

مع وشيش المويجات واهتزاز المركب الرتيب نام والضفادع تنق . واستيقظ على ترحيب الريس مرسى ، قارب الستين ومازال قويا صلب العود . تناول الإفطار معه ، ثم حمل الهدايا وتوجه إلى قرية تلة . فى الطريق شم رائحة الهموم ، وجوه شاحبة وعيون عابسة وشفاه يابسة ! لكنه نسى كل ذلك فى أحضان الأسرة ، الأبناء والبنات والأحفاد . سألته مبروكة زوجة أخيه مرسى عن ولدها عوض الذى جاء العسكر منذ أسابيع وأخذوه . لم يكن يعرف فقال :

– ليس فى معسكرنا ، جيش الباشا كبير جدا . لكن المؤكد أنه يجد الأكل والشرب ورعاية الأطباء .

– رعايتى أطيب وأرحم . خطيبته تنتظر باكية !

جاءت زهرة وابنتها من معمل التفريخ وسألت عن زوجها الشاطر ، تشاغل بداعب بهية :

– ألغى الضابط أجازته ، وليس على الجندى إلاّ الطاعة والامتثال !

تشعبت الأسرة مثل قبيلة صغيرة ، إدريس ابنه يقترب من العاشرة ، وبهية ابنة الشاطر فى الثانية من عمرها ، وعلى إدريس أن ينتظر عشر سنوات كى يتزوجها !

فى فناء الدار شاهد حيوان النمس الذى استأنسه إدريس ، كان فى مركب عمه الريس مرسى عندما رأى هذا الحيوان يحارب تمساحا صغيرا ، والنمس يحب لحم التماسيح الوليدة ، لكن التمساح عضه ونزل النهر ، فحمل إدريس النمس الجريح إلى القرية ، وأصر على علاجه واستئناسه ، رغم اعتراض أمه ميسورة لأن النمس يحب كذلك لحم الدواجن ، لكنه يلتهم أيضا الفئران !

فى أثناء العشاء رأى كف أحد فتيان الأسرة ينقص إصبعا ، قالت أمه أنه دفع دجاجة وعشرة بيضات ثمنا لبتره . توقف عن الأكل تعجبا ، فحكوا له عن عجوز لئيمة اسمها حليمة ، كانت تطوف الأرياف ، تحترف قطع أصابع الفتيان الذين فى سن التجنيد . وكان الفتى سعيد الحظ وأفلت من الجهادية . لكن ابن نجار السواقى كان منحوسا ، بترت له حليمة اللئيمة أصبع قدمه اليسرى الكبير ، وخاض فى الطين بجرحه فورمت ساقه بعد أيام ومات بعد أسابيع . ومن الفتيان من فقأ إحدى عينيه كى يضمن الإعفاء . ثم عرف البصاصون بأفعال حليمة اللئيمة فأخذوها وحلقوا نصف شعرها ، وغطوا كتفيها بأحشاء بهيمة ميتة ، وأجلسوها على حمارة عرجاء بوضع معكوس ، وجرسّوها فى الحوارى والطرقات ، ثم وضعوها فى جوال حشوه بالجير الحى ، وألقوها فى النيل ، فماتت غريقة حريقة !

اشتكى الريس مرسى :

– جباة الميرى ألعن من جباة المماليك ، على المراكب والمحصول والمواشى والنخيل ، يأخذون ضريبة الفردة زبدة وشمعا وسلالاً وحبالاً ليفية .

أضافت امرأته زهرة :

– وعلى معمل التفريخ . وإن كانت عندك لبدة بعها وادفع الفردة !

– هذا خنوع يا أبى !

– من امتنع نال مصير حليمة اللئيمة . إن رأيت ابن المأمور يركب العصا قل له مبارك الحصان . ارقص للنسناس فى زمانه ، وكلمة نسناس أصلها نص ناس ، أى نصف إنسان ، وهو صنف الحكام اللئام !

خلال النهار التالى زار معمل الفروج فوجده فى ركود . قالت زهرة :

– لولا قروش الشاطر لكنا فى أشد الضنك !

رأى ديكًا رقبته حمراء طويلة عارية من الريش فضحك :

– رقبته مثل رقبة الضابط الشركسى ، ليكن غدائى به !

على الفور ذبحوه . ومن يومها أطلق الفلاحون على هذا النوع اسم الديك الشركسى !

مر الأسبوع على حتحوت سريعا . وعلى الشاطر دهورا ، فلما أصبح يوم الجمعة توجه إلى المدينة متأنقا . بينما هو يقترب من مسجد الحسين ، سمع صراخ أحد الأشخاص ، والشرطة تتهمه بأنه هارب من ضرائب أطيان قديمة .

صاح شاكيا :

– كيف أملك طينا وأنا أعمل بالمدينة حدادا !

– أليس اسمك محمد المنوفى ؟ فأنت فلاح من المنوفية ، كنت تزرع أرضا لم تدفع عنها الميرى !

وأخذوه فى الأغلال . اكتأب الشاطر وتشاءم ، تحقق تشاؤمه عندما أخلفت حبيبته الموعد . انتظر فى الحديقة ، ثم خرج بعد العصر والصداع يعذبه ، يدفع المارة وباعة الطرابيش والمتسولين ، وينعى حظه ، هذا اليوم منحوس من أوله ، هذا ذنب زهرة وبهية !

لكنه بعد صلاة العشاء كان يلتهم دجاجة شهية ، أرسلتها زهرة مع حتحوت ، الذى طمأنه على أحوال الأسرة ، وأخبره بتجنيد عوض ابن الريس مرسى وضرورة معرفة مكانه . ولما روى له حكاية حليمة اللئيمة تذكر الفتيان الستة الهاربين ، وكان الشاطر قد التهم الدجاجة اللذيذة ، فاسترخى يقول إن الضابط عندما اكتشف فرارهم ، غضب وسب ولعن ، ثم حل المشكلة بأيسر الطرق . أخذ مجموعة من العسكر ، أغار بهم على قرية عين شمس القريبة ، خطف منها ستة فتيان ، أدخلهم المعسكر بأسماء الهاربين . من كان اسمه مسعود صار اسمه مصطفى على اسم أحدهم ، كلما احتج بأنه مسعود ضربوه حتى أقر أنه مصطفى ، وهكذا اعترف الآخرون بأسمائهم الجديدة !

* * *

لم تكن ثريا تنوى التخلف عن موعد حبيبها ، منعتها ظروف أقوى من كل حيلة . فجأة مساء الخميس وصل إبراهيم باشا وحراسه ، جاء يزور زوجة الجمالية . ساد الخوف والرعب . طارت الزوجة خوشيار من الفرحة ، راجعت الزينة والتجمل . ثم أسبلت تستمع به يدخل الغرفة ، يدنو منها . فتحت عينيها تتأمل بهاءة وأوسمته وبهرج نياشينه وجواهر مقبض السيف وجرابه . خلع الطربوش ، سوى شرابته الزرقاء وركنه . حمل حزام السيف ، واسترخى فوق الوسائد .

أحضرت له الشراب وما يلزم الشراب . تثنت وتغنت ، أظهرت الحسن الخافى والمستور . عندما لمعت عيناه بالشهوة أيقنت أن الليلة ليلتها ، وابتهلت أن تظفر منه بوليد ذكر يرفع من قدرها ويقيها نوبات الغضب والطرد وقطع الرزق . أسعدها وبقى معها إلى ما بعد اليوم التالى ، يوم الجمعة ، بهذا لم تتمكن ثريا من الخروج ، ولما حان موعد الشاطر استاءت وبكت ، ندبت حظها وشكت ، ثم نهضت إلى المرآة وفكرت . تخيلت حبيبها يخرج من الحديقة تعذبه الحيرة تأكله الغيرة ، والغيرة تشعل الغرام . تأملت مرتاحة أنوثتها الفياحة . ضحكت وقالت : تعذّب يا حبيبى فأنا أحبك !

بعد انصراف إبراهيم نامت خوشيار ، بنشوة الحب ورضاء الزوج . لكنها استيقظت منقبضة القلب وقد غربت الشمس . فهى بعد نشوة الحب نامت لصق زوجها ، كلما غفت صحت وقد شعرت به يتململ فى رقاده ، يتنهد مهموماً . تعرف سر قلقه . وهو حدث صغير تنبأ له عراف بأنه سوف يسبق والده إلى القبر ، وصدّق هو ذلك .. أخذته فى حضنها هامسة بأن العراف دجال ، راحت تربّت على شعر رأسه حتى استرخى ونام إلى ظهر اليوم التالى . عند العصر غادرها وأكملت نومها لتصحو منقبضة . تضرعت إلى الله أن تخيب النبوءة من أجل النطفة التى وضعها إبراهيم فى رحمها . ثم قررت أن تتبرع وتعطى . غادرت فراشها الدافئ ووهبت العطايا للجميع ، فخف انقباضها حتى زال وصارت مرحة ودودة .

فرحت ثريا برنين الجنيهات الخمسة . لكنها فكرت وقالت : هذا أوان التماس المطالب . نهضت إلى الأميرة فى خلوتها ، ركعت تقبل يدها معيدة الجنيهات . ضحكت خوشيار :

– ثريا يا طماعة ، تريدين قطعة مصاغ أو ثوبا زيادة !

– بل عطفك ورحمتك . وصيفتك المخلصة عليلة يا مولاتى !

– نحضر الطبيب حالا

– العلة فى عقلى

– مجنونة ! ... آه .. قصدك وقعت فى الحب ؟

فاندفعت باكية تقبل يدها . ابتسمت الأميرة ثم ضحكت . استرخت راغبة فى سماع حكاية حب . قالت آمرة :

– حدثينى بكل التفاصيل . اقتربى حتى أرى وجهك جيدا .

حكت ثريا جميع ما كان دون زيادة أو نقصان ، فلما انتهت سألتها :

– هل يملك ثمن عتقك ؟

– فقير . مصرى فلاح .

رفستها بقدمها :

– طبعا لم يلمسك ؟

– كفه لمست كفى

صرفتها غاضبة ، وأمرت بالنرجيلة . بينما هى تدخن رقّ قلبها ، مسكينة ثريا ، وهل الوقوع فى الحب بيد الإنسان ؟ هى نفسها غابت عن الدنيا وذابت فى حضن رجلها ومولاها ، بإذن الله ستحبل منه . تحسست بطنها تفكر . فى الصباح استدعتها وسألتها إن كانت نامت جيدا . تمسكنت ثريا :

– بت جالسة مرعوبة !

– خوفا من أن أبيعك ؟

– خوفا أن يتأذى الشاطر

– عاشقة والله يا مسكينة !

– هو إنسان طيب رغم فقره

– نرقيه فيعلو مقامه ، لكن بشرط أن تتزوجيه هذا الشهر . لن أجد أنظف وآمن منك على طفلى

– أى طفل يا مولاتى ؟

– ذلك الذى فى بطنى . بإذن الله أرزق بولد ، بعد تسعة أشهر إلا ليلة ، فإن تزوجت أنت سريعا فسوف تحبلين . عندما ألد أنا يكون اللبن فى ثديك وفيرا ، فترضعين طفلى وأنا مطمئنة . هذا أفضل من تأجير مرضعة غريبة . لا أريد أن أفسد نهدىّ بالترضيع .

– أعظم شرف لوصيفتك ، أن يكون طفل مولاتى أخا لطفلى فى الرضاعة .

– أولا يجب أن أراه ، ودون أن يشعر .

من ذلك اليوم وقع الشاطر فى حيل النساء . أخبرته ثريا بنصف ما كان ، وطلبت أن ينتظرها المرة القادمة فى حديقة قصر الباشا بقرية شبرا ، أمام الفيل الأبيض !

بعد أسبوع كان فوق حماره الأجرة ، فى طريق شبرا الممهد بالحجارة ، وأشجار الجميز على الجانبين تشابكت أفرعها فى مظلة ممتدة ، ومساحات شاسعة من القصب تنتهى عند المبيضة ، مصنع تبييض القطن . والقصر يواجه إمبابه ، حيث هزم الفرنسيس مماليك مراد بك ، وقاوم الألفى بعض الوقت .

لم يمنعه حراس الحديقة من الدخول ، فالباشا يسمح بذلك . وقف أمام الفيل الأبيض ، هدية الإنجليز لأفندينا من مستعمرة الهند ، بين عشرات النساء والأطفال والخادمات . تجول يبحث عن ثريا بين أشجار الليمون والبرتقال والموز . أعجبته النافورات ، وعربة فاخرة ذات ستة خيول واقفة أمام قصر الحرم المهمل . منعه

الحراس من التقدم ، فعاد إلى الفيل الأبيض ، اندمج يتفرج على حركاته ، إلى أن سمع صوتا يعرفه يسأل حارس الفيل :

– لماذا هو وحيد مسكين دون زوجة !

التفت إلى ثريا راغبا فى حضنها . همست فرحة :

– أنت نلت الرضاء . الجمعة القادمة أشرح لك !

ثم اختفت .. وبعد ربع ساعة رأى العربة الفاخرة تنصرف بستائرها المسدلة . لمح كفًا بيضاء تزيح الستارة قليلا ، وتلألأت خواتم الأصابع ، فاحتقن وجهه ، أتكون كف الأميرة ؟

استأجر جملا حمله عبر الغيطان إلى أبى زعبل ، وهو مأخوذ بالعربة والقصر . سمع أن محمد على يأتى أحيانا فى الصيف ، يجلس يدخن الشيشة ويتأمل جواريه السابحات فى الحوض الكبير . تخيل نفسه والجمل يخب به ، أنه فى قصر مثل هذا مع ثريا . ولكن هل يفعل إبراهيم باشا مع جواريه مثل أبيه ؟ من حسن الحظ أنه دائم الانشغال فى تجهيز الجيوش . ليس هذا أوان الحرب وإنما أوان الحب ، وقالت ثريا إنه نال الرضاء !

(٤) يا بنت عمى اسكتى

فى بطء شديد تقدم موكب الزفاف بالمشاعل ، يسبقه سقّاء يروى ظمأ كل عطشان ، وغلام ينثر ماء الورد من قنينة ، وآخر يحمل مبخرة لدرء الحسد ، ثلاثة ينفخون فى المزامير وأربعة يدقون طبول متعددة الأحجام ، ورجل عجيب فوق ساقين طويلين من حديد ينثر ماء الورد على المشربيات ، فتعلو الزغاريد من خلفها . وعدد غفير من الرجال يحملون الرايات الملونة ، والأطفال يلوحون بسعف النخيل والزهور ، ثم العوالم حاسرات متبرجات بأثواب حريرية ، وقد لمعت الفلوس المذهبة حول طرابيشهن القصيرة وضفائرهن الطويلة ، منطلقات فى الغناء والرقص وهز الخصور ، على دق الدفوف والصاجات ، ثم عدد من العبيد يحملون الأثاث من صناديق وسلال ومرايا ومقاعد وحشايا ووسائد ، ومن خلفهم المدعوات المتزوجات تحت الحبرات السوداء والعذارى تحت الحبرات البيضاء ، ثم جاءت العروس وسط هالة من أضواء المشاعل والشمعدانات والمصابيح ، وقد اختفت تماما تحت غطاء أحمر اللون وفوق رأسها تاج هرمى مرصع ، وعلى جانبيها امرأتان تسندانها فى أثناء السير ، وثالثة تروّح لها بمروحة من ريش النعام كى لا تختنق تحت خمارها الكثيف . وثيابهن تصل إلى الأرض فظهرن كما لو كن ينزلقن فى بطء شديد . وكما بدأت الزفة انتهت بفرقة زمامير وطبول ومغنيات راقصات .

كانت الأميرة خوشيار خلف مشربية شرفتها ، تتفرج على الزفة بشغف كبير ، **رأت أن تحيى العروس بالنقوط ، التفتت تسأل ثريا الواقفة إلى جوارها ، فوجدت الدموع تبلل وجنتيها . سألتها إن كانت دموع الفرح فأجهشت :**

- لن يكون لى مثل هذه الزفة ، لأنى لست عذراء ، ولأنى بلا أهل ، لا أم ولا أب ولا صديقة تروّح لى بالمروحة ولا صديقات يزغردن !

– ثريا يا حبيبتى ، أنا أهلك ، وسأزغرد لك يوم زفافك ..

فكرت برهة ثم تراجعت :

– لكنى لا أعرف كيف أزغرد !

ضحكت ثريا ومسحت دموعها . وبعد خمسة أسابيع تأكدت خوشيار من حملها ، فأحست أنها تحب جميع المحبين ، وأرسلت من اشترى دارا قريبة ، أتمت فرشها فى ثلاثة أيام ، وأهدتها لثريا . فتزوجت الشاطر فى هدوء دون زفة . وقام عمر التونسى بعقد القرآن . وحضر الزفاف وصيفات وخدم الأميرة ، وانطلقت بعض الزغاريد فى غير إتقان . وتلقت العروس كيسا هدية من الأميرة ، وكيسا أخرى كنقوط من جميع حشم وخدم سموها .

أخيراً وحدهما فى ليلة شتوية وغرفة دافئة . انتظرت ثريا أن يضمها زوجها . وجدته خجولا لا يتحرك فخلعت البرقع ثم الحبرة الفضفاضة ، رأى وجهها كاملا لأول مرة ، يتدلى من أذنيها الصغيرين قرطان من الماس ، وعنقها طويل مرمرى ، وخصلتان من شعرها الوردى على صدغيها . غير أن ملامح جسدها بقيت خافية تحت جبة واسعة مطرزة بقصب مفضض ، خلعتها بنفسها فإذا تحتها سترة طويلة بكمين طويلين وأكثر التصاقا بالجسم والذراعين ، لها أزرار من الصدر إلى ما تحت الحزام ، وشقّان جانبان من أعلى الوركين إلى أسفل ، وفتحة تكشف عن نصف الصدر لولا السروال الذى تحتها والذى ينسدل طويلا حتى الأرض ، فبدت طويلة نحيلة بعد أن كانت بدينة قصيرة ، راقته هكذا وتشجع يتقدم خطوة ، ابتسمت تشجعه ، فدنا منها وشم عطرها ومد يدين مرتعشتين يرفع عنها طرحة بيضاء من الحرير الموصلى ، عندئذ بان غطاء رأسها المعقد ، طربوش قصير دون شرابة ، تحته ما يشبه الطاقية ، ملفوف حوله منديل من الموصلى المطبوع ، ثبتت فيه سلسلة ذهبية على شكل عقد بها علاقات من فصوص وردية . عندما أفلح فى رفع ذلك جميعه انسدل شعرها ناعما فى لون الورد ، فتنهد مرتاحا !

كان جمر الفحم بالوعاء الفخار يدفئ جو الغرفة . ورفعت كفيها تضم وجهه ، تدفقت نظرات الحب ، واقتربت الشفاه وتلامست ، ثم حضن كل منهما الآخر فى عنف واشتياق من حرمان دام شهورا . ملأت زغاريد النشوة أسماعها ، وتذكرت أن بالغرفة سريرا له مرتبة مفروشة بملاءة من الساتان الأخضر اللامع ، فدفعته خفيفا نحوه ، واستلقيا فى حب مشبوب ، وخلع سترته ورماها على الأرض بما عليها من شريط جديد ناله منذ يومين جعله فى رتبة الصول ، احتار فى فك سترتها الصغيرة كثيرة الأزرار ، فنفذ صبره :

– هذه الملابس تحتاج إلى ساعة فى فكها ، فكم تحتاج لارتدائها !

ضحكت واستلقى على ظهره يضحك ، غمرتهما السعادة بلا حدود . فنهضت وأحضرت علبة البخور من فوق رف بالحائط ، ألقت بعضه إلى النار ، فتصاعد الدخان المعطر يملأ الحجرة . ثم اتجهت إلى صينية كبيرة فوق منضدة الركن ورفعت غطاءها عن طعام من اللحم والطيور والمشهيات والحلوى وخلافه . اندفع يعيد الغطاء بصوت متهدج :

– ليس الآن وقت الطعام

أسرعت تفك أزرارها بحنكة ، تاركة له اثنين أفلح فى فكهما . خلعت السروال فبان قميص حرير وردى قصير حتى الركبتين ، عندئذ عرف يقينا رشاقة قدها المياس ، ولام فى سره صاحبه حتحوت ، أراد أن يحرمه من هذا النعيم العطر ليبقى يشم رائحة دخان الجلّة والكتاكيت فى ثياب زهرة !

دقائق وكانا معا على الفراش ، أسبلت حالمة ، لأول مرة تكون فى حضن رجل تحبه ومن اختيارها ، سبقه كثيرون رزلاء ثقلاء ، واحد فقط كان زلفا وسيما ملأ أذنيها بهمسات الغزل ، وصدقته وأحبته وانتظرت أن يطلبها ثانية ، فلما لم يفعل أدركت أن لطفه كان من فعل الخمر . وفهمت أن الجارية جارية وأن السيد سيد . ضمت عريسها تتقوى به على ذكريات الماضى ، ذابت فيه وذاب فيها . بعد أن انفصلا شعرت أنها علّقت منه ، أو رغبت أن يحدث ذلك .

فى الصباح استيقظا على ضجة كبرى أسفل الدار ، استاء الشاطر وقد ظن أنه يسمع مارشات عسكرية وأنه بخيمة المبيت بالمعسكر . اندفعا ينظران من خلف المشربية ، كانت بالفعل فرقة موسيقى نحاسية ، أصطف أفرادها بزيهم الميرى وانهمكوا يعزفون المارشات لأنهم لم يتعلموا غيرها . ومع ذلك قالت ثريا فى زهو :

– أرسلتهم مولاتى الأميرة تحية الصباحية

– بالمارشات العسكرية ؟!

– معى سوف ترى العجب .

تأمل حسنها وزهوها :

– ذقت بعضه وحان وقت المزيد .

لكنه تراجع محبطا ، كيف يندمج فى الحب مع موسيقى مارشات الحرب ؟!.

أنقذه وصول صينية الصباحية من دار المسافرخانة ، وتحت مفرشها أصناف اللحوم والدواجن المحمرة والمشهيات وأبريق مملوء بشراب الورد . صباح اليوم التالى عرف أن خوشيار سمحت لوصيفتها بليلتين فقط . وتسلم مفتاح الدار ، كان قطعة واحدة من الخشب دق فى طرفه خمسة مسامير ، إذا أولجه فى ثقب الباب تقابلت رءوس المسامير بثقوب بالداخل فتدور وترفع السقاطة الخشبية ، وأى مفتاح بمسامير أخرى لا يمكن أن يفتح الباب . ولأنه كبير الحجم علقه حول رقبته بخيط تحت قميصه . أبواب القرية بلا أقفال ، ولا يوجد من يسرق ، ولا يوجد ما يغرى على السرقة !

قبل أن يعود إلى المعسكر عرف أن زواجهما لن يكون إلاّ يومًا كل أسبوع ، لأنه لن يلقاها إلاّ يوم الجمعة ، وباقى الأيام هو صول الجهادية وهى وصيفة الأميرة . عاد إلى جفاف العمل وخصام حتحوت ورتابة الماضى ، ستة أيام بطيئة متثاقلة ، وليلة هنية سريعة الرواح. لكن شيئا أفضل من لاشىء . بعد خمسة أسابيع تأكد من حمل زوجته .

مرت شهور حمل الأميرة وولدت ذكرا لإبراهيم باشا ، فرح به وصارت الأثيرة لديه . وسمّاه إسماعيل على اسم أخيه الذى مات محروقا فى فتح السودان . أرضعته

ثريا أكثر من شهر وكان نهما ، حتى ولدت ذكرا هى الأخرى ، لم يره أبوه إلا بعد شهر ، وكانت قد سمّته ثروت على اسم النخاس البدين الذى كان سببا فى تلاقيهما ، فوافق على مضض !

صارت ترضع طفلها وإسماعيل ، أرضعت إسماعيل كذلك امرأة جزائرية أم لطفل اسمه إسماعيل صدّيق .

جنّ الشاطر حبا بطفله الذى جاءه على كبر ، وكان يتمنى ولدا من صلبه . ولهذا انقطع شهورا عديدة عن زيارة زهرة وبهية ، فزاد جفاء حتحوت نحوه ، وسئم من كثرة الكذب على زهرة الوفية ، فأخبرها فى آخر زيارة قبل انصرافه مباشرة ، ثم تركها كالطائر الذبيح وقد عزّت دموعها ، فلما استردت جأشها قالت فى غل : النذل قليل الأصل . لكنها منعت أى فرد من أن يذكره بكلمة سوء !

* * *

جميع ذلك يحدث وإبراهيم باشا وسليمان بك الفرنساوى يديمان الزيارة لمعسكر جهاد أباد ولمدرسة الفرسان بالجيزة والمدفعية بطرة والترسانة بالإسكندرية ، ودائما الإلحاح على المران وتكرار المناورات ، بحيث إن كل رجال الجهادية توقعوا الحرب ، لكن أحدا لم يعرف مكانها . وتجددت هواجس الشاطر وعمر التونسى وحتحوت من أن أفندينا ينوى إكمال فتح السودان جنوبه وغربه . والويل لصاحبهم إدريس وعشيرته من قبائل الدنكا الطيبين !

لكن كل ذلك توقف ، وانعدم لقاء الشاطر الأسبوعى مع زوجته ، وقد تآمر الزمان وقست الأقدار بمجىء وباء الكوليرا ، يهدم اللذات ويفرق الجماعات ، ويقصف الأرواح ، بدأ يحصد العشرات ثم المئات . فألغوا أجازات العساكر ، وتشددوا فى فحص الطعام والشراب ، وأمر كلوت بك بغلى ماء الشرب وعصر الليمون على كل مأكول ومشروب ، والاستحمام بالصابون قبل النوم وعند الاستيقاظ ، والقضاء على الذباب والناموس . أعدموا كلاب الخلاء رميا بالرصاص . وفعلوا مثل ذلك وأكثر فى قصر المسافرخانة . لم ير المحب زوجته وطفله لأكثر من شهرين ، انتقل الوباء خلالهما إلى المدن والقرى المتناثرة . وذهب ضيفا مكروها إلى الصعيد !

ما إن تمت محاصرة الوباء فى المدن الرئيسية حتى سمحوا بالأجازات . فذهب الشاطر إلى حضن ثريا ، وركب حتحوت إلى المنيا ، وتوجه ليلا إلى مركب أخيه مرسى ، فوجده هزيلا محطما وقد غارت عيناه بالهم والخوف . زال الوباء عن المدينة واتجه يحصد قريتهم تلة ، منذ أسبوعين كان عائداً إليها قبل الغروب فوجد العسكر يحاصرونها من كل صوب ، يمنعون الخروج والدخول ، وقد رفعوا أمامها راية الوباء الصفراء، من حاول الفكاك قتلوه بالرصاص دون إنذار ، فصار لا يعرف من مات ومن قاوم من الأسرة والقرية !

مع ذلك توجه به حتحوت إلى القرية المحاصرة ، ظن أن زيّه وشرائطه تشفع له . استسمح الضابط فى الاطمئنان على أهله ، فزجره وأمره بالابتعاد . احتج قائلا :

– لكن زوجتى وزوجة أخى هذا والأنجال والأحفاد هناك لا ندرى عنهم شيئا !

كاد أن يقبض عليه لولا أن سحبه الريس مرسى مبتعدا ، عائدا به إلى المركب . فى هدأة الليل روى له :

– منذ أسبوعين غضبت مثلك ، وكنت عائدا من غيبة أسبوع . وجودنا هناك لن يفيد . الوباء لعين ، يقتل المصاب فى خمسة أيام ، إن قاوم إلى السادس شفى . لا علاج له ولا أمل إلا فى انحساره بأمر الله . منذ شهر فقدت اثنين من نوتيتى ، ماتا فى فراشهما ولو ماتا هنا لأحرقوا المركب . ثم فقدت الثالث ، ذهل عقله بموت عياله . وليس بمقدورى أن أسيّر هذه المركب وحدى ، والرزق شحيح .. يا ألطاف الله !..

كدت أنسى ! هل عثرت على ولدى عوض ؟

لم يشأ أن يضاعف من غمه فطمأنه عليه مع أنه لا يعرف مصيره !

لكن كارثة الوباء أعادت الصفاء بينه وبين الشاطر ، الذى شعر بالذنب لانقطاعه عن زيارة زهرة وبهية .

رغم احتياطات الطبيب كلوت بك ومعاونيه الفرنجة والمصريين مات حوالى مائتا ألف من مجموع سكان مصر المليونين ونصف المليون ، ومن العساكر خمسة آلاف ،

فتأجلت حملة محمد على المجهولة المقصد . ولم يخفف عن إبراهيم باشا إلا رؤيته لطفله إسماعيل ، الذى أمرت أمه خوشيار بألاّ يقربه إلا وصيفتها ثريا مرضعته ، والأخرى أم « إسماعيل صدّيق » التى تشارك فى إرضاعه . وهدّد إبراهيم بقتل من يلمسه غيرهما . فمنذ اثنتى عشرة سنة مات له طفل بقصر الجيزة ، كان نائما فى حجر دادته السوداء ، عندما تشاجرت معها جارية بيضاء ورفستها برجلها رفسة بغلة أصابت الولد . وصله الخبر فجن جنونه وقبض على الدادة السوداء والجارية البيضاء وثلاث أخريات كن بالحجرة وحبسهن ، فلما مات الولد بالليل خنقهن جميعا وألقاهن إلى النيل . وهو لا يريد أن يتكرر ذلك مع طفله إسماعيل ، رغم أن قدمه قدم نحس !

مال يداعبه :

- نحمد الله أنك لن تحكم مصر ، وإلاّ كانت أيامك فناء يا عفريت !

استثقلت ثريا مداعبته لأن ابنها ثروت من عمره تقريبا ، وانزوت الأميرة الأم باكية ، حتى صالحها بعقد تثقله فصوص الماس .

أما قرية تلة ، فبعد التيقن من زوال الوباء ، نادوا على الناجين أن يخرجوا ولهم الأمان . فظهر من بين الأكواخ مجموعة هزيلة منهارة مرعوبة ، نجا واحد من كل عشرة . أمروهم بالتوجه إلى خيام قريبة أعدت لهم ، ثم أرسلوا لهم غذاء وماء وأشربة مقويّة . وضع الحمالون ذلك كله أمام الخيام وابتعدوا فى خوف ، بينما تقدم الضابط بجواده صائحا :

- أمامكم الأكل والشرب . ستبقون فى هذه الخيام أسبوعا ثم تعودون إلى بيوتكم .

فلما استدار رأى امرأة هزيلة تخرج من القرية الساكتة، مزرقة الوجه زائغة النظر تحمل بصعوبة طفلة ضئيلة ، وقد أمسك بذيل جلبابها طفل حديث المشى ، يتبعها صبى يحاول التجلد ويمسك بطفل وطفلة شديدى التشابه .

تابعوا سيرهم المهتز إلى إحدى الخيام وانهاروا جالسين . وإذا كلب يخرج من القرية يقصدهم ، قبل أن يقطع نصف المسافة خرّ صريعا بعدة طلقات . بعده خرج

النمس الذى يربيه إدريس فسقط قرب الكلب . صرخ الأطفال الثلاثة ، وفى أثرهم بكى الصبى . لكن المرأة تحاملت بهم صوب الطعام ، والصبى يجاهد فى مساعدتها بجلد الرجال .

كانت المرأة الهزيلة هى زهرة الشريفة ، والطفلة التى كانت تحملها هى بهية ابنتها من الشاطر . أما الصبى ابن العاشرة فهو إدريس الهمام بن حتحوت ، والأطفال الثلاثة من الأحفاد ، طه والتوأم بدر وبدور . وهؤلاء والستة هم جميع من نجوا من بنى حتحوت . ظلوا مع بقية الناجين تحت الخيام خمسة أيام ، والطعام والماء يوضع لهم كل صباح ، حتى استردوا بعض عافيتهم ، وصار الأطفال يجرون ويمرحون ، والكبار يتأملونهم من وراء الدموع ، وقد لاحظوا أن أحدا لم يدخل القرية لدفن الموتى ، كلما خرج كلب أو قط أو دابة انهال الرصاص من كل صوب . وظلت زهرة تتلفت صوب الشرق على أمل أن ترى أباها الريس مرسى قادما . لكن العسكر لم يسمحوا لأى إنسان بالاقتراب ، وحمدت ربها أنه لم يكن بالقرية وقت بدء الحصار .

أصبح اليوم السادس وهم سالمون ، وجدوا طعاما من اللحم والحساء والأشربة الطبية . قرب الغروب اقترب منهم الضابط وهنأهم بالسلامة من الموت الغدار ، وبأنهم من الغد أحرار . فسهروا يتشاورون فى أمر موتاهم وكيف يدفنونهم ، حتى غلبهم البكاء وعجز الحيلة فاستسلموا للنوم . من استيقظ منهم مبكرا رأى الحراس قد أحاطوا القرية بأكوام الحطب والتبن حصار الخاتم بالإصبع ، ثم أضرموا فيها النيران بالمشاعل ، وتراجعوا شاهرين البنادق . فى أقل من دقيقة خرج الناجون يشاهدون النيران تلتهم قريتهم ، انعكست فى عيونهم الباكية لهب الحريق ، وتعالى صراخ الأطفال ، والعساكر الفرسان دائمو الطواف فى دائرة واسعة حول النار !

بعد ساعات هدأت النيران ثم خمدت ، وبقيت نيران خافتة بين الهشيم ، ثم دخان ظل يتصاعد حتى الصباح . فتقدم الحمالون بالطعام دون خوف ، وبينما الكبار يطعمون الصغار تجمعت فرقة الحصار فى صفوف متثائبة ، ومضوا منصرفين

صوب مدينة المنيا . فكّ الحصار ولن يأتوا لهم بالطعام ، وإن ظلت الخيام مكانها ، فتهالكوا يجمعون بقايا الأكل ، لا يدرون ماذا سيفعلون بالغد والأيام التالية ، ومن مات استراح !

ذاع خبر رفع الحصار ، فأسرع الريس مرسى إلى القرية ، وجدها أكواما سوداء وروائح الدخان مازالت عالقة بالهواء . ورأى أشباحا تتقدم منه ، ابنته زهرة وطفلتها بهية ، الصبى إدريس بن أخيه حتحوت ، والأحفاد طه وبدر وبدور ، ستة أفراد وهو وشقيقه ، انحسرت عشيرة بنى حتحوت فيهم ، ثمانية فقط أو تسعة إذا حسب الشاطر المرتمى فى حضن الشركسية ، لم يترك الوباء مليحة أو قبيحة !

كان حتحوت منذ عودته يلح على تسريحه من الجهادية دون استجابة ، توسط له عمر التونسى وعاد يفسّر خيبة مسعاه بعزم محمد على فتح سلطنة دارفور غربى السودان ، قال بصوت خفيض :

– أرسل أفندينا إلى سلطانها محمد فضل يطلب منه الدخول فى طاعته ودفع الجزية ، فرد بخطاب عنيف يقول فيه متحديا : إنكم طالبون دولتنا وطاعتنا لكم ، هل بلغكم أننا كفار وجب لكم قتالنا وأبيح ضرب الجزية علينا . لا يغرنكم انتصاركم على ملوك سنار والشايقية ، فنحن السلاطين وهم الرعية !

فداس حتحوت على كبريائه وطلب من الشاطر أن يجعل زوجته الشركسية تستعطف أميرتها كى تطلب من زوجها إعفاءه ، لأنه لا يوجد فى بر مصر والسودان والحجاز وجزيرة كريت من يرد كلمة لإبراهيم باشا .. تم الإعفاء أخيرا وجلس حتحوت مع صندوق ملابسه بالباخرة النيلية عائدا إلى قريته نهائيا . يرافقه الشاطر لمدة أسبوع . ظلا فى صمت ينظران إلى الماء أو الشاطئين أو طيور السماء . الشاطر بزى الصول وحتحوت بجلبابه الريفى القديم . فى أول الليل خرجا من باب المدينة إلى الخلاء حيث نقيق الضفادع ، سمح لهما الحارس بالعبور احتراما لشرائط الشاطر . وعرفا طريقهما فى الظلام إلى الخيام وعوى ذئب بعيد عند حافة الصحراء ، انهار حتحوت يجهش بالبكاء ، والشاطر يحدق وبهية فى حضنه ، وزهرة ترمقه وقد بدت فى ضعف عمرها . أما الريس مرسى فكان هيكل إنسان . ومن حولهم الأحفاد الأيتام طه وبدر

وبدور ، وعن قربهم تناثر الناجون وقد نقصوا بذهاب بعضهم إلى المنيا للتسول والبحث عن عمل ، منهم من باع ابنته الصبية مقابل قرشين وعدة أرغفة ، ومنهم من التاث عقله واندفع إلى النيل فالتهمه تمساح ثم استلقى على الشاطئ يتشمس وقطرات المياه حول عينيه تلمع وكأنها دموع !

توجه حتحوت والشاطر فى الصباح إلى المدينة ، ابتاعا كميات من الخبز والقمح والجبن والخضار وقفصًا به تسع دجاجات وديكا ، وبعض أوانى الطهى ، ثم عادوا بذلك جميعه . أعطوا الزائد إلى الأسر الأخرى على أن يردوا ثمنه حين ميسرة . فمن عطف الله على الناس أن الكوليرا لا تقتل الزرع ، والمحصول من حولهم وفير وعددهم صغير !

ثم شرعا فى بناء دار جديدة ، يساعدهما مرسى وإدريس ، عجنوا الطين بالتبن لبناء الحوائط ، صنعوا السقف من جريد النخيل ، ثم أفردوا مكانا للزريبة إن رزقهم الله ببهيمة .. وزهرة تعد لهم الطعام ولزوجها الشاطر ، رجلها الخائن . فعل مثلهم الآخرون ، حتى صارت ساحة الخيام موقعا لقريتهم الجديدة .

فى أول يوم يجلسون فيه داخل الدار الجديدة حكت زهرة ما عانته وهى تحت الحصار . فى البداية تقيأ واحد ، بعد ساعة كان أكثر من عشرين يتقيأون ويشكون المغص ، ثم ميسورة زوجة حتحوت ، كلما شرب أحدهم بعض الماء استرد ما فى جوفه . فى البداية عنوا بدفن الموتى بعد الترحم عليهم ، زاد العدد وصار من يموت يظل مكانه ، تأتى الكلاب ، والقطط تتشممه ثم تركض عاطسة !

أغمضت عينيها ألمًا ، تعالى صراخ الأطفال . نزلت دموع إدريس لكنه تماسك . ثم اندفعت زهرة تحكى وكأنها فى هلوسة الحمى ، تحكى أو تهرف :

– شاهدت الهزال ، تدلى الألسن ، إسهال وقىء ، براز سائل مثل ماء الأرز المسلوق . شعور بالظمأ ، من شرب تقيأ . تجمد الأعضاء ، تحول البشرة إلى لون الشمع المنصهر ، تحجرت حدقات العيون وانطفأ لمعانها . جفاف الشفاة وضمورها .

مغص لا يطاق . ثقل الرأس . تشنجات وطنين . قئ بالمخاط . إزرقاق الشفاة وعرق بارد . بعد هذا العذاب تكون الراحة بالموت ، أو بالشفاء وهذا ما ندر !

صرخ الأطفال رعبا . على حين بغتة التفتت زهرة كالنمرة الجريحة إلى زوجها :

– وأنت أيها الأفندى الكلب نائم فى حضن الشركسية ، كأن ليس لك زوجة أو طفلة ، حتى الزيارة قطعتها ، حتى المال أنقصته . أهذا جزاء أسرتنا ؟! كنت محروما من الأهل فأعطيناك أسرة ، فإذا أنت تغدر فى أول فرصة والوباء يحصد فينا !

تهدج صوت الريس مرسى :

– يا زهرة الوباء قضاء من عند الله ، خلقنا للممات ولو تركنا جميعا أحياء لضاقت بنا البرية !

– لا أتكلم عن موت الأبدان يا أبى ، بل عن موت النفوس ، الوفاء مليح والغدر قبيح .

التفتت تسأل حتحوت :

– ما شكلها ؟ أهى جميلة ؟

– لم أر سوى عينيها .

صرخت فى الشاطر :

– أهى أجمل منى ؟

– هى الآن زوجتى أم طفلى ، وأنت زوجتى أم طفلتى . وأنا أحبكما معا !

صاح فيها إدريس صيحة رجل :

– يا بنت عمى اسكتى ، قطعت قلبى !

رمقته فى حب :

- أمرك يا حبيبى ، يا رجل فى زمن النعاج !

ثم إنها ظلت ساكتة ، تخدمهم فى صمت ، تطعمهم عابسة ، والشاطر يتعذب ، حتى انتهت أجازته . قبل الرحيل اعتذر لها :

- يا زهرة أنت الحب الأول ، إن كان يرضيك أن أطلقها فسوف أفعل !

أعطته نظرة ازدراء . نكّس رأسه :

- سأزوركم دائما

عندما ودعه حتحوت أحس أنه لم يعد صاحبه . مرت الشهور ولم ينفذ الشاطر وعده . كان كلما تذكر زهرة وبهية اغرورقت عيناه وقرر زيارتهما ، ثم ينسى قراره فى عطر ثريا ومداعبة ابنه ثروت !

* * *

بعد أن ارتاحت البلاد من الوباء والكساد ، بعث إبراهيم باشا المجندين بمعسكر جهاد أباد إلى مكان لم يعرفه الشاطر . بعد أسبوع جلبوا آلافا غيرهم ، رأى فى هيئاتهم ما رآه فى السابقين ، هزال الفقر ورغبة الفرار وحنين الأهل . كثرت ثرثرات العسكر والضباط . صار التونسى كلما التقى بالشاطر تحدث معه عن الحملة القادمة . رجحّ أنها سوف تجتاز صحراء سيناء إلى بر الشام ، لأن محمد على كان قد أرسل إلى والى عكا يطلب منه إعادة الفلاحين الهاربين عنده ، رفض بحجة أن المصريين رعايا عثمانيون لهم حق الإقامة فى أى بقعة من بلاد السلطان . غضب أفندينا ، وصار ابنه يردد فى كل مكان أنه مصرى وليس تركيا :

كان الشاطر مع زوجته ثريا على فراش الزوجية عندما لاحظ أن شاغلاً يشغل بالها . بعد مراوغة باحت بمكنونها .

- منذ أيام زار إبراهيم باشا مولاتى خوشيار . اختلى بها ساعة . عندما أراد الانصراف كانت تبكى . احتضن طفله إسماعيل . رآنى فداعب ابننا ثروت وأمر زوجته أن تمنحه بعض الهدايا . فلماذا كان بكاؤها ؟!

– قد يكون أغضبها !

– إبراهيم باشا يخيفكم أنتم وضباطكم ، لكنه لطيف مع زوجته أم إسماعيل .. على قدر ما سمعت ، كان غاضبا لأن أفندينا أصر على أن يصطحب معه عباس حلمى ، وصفه بالقسوة يترك الجميلات ليلوط بالغلمان ، وأنه سيثير له المتاعب بين الضباط والأهالى هناك !

– ماذا قصد بهناك ؟

– سألتها بحذر فتنهدت وقالت : ادعى معى يا ثريا أن يعود إلينا بالسلامة . وجعلتنى أختار من ثياب إسماعيل ما شئت لطفلنا ثروت ، والمقاس واحد كما تعرف . ثم أمرتنى أن أحافظ عليك ولا أغضبك .

(٥) أعاصير أمشير

يوم التوجه إلى الحروب وقف الشاطر منتصبًا يشاهد جيشا ضخما يقرب من ثلاثين ألف مقاتل ، مشاة وفرسان وأربعين مدفعا بعجلات ، غيرمدافع الحصار ، وذخائر ومؤن على البغال والخيول والإبل ، يتحرك على قرع الطبول ، قاصدا فلسطين . وقد اصطف فى شرف الودا ع، المجندون الجدد وضباطهم وأطباء مستشفى مدرسة طب أبى زعبل الفرنسيون ، عن قربهم عمر التونسى ، وإلى جواره مترجم قصير القامة ، أسمر اللون واسع العينين ، بلحية لطيفة وشارب محفوف ، ناداه التونسى باسم رفاعة .

بينما الجنود تمر أمامهم وسط الكبكبة والغبار وصهيل الخيول وقرقعة العجلات ، لمح الشاطر بينهم عوض بن الريس مرسى ، نادى عليه مرارًا دون جدوى ، فقال يعزى نفسه : على الأقل أعرف مكانه الآن ، أرجعه الله بالسلامة ، يسافر المسكين ولا يعرف أن أمه مبروكة العفيفة ماتت بالوباء !

ابتعد الجيش ماضيا إلى مصيره ، لتتوالى أخباره تباعا وصل العريش ، دخل ولاية عبد الله باشا ، احتل غزة . أسطول إبراهيم باشا وصل يافا ، معه أخوه عباس حلمى ورئيس أركانه سليمان الفرنساوى . أنزل ما يحمل من ذخائر ومدافع إلى حيفا ، جعلها مركزا لقيادة جيشى البر والبحر .. وكلما وصل خبر أطلقت مدفعية القلعة ابتهاجًا ، وذهب رجال محمد على يأخذون حلاوة البشارة من الأعيان ، وطاف المنادون يأمرون الناس بإقامة الزينات وينبهون على ضباط وعساكر معسكر الشاطر بالابتهاج !

ثم توقفت الأخبار ثلاثة أشهر عند خبر واحد : إبراهيم باشا يحاصر عكا المنيعة ، يطلق على أسوارها النيران من البر والبحر ، حصونها تقاوم وتصيب مراكبه . ظن الجميع أنه سيخفق فى قهرها مثلما أخفق بونابرته منذ أكثر من ثلاثين عاما .

تركها تحت الحصار ليحتل صيدا وصور وبيروت وطرابلس والقدس . دفع السلطان محمود ضده بجيش جرار ، دحره إبراهيم وطارده حتى مدينة حلب بسوريا ، ثم عاد يشدد الهجوم على عكا ، عاونه الدروز والعرب والموارنة ، فاستسلمت بعد حصار ستة أشهر ، وأرسل إبراهيم والى عكا إلى الإسكندرية أسيرا .. واستشهد فى هذه الحرب عوض بن الريّس مرسى (1) .

بمجرد وصول النبأ أعلنته مدافع القلعة ، فتتابعت الوفود تهنئ محمد على ، وكان جالسا بقصر الجوهرة ، بقاعة العرش التى تتلى فيها فرمانات السلطان ، والسقف من فوقه بيضاوى الشكل ، له نقوش مذهبة تمثل أسلحة الحرب وآلات الطرب . هدم ديوان الغورى الكبير وإيوان قايتباى ليبنى هذا القصر على الطراز التركى بالخشب فوق عقود حجرية .

استقبل أولا ممثلى الدول ، لاطفهم وشكرهم ثم قال :

– أنا لست متمردا على السلطان . أردت تأديب والى عكا الأسير عندى الآن . كان لديه آلاف الفلاحين المصريين الهاربين ، بينما عشرات القرى هنا لا تجد من يزرعها . الآن يجمعهم ولدى إبراهيم من أرجاء فلسطين والشام ليعيدهم .. وقد أمرت له بنيشان مكتوب عليه اسمى بفصوص البرلنت تذكارا وتهنئة على همته .

نهض يودعهم فى حبور ، مستبقيا مساعد قنصل فرنسا الشاب فرديناند ديلسبس . اصطحبه إلى قاعة البلياردو ، وفى أثناء اللعب قال له :

– منذ ثلاثين عاما كان والدك قنصلاً هنا وكنت أنا ضابطًا صغيرا فى الجيش العثمانى ، وحدث أن دعانى إلى مأدبة ليلية . صباح اليوم التالى اكتشفوا سرقة بعض الشوك والملاعق الفضية ، واتجهت الشبهات نحوى على أساس أن ملابسى التركية الفضفاضة تصلح لإخفاء المسروقات . كاد أن يلصق بى العار لولا أن اكتشف والدك

(1) فتح عكا ٢٧ مايو ١٨٣٢ وكان شهداء المصريين حوالى خمسة آلاف ، ومن رجال الحامية مائة وأربعين !

الكونت ماثيو السارق الحقيقي وتكرم بزيارتي معتذرا ، وكان هذا لطفا منه ، لكن إحدى صحف أوروبا البذيئة أشاعت أنه زارني ليعقد صفقة معي ، وهي أن تساعدني فرنسا في اعتلاء حكم مصر تابعا لها . محمد علي لا يكون إلاّ تابعًا لنفسه فقط !

سكت يتأمل الشاب فرديناند وهو يلعب دون انفعال . أبوه أيضا كان غامضا ، قضى معظم سنوات عمله في البلدان العربية ، جلت الحملة الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١ وبقي هو بمثابة ممثل لفرنسا ، وآزر محمد علي في أعوامه الصعبة التي انتهت باستيلائه على حكم مصر !

ضحك قائلا :

– يا فرديناند أنت من مواليد ١٨٠٥ العام الذي توليت فيه أنا حكم مصر . أعرف أن ولدي سعيد يزورك . أريدك أن تشجعه على ممارسة الرياضة . سعيد في العاشرة من عمره الآن وبدين ، والسمنة لا تصلح لما أعده له . من فضلك لا تقدم له المكرونة في بيتك العامر !

انحنى فرديناند الشاب طاعة ، وانهزم في لعبة البلياردو .

بعد انصرافه دخل وفد مدرسة الطب من تلاميذ وأطباء ، على رأسهم الدكتور بيرون مساعد كلوت بك ، ومحمد التونسي الذي انتقل إلى المدرسة كمراجع ترجمة ، والمترجم رفاعة الطهطاوي الذي أهدى الباشا أوراقا فيها ترجمة كتاب الأمير لميكافيلي !

ابتسم محمد علي راضيا :

– ولدي رفاعة الطهطاوي هذا أرسلته إلى باريس ليؤم بعثتي هناك في الصلاة ، فسبقهم إلى تعلم الفرنسية وترجمة الكتب ، الآن أمنحه هدية ، مائتين وخمسين فدانا بطهطا ، ومن العام القادم ينتقل مترجما لعلوم الهندسة والحرب بمدرسة المدفعية بطرة .

وكان المنادون قد طافوا بأنحاء العاصمة يأمرون بإقامة الزينات .

فما كان المساء حتى صدحت الأنغام فوق مراكب النيل وغلايين الباشا ، وأقيمت ليالى الأنس فى قصور الأمراء والأعيان ، وازدان خان الخليلى والغورية والجمالية بمئات المصابيح ، وأطلقت المدفعية فى صحوة كل يوم وعصره وبعد العشاء .

لكن أهل القاهرة ضجوا من نفقات الحروب واختفاء أولادهم المجندين وغلاء الأسعار وخطف سمن الفلاحين لمطابخ القلعة بأبخث الأثمان !

وكان الطفل إسماعيل بن إبراهيم – مثل ثروت بن الشاطر– فى نصف عامه الثانى ، عندما فتكت جيوش والده بجيوش السلطان وتوغلت حتى مشارف الأستانة ، عاصمة الإمبراطورية العثمانية ومدينة الفرمانات . فتلقى تهنئة والده ونيشانا مكتوبًا فى وسطه بالماس الحر « عليك عون الله » .. ولو دخل الأستانة لعاد حكم المنطقة كلها إلى القاهرة ، كما كان الحال قبل مقتل السلطان الغورى على يد سليم العثمانى ، ليصبح الحكم بعد والده له ولذريته من بعده ، وصارت تركيا هى التى تدفع الجزية لمصر !

أخيرا أقر السلطان بولاية محمد على على مصر والشام والحجاز والسودان وجزيرة كريت ، مقابل أن تنسحب جيوش ابنه من منطقة الأناضول التركية[١] .

صار محمد على فى أسعد حال ، وراح يتحين الفرصة المناسبة للاستقلال عن السلطان نهائيا وكان عمر حفيده إسماعيل – مثل ثروت – ثلاث سنوات ونصف .

* * *

لكن ما مر عام حتى حط الطاعون ، فأغلقت أسواق القاهرة ، وصار الإنسان لا يدرى بموت صاحبه إلا بعد أيام لكثرة من يموت ، وصار العمال يخلعون الأبواب لحمل الموتى عليها ، ثلاثة أو أربعة ، يخرجون بهم من سور المدينة فى حراسة العسكر ، ويلقونهم إلى حفرة عميقة بثيابهم وأغطيتهم ، ويهيلون التراب عليهم حتى يغطيهم ، ثم يلقون فوقهم صفا ثانيا ويردمون ، فإذا امتلأت الحفرة وبقى بينها وبين الأرض عدة أشبار كبسوها بالتراب والحجارة ، ثم يحفرون غيرها !

(١) كان ذلك بتدخل بريطانيا وفرنسا والروسيا فيما سمى اتفاقية كوتاهية ١٨٣٣ .

لم يقلق الشاطر على نفسه لأن المعسكر نظيفا ، ولا على زوجته ثريا وابنه ثروت لأن دار إبراهيم باشا فى رعاية أطباء الفرنجة . كان قلقه على زوجته زهرة وابنته بهية وصاحبه حتحوت والأهل بالصعيد ..

وكان حتحوت قد ألزم أهالى تلة الجديدة بفنون الوقاية كما تعلمها فى الجيش ، وأحضر من مدينة المنيا عشرات القطط كى تساعد قطط القرية فى التهام الفئران ، التى هى من أكبر أسباب انتشار الطاعون . بهذا نجت القرية ، وكانت تلة القديمة قد ردمتها الأتربة ، وصارت تعرف بكوم المحروقة !

ولأن حرب الشام وقعت بين الكوليرا والطاعون أطلق عليها الناس حرب الوبائين . فى الأخير اختفى رفاعة الطهطاوى مما أقلق عمر التونسى . بحثت عنه عساكر محمد على طويلا ولم يجدوه ، حتى ظنه الباشا دفن ضمن آلاف المجهولين ، فإذا هو يظهر بعد انحسار الوباء ، حاملا مجلدا ضخما ، معترفا بأنه كان فى بلدته :

– ليس هربا من الموت، فالإنسان يجد ساعته أينما ذهب ، لكن إيمانى بالله دفعنى إلى بذل ما فى وسعى لدرء الوباء ، فتوجهت إلى طهطا النظيفة منه ، وأتممت ترجمة مجلد ضخم فى الجغرافيا ، وهى من بعض فنون الحرب . وها هو ذا أهديه إلى ولى النعم .

فأنعم عليه برتبة صاغ جعلت لقبه رفاعة بك . انتهز فرصة هذا الرضاء وطلب إنشاء مدرسة للترجمة تسد حاجة البلاد فى ترجمة علوم الفرنجة ، ويحفظ فيها كل قطعة آثار يعثر عليها مصرى أو أجنبى . فصرفه مجبور الخاطر .

بعد ذهابه انطوى محمد على ينفث همومه مع دخان الشيشة ، يفكر فى خسائر الطاعون وخسائر الشام، ريع جميع بلاد فلسطين والشام أقل من الخراج المطلوب دفعه للسلطان ، ولا يغطى نفقات الجيش وموظفيه هناك ، رغم الضرائب واحتكاره لتجارة الحرير ، يعوض النقص من مال مصر . زادت النفقات بهياج الشوام وإخفاقه فى نزع سلاحهم . كان عليه أن يتوقع الفتن ، فليس أمهر من آل عثمان فى حبك المؤامرات وممارسة الرشوة أخذا وعطاء ، يشاركهم الإنجليز بنفوذهم الطاغى على السلطان

المدينون ، أعلنوا بوقاحة أنهم لم يتركوا والى مصر ينعم بالشام أو يستقل عن تركيا ، وطالبوه بأن يفتح أسواقه أمام بضائعم ، ويلغى احتكاره للتجارة إسوة بسائر الولايات العثمانية ، ونجحوا فى تأليب عربان نابلس والجبل والدروز ضده !

ضاق صدره من الغم والدخان ، فألغى مقابلات القناصل ، وأمر باستدعاء أحفاده ليسعد برؤياهم ، فجاءوا من قصورهم بالقاهرة وضواحيها ، فى مواكب صغيرة مع الأمهات والدادات والخدم والعبيد الطواشية والسيّاس . جلس يتأمل كثرتهم وبهرجة ثيابهم ، وهم جالسون فى ملل يحاولون التملص من قبضات أمهاتهم المتأنقات بأغلى الثياب والمصاغ !

وقعت عيناه على الأميرة خوشيار، فعرف أن صبيها هو إسماعيل بن إبراهيم . داعبه وقبله فى حنو . داعب أخوته غير الأشقاء ، يعوضهم عن انشغال والدهم بالحروب . على ذكر الحروب انقبض مزاجه ثانية وصرفهم . فلثمت خوشيار يده وقالت :

– خادمتك تذوب شوقا إلى زوجها بالشام !

كان على علم بنبوءة العراف الذى تنبأ برحيل إبراهيم قبله ، لهذا تفهّم شدة قلقها على زوجها . رمقها مليا واثقا أنها تتمنى فشل النبوءة وأن يموت هو قبل رجلها . قال فى حسم :

– لا مانع ، لكنى أرى ابنك فى سن الختان . ختنيه قبل السفر ، وبعد العودة يبدأ فى التعلم . أريده ولدا نابها .

ثم أهدى إسماعيل إحدى ساعاته الذهبية بسلسلتها . فعادت به أمه فخورة بهذا الإنعام . وجرى الولد إلى ثروت يحكى له ما شاهده فى قلعة جده الكبيرة جدا من نافورات ومرايا ونقوش وخيول ومدافع . ثم أراه الساعة وسمح له أن يضعها على أذنه ليسمع دقاتها .

ولأن رغبة أفندينا أمر فقد استيقظا صباح اليوم التالى ليجدا العمال يملأون الفناء الفسيح ويثبتون عشرات القناديل والنجف البللور والثريات . لما انتهوا من ذلك سمح البواب بدخول مائتى صبى من فقراء الحى جميعهم يرتدون جلاليب بيضاء جديدة . سرعان ما تعارفوا ولعبوا وأكلوا وشربوا ، واستمتعوا بألعاب الحواة والبهلوانات . حتى وصل المزيّن بصندوقه ومشرطه . دخل غرفة وأدخلوا إليه صبيا ، سمع الجميع صراخه فحاولوا الفرار . بعد ساعات كانوا جميعا قد تم ختانهم ، بما فيهم إسماعيل الذى نام فى حضن الأميرة ، وثروت الذى نام فى غرفة ثريا . أما الآخرون فقد ناموا بالفناء ، ومكثوا ضيوفا يأكلون ويشربون ويشاهدون المسليات حتى طابت جراح الجميع ، فسافرت خوشيار وثريا وولداهما إلى بر الشام حيث الفاتح إبراهيم باشا .

فى غياب ثريا استمتع الشاطر بحريته فى الدار ، مرتاحا من نواهى زوجته . استلقى مسترخيا يتأمل نقوش السقف الحمراء والخضراء ، جاع فنهض يفتش عن طعام ، عثر على كميات من السمن وعسل النحل والجبن والخبز المقدد . فى مخبأ بالحائط وجد عشرة جنيهات تشترى أربعين بقرة .. بينما هو عائد إلى المعسكر خطرت على باله فكرة ، فاستأذن فى أجازة أسبوع وعاد وأخذ خمسة جنيهات ، ثم استأجر جملين ، ونقل زلع السمن والعسل والجبن ومقطف الخبز وبعض ثياب ثروت الزائدة إلى الباخرة النيلية ، قاصداً المنيا التى وصلها ليلا . بات على الشاطئ يحرس حمولته الثمينة ، وعرف أن الريس مرسى باع مركبه واعتزل العمل . قرب الفجر استأجر جملين للحمولة وحمارا له متوجها إلى تلة الجديدة . رآه حتحوت فاندفع يرحب به ، وحيّاه الريس مرسى الذى هدته الخطوب وسنوات عمره الخمس والستون . سلم عليه إدريس بن حتحوت برزانة وفتور ، وكان طه قد بلغ التاسعة من عمره . والتوأم بدر وبدور الثامنة ، وابنته بهية السابعة وقد صارت آية فى الجمال والدماثة . مال يقبلها فتراجعت منزعجة . أوضح إدريس أنها ترفض أن يقبلها الغرباء . لكن زهرة أفهمتها أن الشاطر أبوها ، ثم التفتت إليه فى برود :

- خطوة عزيزة يا أفندى !

كانت قد استردت رونقها وبعض حسنها القديم فاشتهاها .

لكنهم فرحوا بالأطعمة ، وذاق الأطفال العسل لأول مرة ، وارتدوا ما ناسبهم من ثياب ثروت . ضيق الحال يكاد يخنق الجميع لولا المحبة ، رغم أن البيوت تحسنت وصارت عامرة بأصوات الحياة ، من صياح الديكة ومأماة ما عز أو نهيق حمار ، وإن كانت خالية من خوار البقر والجاموس !

بقى يعاونهم فى الفلاحة ، وأعطى الجنيهات إلى الريس مرسى ، وجلس يرقب انبهارهم ببريق الذهب ، سعيدا بنظرة التسامح التى منحتها له زهرة ، لكنها عندما طلبها إلى الفراش أبت وخاف أن يلح . ظل يقضى أوقات الغروب فى مداعبة بهية حتى آنست إليه وأحبته ، وأحبه الأحفاد ، لهذا غلبه الحزن وقت الودا ع .

بالقاهرة لم يطق قضاء أيام الجمعة وحيدا ، فكان يجلس بعد الصلاة مع محمد بن عمر التونسى على إحدى مقاهى الخليج ، يتحدثان عن أحوال مصر والشام ، وذكريات رحلة دارفور القديمة والسلطان محمد فضل قمر السلاطين . حدثه التونسى كيف أن الدكتور بيرون مساعد الدكتور كلوت بك عندما سمع تفاصيل هذه الرحلة طلب منه تسجيل جميع مشاهداته فى كتاب ، تاريخ سلاطين الفور وتقاليدهم ، طقوس زواجهم وحروبهم ، كل شىء حتى نكاتهم المهذبة والبذئية ، مع محاولة رسم خريطة لديارهم .

ضحك مازحا :

– يريد منى تأليف الكتب مثل صديقى الهمام رفاعة الطهطاوى .

لكن ذاكرتى خوانة ، فهل تعاوننى فى تنشيطها ، وهل تسمح أن أضيف إلى معلوماتى ما انفردت أنت وحتحوت بمعرفته ؟ الأجانب يهتمون بالتفاصيل أكثر من العموميات . سأجعل عنوان : « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » .

– بكل ترحاب ومحبة .

فلما عادت ثريا مع مولاتها ، صار يوم الجمعة من حقها . واستمتع الشاطر بحكايات ولده ثروت عن مدن الشام وجبالها وتفاحها ومشمشها . لكن أمه لم تكن مرتاحة لأن الناس هناك فى هياج وفتن ، بسبب تجنيد أولادهم وسياط جباة الضرائب وفداحة رشاوى موظفى أفندينا ، الذين اغتيل بعضهم . توقفت فى دلال :

– كم أنا غبية كى أبدّد وقتنا فى هذه السيرة ، مشتاقة إليك يا حبى !

وظلت لطيفة معه مثل نسمات الربيع ، حتى اكتشفت اختفاء زلع السمن والعسل والجبن وعرفت أنه أرسلها إلى ضرتها ، فانقلبت مثل عواصف الخماسين . ولما اكتشفت اختفاء الكيسة هجمت عليه وعضته فى ذراعه . تألم ودفعها متوعدا :

– إن كررت ذلك يا امرأة طلقتك واستقلت من الجهادية وعدت إلى زهرة نهائيا !

– إنها أموالى وأموال ابنى ثروت

– هم أحوج منا ، أنت تشترين بها الذهب وهم يشترون الطعام !

لكنها أخذت الكيس الثانى وولدها وانصرفت غاضبة ، وقاطعته عدة شهور ، فتجلد وصمد ، حتى أرهقها الشوق فطلبت لقياه ، وتزينت له . فهم مغزى التبرج ، وكان فى لهفة إلى حضن امرأة فضاجعها . بعد أن انتشى أخبرها فى حزم أنه سوف يأخذ كيس المال الثانى لمساعدة أهله فى محنتهم ويردها حين ميسرة . ردت فى برود :

– أعرف وتعرف أنك فقير وليس بإمكانك رده !

– أعرف وتعرفين أن هذا المال جمعه عمال الباشا من الفلاحين !

رأت إصراره فتلطفت معه . داعبها مغازلا :

– ثم إن أميرتك أمرتك بعدم إغضابى وبالحرص على محبتى !

ضحكت وهى تعطيه الكيس :

– أما الحب ففى القلب والروح والجسد ، أما الذهب فأعرف كيف أعوضه من أميرتى التى أمرتنى بطاعتك ومحبتك . صدقنى يا حبيبى ، أنا لا أكره زهرة ، وأحب أن يتعرف ثروت على أخته بهية !

ظنها تجامله ، فإذا هى تسأله كلما تقابلا عن موعد زيارة الصعيد ، وهو يؤجل ويختلق الأعذار . خاف أن تتعالى فتذكرها زهرة بأصلها ويردعها إدريس بما لا يليق . خاف أن يدخل بها القرية أمام الفلاحين بحبرتها وبرقعها ، فإن خلعتهما بالدار وشاهد الأهل طربوشها القصير ضحكوا منها !

* * *

أتت الأنباء بتزايد الفتن فى بلاد فلسطين والشام ، من تدبير الإنجليز برشاوى الأتراك . وحشد السلطان محمود جيَشا جديدا لطرد جيش محمد على . بعد عدة مناوشات التقى الجيشان . بعد كر وفر هرب العساكر الأتراك ، وغنم إبراهم باشا مدافعهم وذخيرتهم وخيامهم بكل ما فيها من عتاد وتموين ، وخيمة قائدهم المزركشة بما فيها من وثائق وخطط وخرائط وصندوق أوسمته ، وخزانة أموال الحملة(١) .

على جرى العادة أطلقت مدافع الابتهاج ، وتزاحم المهنئون فى القلعة . وصعد وفد مدرسة الألسن الجديدة . وناظرها رفاعة الطهطاوى . بعد أن قبلوا الأعتاب قال محمد على متباهيا :

– كنت أعرف من عيونى بالأستانة أن السلطان محمود يحشد جيوشا جرارة وأسلحة جبارة ، وكان ولدنا إبراهيم باشا متأهبا وما زال . أنا سعيد بالفوز وحزين لموت السلطان محمود ، وإن كنت مرتاحا لأنه وقت النكبة كان فى سكرة الموت فلم يعرف . سأحاول التفاهم مع السلطان الجديد عبد المجيد ، لكنه فى السابعة عشرة من عمره ، وسيقع تحت سيطرة الأغاوات والحريم وصدره الأعظم خسرو باشا ، معظمكم

(١) معركة نصيبين ٢٤ ديمسبر ١٨٣٩، خسر الترك فيها نحو أربعة آلاف قتيل وجريح بينهم بعض القواد ، وأكثر من اثنى عشر ألف أسير ، ونحو عشرين ألف بندقية وأربعة وسبعين مدفعا . وخسر الجيش المصرى نحو أربعة آلاف قتيل وجريح .

صغير لا يذكره، كان واليا هنا منذ سبع وعشرين سنة ، وخرج مطرودا وحللت مكانه وأتوقع أن يثير الأحقاد ضدى !

التفت إلى الطهطاوى :

– يا ولدى رفاعة كيف حال مدرسة الألسن ؟

– أمامك يا مولاى الدفعة الأولى ، سيتخرجون هذا العام ، نطبع الآن ما ترجموه فى شتى المعارف . أما عن الآثار فإنى أحتفظ بها بأمر أفندينا فى الحديقة وفى بعض الغرف . رأيت فى باريس المسلة المصرية فى أكبر ميدان ، ونحن أولى بآثارنا . الآن بفضل همتكم تستعيد مصر رقيها .

– تمام رفاعة بك . مصر تستحق الاستقلال . دولة الترك مريضة . انتهى جيشها البرى ، وقريبا يخسرون أسطولهم !

كأنه كان يعرف . فقد أرسل يأمر الأميرة خوشيار بأن تتجهز للسفر إلى الإسكندرية معه ، هى وابنها إسماعيل . اصطحبت معها ثريا وثروت ومن يلزم من الخدم . وجدت فى ثغر بولاق خمسة غلايين جاهزة للتحرك . صعدت إلى الأول ، وصعد الآخرون إلى الثانى . ثم جاء محمد على بكامل أبهته ، حيا الصبى إسماعيل تحية الرجال . لتتحرك الغلايين تسبقها وتتبعها المراكب المسلحة . أجلس حفيده إلى جواره وقال يحدثه :

– عمرك الآن تسع سنوات يا حبيبى . قضى أبوك إبراهيم البطل معظمها بعيداً عنك . أتمنى أن تكون فى نصف ذكائه . أرسل لى يشكو حفيدى عباس حلمى . أعرف أنه قاسى ، مثلى فى بداية حكمى . لكنى كنت أدافع عن حياتى ضد المماليك . لا ليس مثلى . يقضى معظم وقته فى سباق الخيول والهجن ، مثل البدو هو . أبوك يريد إبعاده عن الشام ، وأنا أريده أن يتعلم . يركب الأفراس ويركب الغلمان ،

وسوف تكون نهايته على يد أحدهم . مثل المماليك هذا الكلب ، لكنه الأكبر سنا بعد أبيك . هل فهمت معنى كلامى ؟

– نعم . عمى عباس سيء ، وأبى بطل .

استمر الجد يتحدث والحفيد يستوعب القليل ، حتى غلبه الملل فأخرج الساعة الذهبية وأخذ يهزها ، ثم قال متوسلاً :

– جدى ، أريد ثروت صاحبى كى ألعب معه ، ثروت ابن دادة ثريا .

فجاءوا به وأمه من الغليون الثانى . وجلس الباشا يتأملهما وهما يجريان ويتضاحكان . تحدث مع خوشيار قليلا ثم دخل قمرته لينام .

فى سراى رأس التين بالإسكندرية واصل الصبيان لعبهما على الشاطىء بينما المكاتبات تصل الباشا من كل مكان . ذات صباح بديع وقف خلف النافذة يرقب البحر بمنظاره . بعد طول ترقب تهلل وجهه الأحمر ، وهو يرى أسطولاً تركيًا يتقدم داخلا الميناء فى حراسة أسطوله . أعطى المنظار لإسماعيل قائلا :

– انظر هناك . هذا هو الأسطول التركى ، جاء به قائده الأميرالاى أحمد باشا فوزى مستسلما ، الأسطول بما حمل هدية لى . أحمد باشا فوزى خائن للسلطان طبعا ، بذلت له مالا عظيما . تركيا الآن بلا جيش أو أسطول تقريبا ، وجدك الآن سيد الموقف(١) .

رسا الأسطول وأطلقت مدافع الابتهاج من طوابى الإسكندرية . وجرى إسماعيل إلى ثروت صائحا :

– جدى الآن سيد الموقف !

---

(١) تكون هذا الأسطول من ٩ بوارج كبيرة و ١١ فرقاطة و ٥٠ مركبا من الأنواع الأخرى ، على ظهرها ١٦ ألف ملاح وخمسة آلاف جندى عاد بعضهم إلى تركيا هربا على صنادل عندما علموا بخيانة قائدهم . وقد توفى السلطان محمود فى أول يوليو ١٨٣٩ .

ثم أكد له أن سيد الموقف أكبر من ولى النعم !

لكن مع انقضاء الصيف وهطول الأمطار وتوحل حوارى الإسكندرية ، عاد سيد الموقف إلى القاهرة وهو أقل زهوا . أجمعت تقارير جواسيسه من لندن والأستانة أن بريطانيا وتركيا يدسان له . أمضى عاما مرهقا ، والإنجليز يؤلبون عليه دول أوربا وطوائف الشام . ما زال ينفق على جيشه هناك من مالية مصر بينما الإنجليز يغرفون من خيرات الهند ، ولا يريدون لقواته الاقتراب من الخليج القريب منها !

تناقص وزنه وضعفت أعصابه ، حتى إنه مع حلول الصيف التالى توجّه إلى الإسكندرية التى يحبها، صحب معه ثلاثة أطباء ، إلى جانب خوشيار وحاشيتها . صارت سلواه أن يقف بالشرقة يراقب بيوت الرمال التى يبنيها إسماعيل وثروت .

قال ثروت لصاحبه :

– البحر كما كان فى الصيف الماضى

– البحر لا يتغير يا عبيط ، جدى هو الذى تغير !

– معك حق . صار عجوزا ولم يلاعبنا .

– لكنه سمح لنا بزيارة الميناء فى المساء . اليوم موعد وصول الباخرة الإنجليزية .

فى المساء اصطحبهما الحراس على ظهرى حمارين إلى كرموز . شاهدا السفينة الكبيرة راسية على الجسر وزحام القوارب الصغيرة من حولها ، والمشاعل تنير المكان كأنه فى حفل كبير . أوضح لهما كبير الحراس أن سفينة ضخمة تصل كل أسبوعين من بلاد الإنجليز ، ينزل منها الركاب وحقائب البريد والسلع الإنجليزية إلى الجسور ، يدخلون الجمرك عند ترعة المحمودية ، ليصعدوا على أنوار المشاعل إلى صنادل فى النهر تسحبها الجياد على الطريق البرى إلى القاهرة وحى بولاق ، ثم تنقل البضائع من جديد على ظهور ألفين أو ثلاثة آلاف جمل إلى السويس ، تصل سليمة كاملة رغم

قبائل البدو المتحركة فى الصحراء ، لكن كل قبيلة مسئولة على سلامة القافلة فى منطقة نفوذها . بينما يستقل الركاب عربات ذات عجلتين تقطع بهم المسافة إلى السويس فى أقل من يوم ، والمسافة كلها عبر مصر تستغرق ثلاثة أيام ، فى أمان كامل بفضل صرامة أفندينا . ومن السويس يستقلون سفينة أخرى تتجه بهم إلى الهند ، وتربح مصر من ذلك رسوم الترنزيت أى المرور عبر أراضيها .

رغم أنهما لم يفهما جميع ما قاله كبير الحراس إلا أنهما عادا وهما فى غاية السعادة ، حيث اندفعا إلى خوشيار ووصيفتها ثريا يحكيان فى انبهار ما شاهداه !

فى اليوم التالى شاهدوا وصول عربة إلى فناء القصر ، نزل منها رجل تركى عابس ، تسللا إلى الشرفة الطويل واقتربا من النافذة ، فلما دخل التركى العابس أعطى بعض الأوراق إلى الباشا . أبعدها بقرف .

– أعرف ما فيها . حصل لى جواسيسى على نسخة منها . ليس بها إلا كلام فارغ . سلطانك عبد المجيد شاب صغير ، ووزيره الكلب يكرهنى ، والاثنان لعبة فى يد الإنجليز . يعمل الإنجليز مؤتمرا فى لندن ضدى فتهرولون إلى هناك ، أنتم والنمسا وروسيا وإنجلترا . مؤتمر غربان كله نعيق !. كيف أكون موضوع المؤتمر ولا أدعى إليه ؟ ثم إن فرنسا رفضته وهى دولة عظمى !

– كن حليما يا باشا . أنا مندوب السلطان وأنت نائبه فى مصر ، ومهمتى أن أسلمك هذا الإنذار .

– أوافق على البند الأول فقط ، أن يكون حكم مصر وراثى فى أسرتى . وأريد الشام كله بحق الفتح وإلى الأبد . أما عن أسطولكم فلا مانع من إعادته لكم بشرط عدم استخدامه ضدى .

– أنصحك بقبول الأمر الواقع . يكفيك ولاية عكا مدى حياتك . إن رفضت فى خلال عشرة أيام ولم تسحب جنودك حرمت منها ، فإذا مرت عشرة أيام أخرى وصممت على الرفض عزلك عظمة السلطان من ولاية مصر . الأسلم لك أن تعود إلى دفع الجزية والخراج وتضع قواتك تحت طلب عظمته .

– هذا كلام ذئاب ، ولست نعجة مثله ![1] .

كان ترجمانه ومعاونه أرتين بك يومئ موافقا على كلامه ، لأنه هو الذى تولى ترجمة تقارير الجواسيس . قال التركى العابس قبل انصرافه :

– نصحتك بالحلم . سأمر عليك بعد عشرة أيام لمعرفة الرد !

أراد إسماعيل وثروت أن يدخلا إلى الباشا لكنه ردهما والصداع يعذبه !

بعد عشرة أيام شاهدا التركى العابس يعود ومعه ثلاثة من الفرنجة العابسين ، قدمهم الياور على أنهم مندوبو إنجلترا والنمسا والروسيا ، وسمعا الباشا ينهر التركى :

– اليوم تأتى محتميا بأسيادكم . والله العظيم إن قمتم بأى عمل حربى فسوف أجعل ولدى يزحف إلى الأستانة ويدمرها ، وأفعل بكم مثلما فعل التتار فى أجدادكم !

– أمامك عشرة أيام أخرى .

– لو أريتنى وجهك ثانية ألقيتك لأسماك البحر الذى خلفى !

– أنا راحل إلى تركيا .

التفت إلى الفرنجة :

– أتعشم أن ترحلوا معه .

قال الإنجليزى :

– لم تأمرنى حكومتى !

– تذكروا أن فرنسا الدولة العظمى تساندنى .

---

(١) صدرت قرارات مؤتمر لندن ١٥ يوليو ١٨٤٠ .

أنهى المقابلة ودخل الأطباء بالعقاقير . ثم خرج يتمشى على شاطئ البحر ويفكر . بعد الظهر استدعى المندوب التركى ، أعطاه مكتوبا وتودد إليه :

– لماذا نقحم الأجانب بيننا ؟ سأكتفى بأن يكون حكم مصر وراثيا فى أسرتى وحكم سوريا مدى حياتى فقط . وأوافق على الجلاء عن بقية البلاد بما فيها الحجاز ، وهذا مكتوب منى بذلك .

لكن ما هى إلاّ أيام حتى أتته الأخبار من إبراهيم أن أسطول الإنجليز قذف الحاميات المصرية بثغور الشام ، ثم أنزلوا حملة برية تحت الراية العثمانية ، ألفًا وخمسمائة جندى إنجليزى وخمسة آلاف وخمسمائة تركى ، جارى قتالهم ، لكن العربان والدروز يناوشون مؤخرة الجيش .. زاد الصداع والغيظ ولم تتدخل فرنسا . وإنهالت الأخبار السيئة عليه ، الإنجليز احتلوا عكا ثم أخذوا ثغور الشام تباعا !..

فتوجه يشرف على تحصين قلاع الشاطئ المصرى ، وظهر الأسطول الإنجليزى يروح ويجىء أمام الإسكندرية على مرمى منظاره ، مزمجرا متوعدا : ليجربوا النزول إلى البر .. ثم أمسك بصدغيه يعذبه صداع فظيع !

ولطمت خوشيار وجنتيها على ضياع فتوحات زوجها ، فبكى إسماعيل !

وانحسر حكم محمد على فى مصر ومعظم السودان فقط ، وراثيا فى أسرته لأكبر أفراد الأسرة الذكور ، فصار إبراهيم ولى العهد .. وصار على جيشه أن ينسحب بموظفيه ونسائهم وأطفالهم دون سلاح ، ولم يرحمهم أوغاد البدو والعربان ، هاجموهم بغارات خاطفة ، يسرقون المتعب البطىء ، يخطفون النساء والأطفال ، ينهبون الجمال بما حملت من ماء وزاد قليل ، إلى أن دخل المنسحبون الأرض المصرية ، وصاروا كلما اقتربوا من قرية خرج أهلها يبحثون عن أبنائهم بينهم ..

كانت نهاية المسير الطويل فى الصالحية ، حيث خضعوا للفحص الطبى ، جاء الفلاحون من جميع الأنحاء ، واحد يسأل عن ولده ، والآخر عن أخيه ، والثالثة عن زوج ابنتها ، والنساء يولون على الابن أو الزوج ، وطاف أمشير فى جنون ينادى على عوض

بن الريس مرسى ولا من مجيب ، فانسحب حزينا دامعا : لكم فقد بنو حتحوت فى الحروب والأوبئة ![1] .

عقب انتهاء فترة الحجر الصحى جاء إبراهيم باشا يودع جنوده ، بينما هو يواسيهم ، صاح عباس حلمى فى سليمان باشا الفرنساوى :

– لولا تخاذل بلادك لما حدثت هذه الكارثة

– أفهم أن توجه لومك للإنجليز يا سمو الأمير .

– الإنجليز كفره مناكيد ، لكنهم هددوا ونفذوا ، الفرنسيون وعدوا وأخلفوا مثل العواهر !

ثم التفت فى غطرسة إلى إبراهيم :

– أنت طبعا سعيد بفرمان الوراثة ، صرت ولى العهد ، مع أنك لست ابن جدى ، ابن زوجته لا أكثر ، لهذا لا يثق فيك وسيتخلص منك قريباً !

ومضى رامحًا بفرسه العربى تاركا الجميع فى ذهول !

همس الشاطر للتونسى :

– أمعقول ! ... إبراهيم البطل ليس ابن أفندينا !

– عباس جاهل حقود ، مات والده طوسون صغيرا بالطاعون فى رشيد وهو يلهو مع الفجار والعواهر ، فتربى يتيما مدللا جامحا . ومن جنونه يربى نمراً يفزع به زواره ويضحك عاليا من رعبهم !.. دعنا فى حالنا ، هو كبير العسس !

* * *

اتجه إبراهيم إلى خوشيار . أمر أغا القصر بعدم إدخال أى إنسان .

---

(١) تم الانسحاب بالجلاء عن غزة ١٩ فبراير ١٨٤١ وبلغت خسائر الجيش فى الحرب والانسحاب ثلاثين ألف شهيد ، ومن المدنيين أضعاف هذا الرقم . كما سحب محمد على جيشه من الجزيرة العربية . لكن هذه الأحداث أيقظت فى المصريين شخصية مصر المستقلة عن تركيا . وفى هذا العام ولد عرابى فى ٣١ مارس .

لثم رأس غلامه إسماعيل وصرفه إلى النوم ، ثم اختلى بزوجته وهو مازال متوترا . ومارست ثريا عادتها في التنصت ، سمعته يتحدث عن عباس :

– هذا الفظ قال على الملأ أن أبى سيتخلص منى !

– كيف يا بطل وانتصاراتك هزت الدنيا ؟!

– غيور منى ، والعجوز يظن أننى أتآمر لعزله ، وقد يتآمر هو على قتلى !

شهقت خوشيار رعبا . انفجر غاضبا :

– عباس الغشوم خائب فى القتال وسياسة الناس ، لم أنل منه إلا إثارة القلاقل أينما حل ، يهجر الحسان ويلوط بالغلمان ، يشتريهم أو يخطفهم من ذويهم ، ويشاركونه فراش النوم !

– أنت لست مسئولا عما حدث ، الإنجليز الخنازير هم السبب !

– هم يحمون طريقهم إلى الهند ، والفرنسيون هوائيون ، لكن من الظلم أن يتطاول على سليمان باشا ، رئيس أركانى الذى كان نعم القائد !

غنج صوتها :

– تعال يا بطل ننسى .

– يلوم أبى على التوسع فى المدارس والبعثات ، يقول إن التعليم يفسد الرعية . هذا الجلف هدد بقتل رفاعة الطهطاوى بسبب كتابه تخليص الإبريز !

– سمعت أنه كتاب سئ ، به غمز ولمز ، يقول أن حكومة فرنسا تعمل حسابا لرأى الناس ، هل نأخذ نحن برأى الفلاحين

أرهفت ثريا السمع . صمت . لعل الأميرة أسكتته بقبلة . لعله يحتسى كأسا . ربما تخففه من ثيابه قطعة بعد أخرى ، وتتخفف من ثيابها الخفيفة .. ثم سمعته يرد :

– وما كنا نحن قبل حكم مصر ؟ ! .. الآن لم يعد لنا إلا المصريون ، ليس أمامنا إلا أن نجهز منهم المأمير والأطباء والمهندسين وجباة الضرائب ، أبى تنبه إلى ذلك مبكرا . أن نعاملهم بشفقة مثلما تعاملين وصيفاتك وأغاواتك .

– تعال فى حضنى المشتاق .

– صحة أبى تقلقنى . أعصابه فولاذية لكن النوازل زعزعتها ، صار كثير الشرود والانذهال .

– لماذا أنت بطل ؟ كى تعاونه فى الحكم .

– أنا منذ الآن باق فى مصر . عباس عاطل من كل موهبة . سألزمه حده . ياويل الأسرة إن هو تحكم !

طال الصمت ، ثم سمعت ثريا تأوهات الغزل . نجحت الأميرة فى ترويض البطل . فانسحبت إلى المضجع ينكدها القلق . إبراهيم باشا هو حاميهم وراعيم ، إن هومات وحكم عباس المجنون نكل بهم ، وهى بلا مكان تأوى إليه ، أو أهل تهرع إليهم !

بعد أسابيع كانت تمتطى حمارة وديعة ، متجهة من المنيا إلى تلة الجديدة ، من ورائها ابنها على حمار ، إلى جوارهما الشاطر يبلله العرق رغم البرودة ، والفلاحون يحملقون إلى امرأته وحبرتها الثمينة والبرقع ، مرعوبا من لحظة مواجتها لضرتها زهرة ، اندفع يفهمها أن دار الأسرة ليس إلا كوخا ، رغم فقرهم لا يرضون إلا بأحسن معاملة . أدركت معنى كلامه فقالت :

– اطمئن يا زوجى ، أعرف كيف أكسب ودهم .

تجمع الأطفال من حولهم ، نبحت الكلاب وجفل البط والأوز ، وثروت يضحك فى شغف . حتى وصلوا وتأملت ثريا الدار ثم تشاغلت تنفض الغبار عن حبرتها السوداء . خرجت زهرة تستطلع السر ، رأت ضرتها ففقدت النطق والحركة ، بعد وقت رأت ثروت يحييها فى أدب ، وبهية ترتمى فى حضن الشاطر ثم ترتد خجلة ، والفتى إدريس يندفع غاضبا يهش على العيال . بينما سارع أبوه حتحوت يرحب بالضيوف ،

ويأخذهم إلى الداخل حيث الريس مرسى جالسا معتلا . حيّته ثريا فى احترام . سلمت على التوأم بدر وبدور وقد صارا فى الثانية عشرة ، وعلى طه الذى يكبرهما بعامين ويستعد للزواج من بدور .

ثم توترت حذرة وهى ترى زهرة تدخل متحفزة جاهزة للانفجار . توددت بصوت محنك :

- أهلا زهرة هانم !

جميع الأنظار فى ترقب . ردت زهرة فى جفاء :

- اخلعى هذه الخيمة كى أرى وجهك !

بهدوء خلعت البرقع والحبرة والطربوش وأسدلت شعرها . والجميع فى ذهول . انبهر بها الصغار . رأى حتحوت وجهها مثل البدر الساطع فالتمس العذر للشاطر ، من رأى ليس كمن سمع . نسى الريس مرسى إعياءه مأخوذاً ، سبحان الوهاب ، طاف البلاد شمالا وجنوبا ولم يصادف مثل هذا الحسن !

لكن زهرة استدارت إلى الشاطر ، وواجهته موبخة :

- ماذا يميزها عنى ؟

أنقذته ثريا بلباقة :

- ابتعادك عنه يا زهرة هانم .

- إن كررت هذه الكلمة قصصت لك شعرك المصبوغ هذا !

- سامحينى وسامحيه . ليس ذنبنا ولا ذنبك .

صاح الريس مرسى :

- ذنب الحب الجبار الذى لا يهدأ بالليل والنهار .

ضحك الصغار ، وتقدم ثروت من بهية متلطفا :

- اسمك جميل يا أختى ، وأنت جميلة

- وأنت جميل لكن اسمك غريب

- حدثنى أبى كثيرا عـنك ، كان يظن أنك مازلت صغيرة ، لكـنك عروسة حلوة أثر كلا مهما فى زهرة . رأت ثريا وجهها يرق حنانًا ، توددت إليها :

- كان لابد أن يعرف الأخ اخته . نحن كبرنا ولا ذنب لهما .

هز الريس مرسى رأسه راضيا :

- صدق من قال العقل زينة لكل رزينة . اعذرينا يا هانم ، المكان لا يليق بمقامك !

انهارت تبكى فى صمت . وجموا . من بين دموعها قالت :

- كانت دار أهلى مثل هذا الدار ، فى بلاد بعيدة تحيطها جبال وغابات . كنت طفلة سعيدة بين أخوتى . حتى جاء رجال قساة وخطفونى وسافروا بى السفر الطويل ليبيعونى فى مصر . صدقونى أسرتى أفقر منكم . لا أذكرهم الآن . لم يعد لى أهل سواكم !

اغرورقت عيونهم من جمالها المنتحب . ربتت بهية على كتفها تحايلها ، فأخذتها فى حضنها ، شمت الصبية عطرها فقالت :

- رائحتك حلوة !

- سأعطيك زجاجة عطر تتعطرين منها ليلة زفافك إلى إدريس ، وجهازك على نفقتى .

قبل أن تتدخل زهرة ، أسرعت تعطيها كيس نقود :

- كم تمنيت أن أرزق بابنة . أنتم أهلى . إن أعفتنى مولاتى من العمل جئنا نعيش معكم . إن وافقت زهرة !

قال مرسى :

- أهلا بكم . فعلا النساء أنواع ، منهن من هى مثل النور للعين ، ومن هى مثل الشهد ، ومن هى ورطة على صاحبها مثل الدبة !

شاكسه حتحوت :

– كيف تعرف يا أخى وأنت لم تعاشر سوى المرحومة مبروكة !

– كانت نورا وشهدا ، كانت وحدها تساوى زوجتى الشاطر معا

انتقل ثروت إلى جوار حتحوت :

– من فضلك يا عمى احك لى مغامراتك فى السودان مع أبى .

– سمعا وطاعة يا حبيبى . لكن بعد العشاء .

بفضل ذكاء ثريا مضت أيامهم على خير . وجد الشاطر زهرة امرأة نضرة تفوح أنوثة ، رغم أنها فى الرابعة والخمسين من عمرها ، حنّ إلى حضنها وحبها ، لكنها بقيت مضيافة فى تحفظ . وفرح ثروت بالطيور والمواشى ، أحب أخته بهية وأحبته ، صادق إدريس وطه والتوأم بدر وبدور ، استمتع معهم كل مساء بحكايات حتحوت فى أعالى النيل . إلى أن حان وقت الرحيل ، فكان الفراق صعبا على الصغار ، مريحا للكبار . لم يشعر الشاطر بالأمان إلا بعد أن صعد باخرة العودة . وبينما ثريا تودع زهرة أخبرتها أن شعرها طبيعى وليس مصبوغا !

بعد سفرهم بشهرين أحس الريس مرسى بدنو الأجل ، فأصر على إتمام أفراح الأنجال ، إدريس وبهية . طه وبدور . دقت طبلة الفرح وعلت الزغاريد ، ولونت الحناء أكفهم ، صار للعائلة أكواخا متساندة . بعد أيام غادر مرسى دار الفناء قريرا . وصار حتحوت كبير الأسرة والقرية . له الكلمة ومنه المشورة . ولم يعرف الشاطر النبأ إلا بعد عام ، عندما زارهم مصطحبا ثروت . زار قبره وتمنى له الجنة . ثم وجد السلوى فى مداعبة حفيده من ابنته بهية وزوجها إدريس ، والذى اسمه أمشير ، لأنه ولد فى شهر أمشير ، بدأ يوم مولده باردا على غير العادة ، ثم انقلب حارا وأثارت الرياح الأتربة والقش ، ثم غيمت السماء وأمطرت رذاذا خفيفا ، وأمه بهية تعانى أوجاع المخاض . عندما هدأت الأجواء قليلا وساد السكون ، خرج من رحمها مالئًا الدنيا صراخًا . ضحك أبوه إدريس واختار له اسم أمشير ، لأنه جاء مثل الأعاصير !

(٦) بشير ونذير

فى الإسكندرية ، بالقاعة الفخمة بقصر رأس التين التى تكاد تكون خالية من قطع الأساس ، وقف محمد على أمام النافذة ممسكا بقبضة سيفه ، يتأمل أمواج البحر المتوسط ، حركة أمواجه دءوب لا تتوقف ، مثل حال الأيام ، تأتى بالعز وتذهب به ، تأتى بالشيخوخة وتذهب بالصحة . وابنه إبراهيم باشا يتمنى موته سريعا ، لعله يتآمر على عزله ، يريد الجلوس مكانه اليوم قبل غد . بعد تآمر الدول الكبرى يجىء تآمر الابن ، وقد يستأجر أحد الخدم لدس السم له !

استدار يجلس . وضع سيفه إلى جواره ، ومن حوله حجّابه المماليك الذين يثق بهم . الصداع يضايقه . طلب فنجان قهوة . سرعان ما جاء به المملوكى المختص . رمق الفنجان فى شك وأزاحه بعيدا :

- هذا ليس نظيفا !

سارع المملوك يطمئنه وقد اعتاد على شكوكه :

- يارب أفقد ذراعى وساقى وينحط قدرى إلى متسول بقية عمرى إذا كانت هذه القهوة غير نظيفة . أنا مستعد أن أحتسيها أمام أفندينا .

عبثت أنامل العجوز بلحيته الكثة التى فى لون القطن ، ثم مسح شاربه الأبيض ، وراح يرشف القهوة فى بطء ، لكنها لم تذهب بصداعه .

بعد قليل دخل بوغوس بك يوسفيان الذى يتولى أعمال التجارة والشئون الخارجية له ، مصطحبا معه شابا صغيرا فى حوالى السابعة عشرة من عمره . انحنى وقدمه له :

- هذا نوبار ابن أختى وابن مندوبكم فى الأناضول أيام حملة الشام الأولى والذى صار مندوبكم فى باريس أيام الحملة الثانية .. درس فى جنيف مع الأمير نابليون ثم أكمل دراسته فى تولوز بفرنسا . يكتب ويقرأ بإحدى عشرة لغة . استدعيته من الأستانة على أمل أن يفوز بعطف ولى النعم .

تأمل محمد على الشاب الصغير . رآه ربع القامة أميل إلى الطول ، قوى البنية أسمر اللون والعينين والشعر ، لوجهه تقاطيع متناسقة وشارب حديث ينثنى حول فمه إلى أسفل . قال :

- ما شاء الله ، له ذكاء والده . أمرنا بأن يكون سكرتيراً لك . بعد ذلك نضمه إلى قلم الترجمة بديواننا . سوف يكون له مع أسرتى شأن كبير ، بشرط أن يتعلم اللغة التركية ، ولغة العامة هنا ، وبشرط أن يكون أمينا مثلك .

ابتسم نوبار فأنارت الابتسامة وجهه ، جعلت له قبولا عند الباشا الذى أمر بانصرافهما . ثم نهض إلى النافذة، تأمل السحب المتكاثفة فى نهاية الصيف فتغضن وجهه . السلطان يطالب بتسليم الأميرالاى أحمد باشا فوزى ، قائد البحرية التركى الذى خان مولاه وجاء بالأسطول إلى الإسكندرية . أعاد محمد على الأسطول ، مضت أربعة أعوام والسلطان يطالب بالخائن ، وإن أعاده له قتله وقد وعده بالأمان . لكنه يريد تحسين علاقاته بالسلطان !

فكر قليلا والصداع يضايقه ، ثم نادى على أحد مماليكه المخصلين وقال له :

- سأعود الآن إلى القاهرة وستبقى أنت . فى الليل تذهب إلى المحافظ زكى أفندى فى بيته وتخبره بأن يتصرف مع أحمد باشا فوزى ، وسيفهم معنى الكلام !

تحت جنح الليل أبلغ المملوكى الرسالة . شحب وجه محافظ الإسكندرية ، لكنه فى الصباح استدعى أحمد باشا إلى مكتبه . بش فى وجهه محتفيا به وأجلسه فى الصدارة . بعد ترحيب كبير مكرر تنحنح وقال محرجا :

- سيدى أحمد باشا ، تعرف أننا ضيوف فى هذه الدنيا ، وأنها ليست إلا نقطة عبور ، وخلق الله الأتقياء يذعنون لإرادته .

شحب وجه الأمير الاى . أطرق برهة مدركا أن ما ظل يخشاه قد آن أوانه . نظر فى حزن هادئ إلى مضيفه وقال :

- هل تأمر سعادتك بأن يحضروا لى سجادة الصلاة .

سرعان ما جاءوا بها . فقام وصلى . ثم نهض وجلس فى سكينه . صفق زكي أفندى فدخل الخادم بفنجان قهوة . أمسك أحمد باشا به وراح يرشف القهوة ببطء على جرعات صغيرة كما تقضى قواعد اللياقة . واستمر الحديث فى أدب . عندما انتهى نهض منصرفا ورافقه المحافظ حتى عربته .

مع غروب شمس اليوم التالى عاد المملوكى إلى القلعة . اتجه من فوره إلى محمد على وقال فى حزن :

- جئت يا مولاى بنبأ حزين !

انفرجت أسارير الباشا . أعطاه الأمان وأمره بالكلام . قال المملوكى :

- هذا الصباح عثر على أحمد باشا فوزى ميتا فى فراشه ، وقال الطبيب أنه مات أثناء نومه نتيجة سكتة دماغية !

هزّ العجوز رأسه فى أسى متمنيا له الرحمة ، وأمر بتبليغ العزاء إلى مندوب السلطان !

* * *

زادت شيخوخة أفندينا خمسة أعوام ، زاد فيها الصداع والداء ولم يجد الدواء . ولم يجد السلاح الذى يقهر به فعل الزمان عدو الإنسان فى كل أوان . فبعد أن كابد الوالى الطموح تصدع الصروح ، صار يجلس فى خمول ويأكل فى ذهول . يجتر شقاء السنين بغدر السلاطين . منذ أعوام كان قطف الأحلام على مسيرة أيام ، ثم انسحب جيش الفلاحين عند الشام وفلسطين . أودت الهزيمة بالعزيمة ، فلم تعد له همة لأى مهمة . لاجدوى من الكد والعناء ، البقاء شقاء . ذهب الرجاء وضاع الوفاء . ذكريات

الصحو تعيسة وأحلام النوم كبيسة . ولا ينسى . يشرب يسترخى يحكم يدخن يسامر ، ولا ينسى . لابهاء ولا عزاء فى الفرش أو العرش . يضيق بالناس وبالوحدة ، يضيق بالقصر والخواء ، فيخرج إلى قبة الهواء . يتأمل المدينة . أهل القاهرة ينامون فى سلام . قطب وبصق هذا الكلام ، لقد سلب منهم المال والحمير والجمال ، أخذ الأبناء من الأمهات ، الأزواج من الزوجات ، الآباء من الأطفال . بعد الحروب والنكسة عاد واحد من كل خمسة . ومنذ أعوام كان قطف الأحلام على مسيرة أيام !

أراد نوبار أن يسرى عنه فقال :

– يا مولاى ، ليست كل الأمور شرور . فرنسا تساندك ضد الباب العالى وترى أن وزنك أكبر منه .

– الفرنسيون مخطئون يا نوبار

– أما زال سموك يحلم بإقامة إمبراطورية عربية ؟

– إنها تحتاج إلى نبى لتحقيقها ، وقد ولى زمن الأنبياء . أنا صرت شيخا وإبراهيم ولدى أكثر شيخوخة منى ومريض ومحطم ، ومن بعده عباس القاسى البليد ، وباقى أبنائى وأحفادى الذكور بلهاء أو أطفال . ستصبح مصر فريسة لقوة كبرى . يجب أن أعيد ربطها بالسلطنة العثمانية ضمانا لحمايتها . فالسمك الكبير يبتلع الصغير . والإنجليز يطمعون فى مصر . أنا صديقهم ، لكننى أعرف أنهم يتعاملون معى باللسان الحلو ويضمرون فى صدورهم الغدر المر ! . .لست نبيا رغم أننى أحكم الجزيرة العربية!

صرفه وعاد يشرد فى همومه . حلت الخيبة وراحت الهيبة . انصرف عن الواقع يحلم ، فأخذ إبراهيم يحكم . مع أنه مسكين ، يعانى من داء الدوزنتاريا اللعين ، يتعذب ويفرز الدم مع البراز !

ثقل المرض على إبراهيم فقرر السفر إلى إيطاليا للعلاج . ذهب يودع زوجته ، وهو شاحب مضعضع . أوصته أن يطمئن على ولدهما إسماعيل ، وكان إسماعيل قد أصيب منذ ثلاث سنوات بارتخاء جفنى عينه اليمنى ، وصار من العسير عليه فتحها ،

فأرسلوه إلى النمسا للعلاج . توقع رفيق عمره ثروت عودته بعد شهرين فمكث عامين ، ومن هناك توجه إلى باريس ليندرج فى البعثة التعليمية ، التى كان معظمها من سلالة أفندينا فسميت بعثة الأنجال .

طمأنها إبراهيم وسافر بقلق متزايد ووسواس متعاظم ومعه نوبار الذى صار سكرتيره الخاص .. سوف تتحقق النبوءة القديمة ويسبق والده إلى القبر، ولن يحكم مصر رسميا . طال الاستشفاء بسبب حيرة الأطباء ، ونوبار يتعاطف مع عذابه من الداء والقلق . حتى وهو جالس على مقعد وثير أمام الرسام الإيطالى ليرسمه كان يهب فجأة ويطوف بالغرفة صائحا :

- لا لن أموت . إن الله خلقنى من أجل مصر ، كى أجعلها غنية مترفة . لن يكون من العدل أن يأخذنى قبل أن أتمكن من إسعادها !

ثم يعود ليجلس على المقعد الوثير أمام الرسام المندهش المرتجف ، ليكمل تسجيل ملامحه فوق اللوحة التى علقها فى قصر رأس التين عندما عاد .

وفى طريق العودة من نابولى إلى الإسكندرية علما بأن محمد على لما اشتدت به الدوزنتاريا هو الآخر غادر مصر وأقام فى مصحة بجزيرة مالطة ، وأن الأطباء هناك عالجوه علاجا ناجعا بمحلول من نترات الزئبق ، قضى المحلول على الدوزنتاريا لكنه أدّى إلى خلل فى عقله ! فعاد إلى سراى رأس التين ومعه الأطباء . عاد متكدراً بسبب إقامة الجمهورية فى فرنسا بعد عزل لويس فيليب صديقه وسنده !

لم يستطع أحد الجزم بأنه مجنون . فى لحظات يكون واعيا بما يدور من حو له ويتابع الأمور بيقظة . ثم يشعر أن عقله يفلت منه وذاكرته تخونه فيلوذ بالصمت العميق، ويبذل جهودا جبارة ليحافظ على مظهره المتعالى . وإبراهيم يقف أمامه محنى الرأس فى حيرة لا يدرى إن كان العجوز مريضا أم أنه ينصب فخا لمعرفة ولاء الآخرين !

يتركه ليتفقد السواحل بين الإسكندرية ودمياط ويأمر بمضاعفة التحصينات . ثم يذهب إلى حضن زوجته خوشيار بالقاهرة ، ويقاوم تحريضها له بأن يطلب من السلطان فرمانا بتعيينه واليا ، خائفا من أن يستعيد والده قوته فجأة وينكل به !

رأته الوصيفة ثريا يبصق دما من فمه . أمرتها سيدتها بألا تحكى ما رأته لأى إنسان ، لكنها حكت لزوجها الشاطر فحزن على قائد الجيش وتوجس خوفا على مصر عندما يحكمها عباس . إبراهم مريض بداء الرئة أيضًا !

تحت الحاح خوشيار الزوجة الخائفة الطموح عرض إبراهيم نفسه على الطبيب كلوت بك ، فصارحه بأن حالته خطرة . ومع ذلك خاف أن يسافر إلى تركيا لطلب الفرمان . ثم حطت الكوليرا بشرها على الديار ، فاتخذ منها عذرا ليسافر ، وأخذ معه نوبار ، متوقعا رفض الأتراك وهو الذى دحر جيوشهم حيثما لاقاها وهدد عاصمتهم . لكنه ذهب وعاد وقد انتزع الفرمان وصار والى مصر ، وظل نومه متقطعا ، وضحاياه من القتلى يزورونه كلما نام !

ابتهجت خوشيار ، وتمنت لونال فرمانا ثانيا يجعل الوراثة لابنها إسماعيل . لكن إبراهيم ما زال يتعذب ويبصق الدم . البراز بالدم والبصاق بالدم . مع ذلك احتفلت بعد انتقالها إلى قلعة الحكم ووزعت الهبات على حشمها وخدمها . ونالت ثريا وولدها ثروت أكبر نصيب .

وكان إبراهيم قد ألحق الجلف عباس بقافلة صغيرة من الحراس ، حملته منفيا إلى بلاد الحجاز . قال له أنت ممثلى فى مكة ، فأمضى أيامه هناك ينفث حقده الدفين فى سباق الخيل والهجن . مع ابتعاده أظهر إبراهيم عشقه بالمتنزهات . ردم بركة الأزبكية وحولها إلى حديقة غناء بعبق الزهور الفيحاء .

بمرور الأسابيع انحدرت صحة محمد على . بمرور الشهور صار كهلا بلا ذاكرة معظم الأيام . ذهول ونسيان ، يحدق فى وجوه ألصق الناس إليه ولا يتعرف عليهم . طاردته صيحات الرعب فى مذبحة القلعة ، أشباح قتلى السودان وفلاحى مصر . صراخ المخوزقين فى القاهرة وسنار ، غرقى حروب اليونان قتلى بر الشام والأناضول . شم رائحة احتراق ابنه إسماعيل فى شندى بالسودان ، وعطن رمة ابنه طوسون المنتفخة بالطاعون القديم . تذكر ضحايا الحجاز وعبد الله بن سعود الكبير الذى أرسله إلى الأتراك أسيرا فعلقوه على باب همايون حتى الموت ، ولم يكن هذا ذنبه !

كان جالسا فى قبة الهواء بالقلعة فسمع عواء ذئاب الليل ، ذئاب الأرض الخلاء أو كهوف تل المقطم . حدق وقال : هذا زمن التهام النعاج ولن أكون نعجة . وقف وملأ صدره بالهواء ،غلب الطبع التطبع وانطلق يعوى عواء الذئب . ارتجف الحراس وشهروا السلاح ، رأوا منه الجنون فلمعت دموعهم فى العيون . مرت به لحظات تنبه فوقف يتباهي بأنه مازال يسيطر على خمسة ملايين مصرى ، وأنه حفر المصارف وطهر الترع ونفذ المشروعات العظام ، ومعظم القناطر الخيرية ومصانع الغزل والنسيج وتبييض القطن ، والجوخ والحبال والطرابيش والسكر ومسابك الحديد وألواح النحاس ، وغرس أشجار التوت والزيتون والخشخاش . وأنشأ مدينة الزقازيق .

يتذكر أنه لم يعد الوالى فيضيع التنبه ويعوى ، ويسمع أنين المسخرين بالسياط . يفيق لحظات فيزهو بأنه مازال المهيمن على السودان ومنشيء مدينة الخرطوم وبلدة كسلا ، وأنه سيزيل الجنادل كى يصلح النيل كله للملاحة . يحط الظلام فيتألم وهو يرى قوافل المخطوفين من بقاع إفريقيا ، وأبناء الفلاحين صرعى فى بلاد بعيدة يكسوها جليد الشتاء . يظل يعوي فى عتمة حوش القلعة حتى يأتى من يكتِّفه ليعطيه أطباؤه مخدر البنج الذى أحضره كلوت بك من أوربا .

* * *

أما إسماعيل فقد عاد من بعثة الأنجال وهو فى الثامنة عشرة ، ليسكن مع أمه والحاشية وثريا وثروت ، الذى سأله عن بلاد النمسا وفرنسا ، فحدثه عن باريس مدينة الفن والمهاويس . عرف أن حياة ثروت خالية من النساء فأسدل عينه اليمنى متعجبا :

– لو كنت معى يا ثروت فى باريس لعلمت أن البنات الملاح زينة الليل والصباح . سأعيرك جارية ، وستعمل معى فى أملاكى . نويت أن أشترى آلاف الأفدنة . يجب أن أنجز ذلك وأبى هو ولى النعم ، لا أمل لى فى حكم مصر ، لكنى سأحوز على أخصب الأطيان وأعظم القصور وأجمل الحسان !

بعد عدة شهور جاء الزمان بما لا يشتهى إسماعيل . فبينما الكهل المريض يهذى فى جنونه ، تدهورت حالة إبراهيم وصار فى النزع الأخير ، وسكرتيره نوبار يلازمه كل نهار .

فى يوم الوفاة بقى بالقلعة إلى أن حط الظلام ، فانسحب إلى داره . بعد منتصف الليل بحوالى الساعة جاء من يبلغه أن الوالى مات . هرول عائدا إلى القلعة . سمع الصراخ آتيا من جناح الحريم ، من زوجات المرحوم وخوشيار هانم وتابعاتها . تصور بعد إعلان النبأ الحزين أن علية القوم سوف يفدون ملتاعين . لكن أحدا لم يزعج نفسه ويأتى ، أكملوا نومهم وقد اختفى من الوجود الرجل الذى يخشونه !

طفرت دمعتان من عينيه ، القائد الذى أرهب الجميع لم يعد يرهب أحدا الآن . صدقت النبوءة القديمة ومات قبل والده . وصدقت نبوءة ثانية قالها عراف القصر العثمانى اللعين . عندما سافر نوبار معه إلى تركيا للحصول على فرمان التعيين ، كان إبراهيم قلقا ، وكان السلطان مترددا فى منحه الولاية ، كان يخشاه ويعتبره خائنا قديما وثائرا وخطرا بإمكانه إثارة المتاعب وقتما يشاء . غير أن كبير منجمى البلاط تشاور مع النجوم وأعلن إن إبراهيم سيموت قبل مضى ستة شهور . أكد ذلك طبيب القصر النمساوى لأن المرحوم كان يبصق دما من رئتيه المصابتين . فوافق السلطان على تعيينه واليا . فى اليوم التالى لصدور الفرمان غادر الأستانة . كان آخر ما قاله لمودعيه الأتراك : هل ترون هذه التلال والروابى الجرداء ، أنا ووالدى زرعنا فى مصر عشرة ملايين شجرة ، وأنتم هنا تدمرون ما منحكم الله !

وفى رحلة العودة الأخيرة ظل عصبيا دائم الصياح والتهديد . خاف أن يصل إلى مصر ويجد والده قد استرد عافيته فيقضى عليه . لكن العجوز كان فى أسوأ حال ، فبعث به إبراهيم إلى قصره بشبرا ، واستقر هو فى القلعة ضعيف النشاط . كلما تدهورت حالته بدا الارتياح على كبار المحيطين به المرعوبين دائما من صرامته . ثم اقتربت النهاية ، قابل مرارا ابنه إسماعيل مع خوشيار ، ظل يرفض مقابلة ابنه الآخر مصطفى فاضل ثم وافق . الآن لا يستطيع الرفض أو القبول . منذ ثلاثة أيام وهو يصارع الموت فى إصرار ، تتحرك شفتاه ويعجز عن إصدار الأصوات بسبب تهتك رئتيه . كان آخر ما قاله أنه سوف يبيع قطن أطيانه بسعر مرتفع !

أخفت الغيوم شمس اليوم التالى ، وتجمع رجال الأسرة والحاشية فى قاعة القلعة الكبرى . انزوى نوبار فى الركن البعيد كارها أحاديثهم الصاخبة وارتياحهم برحيل

سيدهم الصارم . فى شبابه كان قاسيا سريع الهياج وشرها فى جمع المال ، كان محمد على قد فرض ضريبة الفردة على كل فرد ، على الرجال والنساء والأطفال ، ونشط عماله فى تحصيلها بالسياط وبتر الأعضاء وأخذ الرهائن ، هاج الفلاحون وهربوا بالآلاف إلى فلسطين والشام ، فكانت إعادتهم من هناك أحد أسباب الحروب الأخيرة ، وفى إحدى الأيام توجه إبراهيم إلى المنصورة ، جمع المشايخ واستمع إلى تظلماتهم من الفردة الجائرة ، أراد أن يهدىء من سخطهم ويبرئ والده ، وكان معه المعلم غالى الجوهرى ناظر المالية ، فأشار إليه إبراهيم واتهمه بأنه صاحب فكرة هذه الضريبة وتحصيلها بهذه الوحشية . ثم أخرج مسدسه وقتله وسط الجمع المذهول . ومع هذا استمر تحصيلها حتى الآن وبكل الأساليب الفظيعة !

اقترب أحد رجال الحاشية متعجبا :

– أمرك غريب أيها الأرمنى ، أنت الوحيد الذى يبكى ، أكنت تحبه حقا ؟ ! أم لأن أسرتك تمرّغت فى خيراته !

استدار نوبار بجسده جانبا عازفا عن الرد .كان إبراهيم قد أصيب بداء الرئة عولج حتى خفّت آلامه ، ذات يوم زار حصون الإسكندرية متفقدا ، ثم عاد إلى القصر فى قيظ الظهر ينضح عرقا ، وجلس أمام نافذة فى مجرى الهواء يشرب الشامبانيا ، فعاد إليه داء الرئة وصار يبصق دما ، وينزل برازه ملوثا بدماء الدوسنتاريا !

فى جنازة البطل سار خلف النعش أخوه سعيد باشا ومجموعة قليلة من الفضوليين . تغيب الآخرون لأن مصر الآن بلا قبضة قوية ، محمد على فى هذيانه لا يدرى شيئا ، والوالى القادم عباس بعيدا فى مكة . مع تقدم سير الجنازة انفض المشيعون ، تسللوا واحدا تلو الآخر وركبوا خيولهم وابتعدوا!

عصر الألم قلب نوبار . أهكذا تكون نهاية إبراهيم ، ذلك العظيم الذى لقى الإجلال من الغرباء فى روما وباريس ، حتى الإنجليز رحبوا به فى لندن واستقبلته الملكة فكتوريا بكل احترام . أهكذا تكون نهاية البطل الذى ارتجف منه السلطان

محمود رعبا ، الذى طرق أبواب الأستانة فاتحا منتصرا ومشاعر أهلها تدعوه إلى دخولها كرها لحكم السلطان .. القائد الفذ الذى اكتسح بلاد المورة وشمال اليونان ، الذى أراد أن يدخل عاصمة السلطنة لولا اعتراض والده ، الذى ترك ذكريات تروى فى حلب وطرابلس ودمشق وصيدا والجزيرة العربية والخليج والبحر الأحمر ، الذى نجح فيما فشل فيه نابليون وفتح عكا ، الذى لم يحرق الزرع ولم يذبح المهزوم . هذا الرجل يفرح علية القوم برحيله وهم الصغار كالقمل .

لكن النواح فى قصر الحريم بالقلعة ظل متواصلا حتى المغرب . لطمت خوشيار وجهها وناحت مثل الفلاحة . شاركتها وصيفتها ثريا اللوعة والخوف . تعرف مثل سيدتها أن الوالى الآتى هو عباس عدو إبراهيم .

انفض الجمع وتأملت الأميرة الأرملة ولدها إسماعيل فى إشفاق :

– أبوك مات مسموما ، سمّه عباس حلمى !

– الأمير عباس فى الحجاز يا أمى !

– جواسيسه فى كل مكان . دس السم خادم أو طباخ أو جارية . يا ويلنا ياحبيبى . عباس حقود . لا تنسَ أن أباك نفاه من مصر ، وجدك مجنون !

بهت إسماعيل ، زاد ذعر ثريا . فكرت فى الانزواء بقرية تلة . سعت إلى لقاء الشاطر فوافق بعد إعفائه من الجيش . كان تخطى الستين وضاق بالجهادية والمدينة وحن إلى صديق عمره حتحوت ولم تعد للنساء عليه سطوة .

* * *

عاد عباس من منفاه على جناحى السرعة والفرحة . لقّب نفسه بالحاج عباس حلمى الأول . زار جده محمد على فى قصره بشبرا . كان العجوز بين صفاء الوعى ولماحية الجنون . هز رأسه فى ثقة :

– كنت أعرف أن إبراهيم سيموت قبلى . كان قاسيا معى ومع الجميع . عاقبه الله وأخذ روحه . لكننى والده وأطلب له الرحمة من الله .

- جئت يا جدى أطلب بركاتك . ذاهب إلى الأستانة لطلب فرمان الولاية . الفرمانات السابقة لاتحتم هذا ، لكن المرحوم سلفى زار السلطان !

- هو حبسنى هنا فلعنته . لاتكن مثله وإلا لعنتك . أنت لا تحترمنى يا ولد . كيف جلست واضعا ساقا فوق ساق أمامى !

- لكنى واقف يا جدى !

- منذ سنوات يا ولد بالديوان . فى عيد الأضحى . لم تقبل يدى . جلست دون إذنى واضعًا ساقًا فوق ساق !

يومها نهره وسأله بأى حق يفعل هذا ، فرد عباس :

- لأنى باشا ابن باشا حفيد باشا وأنت لست كذلك !

فأرسله إلى معسكر جهاد أباد تأديبا له . رضخ الحفيد كارها . وذات صباح جفل حصانه من دق الطبول ، فوقع أمام العسكر . نهض هائجا وأمر بتكتيف الحصان وجلده مائة جلدة !

قال عباس مترفقا :

- يا جدى الحبيب ، أنت سيدنا دائما !

لكن العجوز لم يكن معه . شرد مبتسما إلى ابنته المحببة إليه . فى بداية مرضه كان يزورها فى بيتها ويبقى معها بعيدا عن نواهى الأطباء . فى كل مرة كانت تقدم له الفتيات الجميلات وتعطيه عقاقير مقوية تعينه على كبر السن !

فى الأستانة قوبل عباس بالحفاوة . على عكس إبراهيم الذى قوبل بفتور !

وبعد موت الذاكرة مات الجد ورحل الكبير محمد على فى جنازة حافلة[1] .

---

(١) تولى إبراهيم فى إبريل ١٨٤٨ ومات فى نوفمبر فتولى عباس . فى العام التالى مات محمد على .

على نقيضه سار الحفيد . ألغى المدارس وانتخب بعض تلاميذها فى مدرسة وحيدة سمّاها المفروزة . أغلق المصانع الحربية وفصل آلاف الجنود !

كان هذا من حسن حظ الشاطر ، أفلت من الجهادية ، حمل قليل المتاع تأهبا للرحيل إلى الصعيد .

قابل زوجته ثريا للوداع . اغرورقت عيناها وهى تعده بترك خدمة الأميرة واللحاق به . تركها فى رعاية ثروت ثمرة حبهما . بينما هو على الباخرة النيلية أحس الندم وتمنى لوعاد إليهما .

لكنه عندما سار على الطريق المؤدى إلى قرية تلة أرض الأحباب أحس الصفاء ، ثم الهناء والأهل يغمرونه بالحب . ابنته بهية وزوجها إدريس وابنهما أمشير المولود في شهر الأعاصير والذى بلغ السادسة من عمره، طه وبدور وابنهما . بدر وزوجته وطفلتهما ريحانة .

علمت زهرة أن زوجها المارق عاد ليبقى فمنحته بسمة تسامح . مرت أيام قليلة واحتفلوا بختان أمشيرمع خمسة من أقرانه . أكلوا لحما مسلوقا وثريدا وأرزا باللبن . صدحت الزغاريد والنايات . وحتحوت مسترخ قرير ، والشاطر يفكر فى زوجته الثانية ثريا وابنه ثروت .

أما ثريا فقد رأت أن من قلة الأصل ترك خوشيار فى تلك الملمة . والأميرة الأرملة تبكى بطلها وتصر على أن عباس حلمى سمّه . ازداد رعبها من أفاعيله . ضبط إحدى جواريه تدخن فى جناح الحريم فاتهمها بتقليد الفرنجيات وأمر بحياكة شفتيها . استعاض عن الجيش بستة آلاف غلام مليح من أجناس الأرناء ود جعلهم حرسه الخاص وسلحهم بالمسدسات ، فبثوا الرعب وارتكبوا القبائح فى طرقات القاهرة ، يختار منهم كل ليلة اثنين يشاركانه الفراش . وبدأ يتخلص من رجال محمد على وزوجها إبراهيم فصاروا فى ذعر من الاغتيال أو النفى إلى أعالى النيل . ثم أرغم عمه وولى العهد على البقاء بالإسكندرية لايغادرها . اشتط وحاول قتل عمته نازلى هانم المعروفة بالأميرة زهرة باشا فهربت إلى الأستانة !

فلما أكد إسماعيل لأمه أن البصاصين يتتبعونه كلما خرج من القصر استرابت فى جميع الطواشية والخدم والجوارى . ضاع منها الأمان فأخذت ابنها وثريا وثروت وبعض من تثق فيهم ورحلت بهم إلى الإسكندرية لتركب البحر إلى شاطئ البسفور !

على سطح الباخرة ، ومراجلها تهدر ودخانها الكثيف يتبدد استردت خوشيار أمانها . وجلست ثريا إلى جوارها تراقب وحيدها ثروت وهو يتمشى مع إسماعيل ، ناهز العشرين ولم يتزوج . تمنت لو عثرت له على عروس مناسبة من أسرة تركية . هو الآن يجيد التركية والفرنسية وبعض الإنجليزية ، حمدت ربها أن الباخرة تبتعد بهم عن رعب عباس وإن كان أحزنها عدم تنفيذ وعدها للشاطر باللحاق به !

* * *

حط ليل القاهرة وخلت الطرقات للكلاب والبصاصين . اطمأن عباس على نمره ، وامتطى جواده الأصيل هابطا به إلى المدينة النائمة ، تصحبه كوكبة من غلمانه الألبان بمسدساتهم . توجه من فوره إلى دار قنصل الإنجليز ، الذى كان بثياب البيت ، توجها معا إلى غرفة النوم حيث المدفأة . كان عباس قد تعرف عليه قبل موت إبراهيم . رآه مخنثا متصابيا تخطى سن الغلمان بكثير ، فى البداية نفر منه لأنه إنجليزى ثم جاءه خاطر فاختلى به ولاطه إذلالا للتاج البريطانى !

قال عباس :

– أنوى الاستقلال عن تركيا فهل تساندنى بريطانيا العظمى ؟

رد القنصل على الفور :

– سوف أقنع حكومتى بأن تمدك بالعون والحماية . اعتمد علىّ يا عزيزى !

– أنت أفضل من قنصل فرنسا الباهت . قال أستشير حكومتى ولم يرد حتى الآن !

دنا عباس منه راضيا ، وكانت نيران المدفأة تتأجج . بعد ساعتين غادره وتوجه إلى مأمور الضبطية . أرسل من أيقظه وأنزله . أمره من فوق صهوة جواده النافر أن

تضايق شرطته الأجانب من المرابين والقوادين والخمارين حتى يغادروا البلاد ، وأن تحترم فقط العاملين منهم بعقود مثل الأطباء والمهندسين والضباط . ثم انطلق بغلمانه تشيعهم كلاب الحى !

وكان فى قصر الخرنفش عندما جاء قنصل فرنسا ومعه رجل كهين طالبا مقابلته ، فقيل له بأن عليه أن يطلب موعدا مسبقًا وأن يأتى بالثياب الرسمية التى يرتديها فى بلاده عندما يقابل وزيره . صعق القنصل وذهل نوبار الذى صار من معاونى عباس لأن محمد على وإبراهيم كانا يقابلان الأجانب فى كل وقت للاطلاع منهم على مايدور فى أوربا . قال الوالى الجديد :

– أنا وزير ابن وزير حفيد وزير ولست تاجرا ، ولن أجعل من قصرى مقهى !

خرج القنصل بعد أن طلب موعدا ، جاء فيه بزيه الرسمى ومعه الرجل الكهين ، وقال بعد انحناءة دبلوماسية :

– مواطنى هذا معه كمبيالة على المرحوم جدك بمليون فرنك فرنسى !

– جدى لا يفعل هذا يا صاحب السعادة !

– مواطنى محترم لا يكذب .

– مواطنك أفاق وابن فاعلة ، وأنت مرابى مرتشى !

احتج القنصل مهددا برفع قضية تعويض وإنزال علم بلاده من فوق القنصلية . أدرك عباس أنه يختبر صلابته ، نهض إلى الستار الخلفى وعاد ممسكا بنمره . تراجع القنصل ومرافقه ذعرا . شيعه عباس صائحا :

– انزل رايتك وامسح بها مؤخرتك !

بعد أيام جاءه قنصل الإنجليز المخنث بأبهته ونياشينه ، ليقول فى وقار :

– علمت يا مولاى أن الفرنسى فرديناند ديلسبس بعث برسالة عن طريق قنصل هولندا ، يقترح على سموكم حفر ترعة بين البحرين الأبيض والأحمر . وحكومتى تنصح سموكم بعدم قبول المشروع لما فيه من ضرر على إيراداتكم وزيادة لنفوذ فرنسا !

ربت على رأس النمر الراقد عند قدميه :

– نحن لم نطلب نصيحة حكومتكم . أما عن الترعة فنرفضها لأن المرحوم جدنا سبق ورفضها ، واختار مشروع القناطر الخيرية .

– أشكر سموكم . تعرف حب حكومتى لكم . سفيرنا بالأستانة هو الذى أقنع السلطان بسرعة تعيينكم . مصر تربح من مرور بضائعنا ترانزيت عبر أراضيها بين ميناءى السويس والإسكندرية . لكن الرحلة شاقة طويلة ، لهذا نقترح ربط الإسكندرية بالقاهرة بالسويس عن طريق خط حديدى . سيذكر التاريخ أنكم أول من أنشأ السكة الحديدية فى الشرق وفى جميع ولايات الإمبراطورية العثمانية ، وسيجعل هذا الخط رحلتكم إلى مقركم الصيفى سهلة . دعنى أطلب من مستر ستفنسون تنفيذه ، وهو أكبر من أى تعريف ، إنه مخترع القاطرة .

– أعرف أنكم أقمتم أول خط حديدى فى العالم بيد لنون وليفربول ، وأعرف أنكم أقنعتم المرحوم جدى بإقامة الخط الثانى بين الإسكندرية والسويس ، حتى إنه أوفد بعثة إلى أوربا لجلب المعدات اللازمة ، ثم توقف المشروع بسبب فرنسا . أقوى دولتين فى العالم تلعبان لعبة القط والفأر . مبدئيا أنا موافق وإن كنت أتوقع معارضة الجناب السلطانى تحت ضغط فرنسا طبعا !

– لا تدعه يتدخل فى شئونك الداخلية . كن مثل جدك وعمك . نحن نساندك .

– لن أكون نعجة السلطان !

– الآن انتهى العمل يا أميرى .

ضحك عباس هازئا . صرف حاشيته بإشارة . مد يده يداعب وجنتى القنصل ، ثم صفق طالبا غلاميه الأثيرين عنده ،عمر وصفى وشاكر حسين . دخلا وكأنهما حسناوان ، قدمهما له فى برود :

– قارن بين نضارتهما وبيد سحنتك الصاقعة !

– العبرة بالخبرة . لماذا لا نجتمع الليلة عندى ، نحن الأربعة ؟!

صرفه دون التزام بوعد ، وصرف الغلامين ، تجهمت ملامحه غما واستدعى سكرتيره نوبار وقال له :

– أنت مسافر إلى الأستانة للزواج ، هل أحسنت الاختيار ؟

– العروس من أسرة معروفة هناك ، وتجيد عدة لغات مثلى .

– على بركة الله . أنت الآن فى الرابعة والعشرين من عمرك ، تأخرت كثيرا . اسمع يانوبار بك ، أريدك أن تقوم بمهمة هناك .

اختفت ابتسامة السكرتير . أوضح عباس :

– بعض الاتصالات تجريها قبل العرس . ألست متحمسا لإنشاء السكة الحديدية فى مصر ؟

– إنها فكرتى .

– فكرة الإنجليز ، لكن السلطان يرفضها . إننى أرفض تدخله فى شئونى ، وفى نفس الوقت لا أريد إغضابه ، سأنفذ نصف الخط فقط بين الإسكندرية والقاهرة . هو يريد إعادة هيمنته على مصر ، يريد أن يعود الدفتردار مسئول مالية مصر تابعا لوزير الخزانة التركى ، وأن تخضع قواتى رأسا لوزير الحربية فى الأستانة . يريد سلب الاستقلال الذى ناله جدى وعمى . أنا المقصود بهذا . يظننى أضعف منهما . سمعت أن بريطانيا تسانده . بمجرد وصولك إلى الأستانة ، وقبل أن تشاهد عروسك ، أريدك أن تنقل إلى الباب العالى رأيى . قل لهم أن ولاياتهم الأخرى جرداء خربة ، ولو كان جدى حكمها لصارت مثل مصر تتمتع بالرخاء ، وعليهم ألا يسعوا لجعل مصر بغداداً أخرى مخربة !

– سأبذل كل جهدى يا سمو الأمير .

– سوف أهديك هدية الزفاف بعد عودتك ، وإن وفقت فى المهمة لك منى مكافأة كبيرة !

سار نوبار عدة خطوات مترددة ، ثم عاد يقول :

– تعرف ياسمو الأمير أن الأدب والوفاء يحتمان عليّ دعوة أفراد الأسرة المقيمين بالأستانة .

– ادعهم إلى الزفاف فقط لكن لا توطد علاقتك بهم . هل أنت فى حاجة إلى المال ؟

نفى ذلك بوجه محمر وكان محتاجا . ثم انصرف منفعلا . سوف يتجنبهم طبعا ، فهذا الباشا عجيب ، رغم انزاوئه فى قصوره يعرف جميع ما يجرى هنا وبالأستانة . ومشروع السكة الحديدية سوف يفيد التجارة . محمد على طوّر الخط الملاحى من الاسكندرية إلى القاهرة ، جعل الصنادل مقطورة بالزوارق البخارية ، فاستعادت مصر الطريق الذى فقدته قبيل الغزو العثمانى ، وتحت نظام أمنى صارم . كان التجار الإنجليز ينتظرون عاما كاملا كى يتسلموا ردا على رسائلهم إلى الهند ، بفضل هذا الخط قصرت المدة . حتى إن المرحوم إبراهيم لقى خلال رحلته إلى بريطانيا أعظم الاحترام . بفضل السكة الحديدية ستقصر المدة أكثر . محمد على هو صانع مصر الحديثة . كانت تشرف على النقل مصلحة ترانزيت عمالها من الانجليز ، تحين أول خطأ منهم وطردهم بعد تعويضهم ، وأحل محلهم عمالا مصريين ، فأصبحت مصرية منذ عام ١٨٤٥ ، مصرية منذ أربعة أعوام . لو امتد العمر بمحمد على ما كان أفراد أسرته لجأوا إلى الأستانة . كانوا يهابونه أكثر من السلطان ذاته !

* * *

كل هذا يحدث بينما إسماعيل مع أمه وثريا وثروت وبعض الحاشية بالأستانة . يخرج معظم الأيام وحيدا إلى زيارات غامضة . فى بعض الأمسيات يصطحب معه ثروت للتسكع فى أنحاء المدينة .

ذات عصر لطيف اجتازا حى « جلطه » هناك . وجدا شارعا طويلا هابطا فى التواء ، زاخرا بالملاهى وباعة الحلوى والجزارين والمقاهى الأفرنجية . سارا يهبطان بمشى يشبه الجرى حتى وصلا إلى سوق الفاكهة ، حيث سلم خشبى نازل إلى رصيف الميناء بمدافعه الستة ، والتى تنطلق لتحية البواخر الوافدة والإعلان عن موعدى الإفطار

والإمساك فى شهر رمضان . كانت مياه الخليج ساكنة ، تفصل بين أجزاء المدينة ، حيث القرن الذهبى ومرفأ الأساطيل . وقوارب طويلة رفيعة تنقل الناس بين ضفتى آسيا وأوربا ، قمصان ملاحيها حريرية بأكمام طويلة .

نبّه إسماعيل أخاه فى الرضاعة ثروت :

– لا تلتفت وراءك . مازال جاسوسا السلطان خلفنا . يسمون الجاسوس هنا خفيّة ، كبيرهم سر خفية !

– منذ متى يرصدون حركاتنا ؟

– منذ وصلنا الأستانة

– كل هذه المدة ولا تنبهنى !

ضحك إسماعيل :

– كى تتصرف بشكل طبيعى

استقلا زورقا إلى الضفة الأخرى . تبعهما أحد الجاسوسين فى زورق آخر .

تجاهلاه وصعدا سلم المرسى إلى سوق السمك ، ثم إلى السوق المصرية التى يباع فيها التوابل والأصباغ . تظاهر ثروت بتأمل البيوت الخشبية وسأل عن الجاسوس الثانى .

قال إسماعيل :

– ذهب يبلغ عن مكاننا الجديد . لا تشغل بالك . السلطان راض عنى . منحنى رتبة الباشوية كما تعرف ومنحنى منصبا ساميا دون عمل ، هو يريد كسب ودى كى أكون رجله فى مصر إن عدت إليها . سأجعلك الآن تشرب من مياه النيل .

– هنا فى الأستانة !

– هذا سر آخر أخفيته عنك كى لا يغلبك الشوق إلى مصر وتطالب بالعودة إليها !

سبقه إلى ميدان فسيح ، إلى الدكاكين المخصصة لبيع المياه المستوردة . يبيعونها فى زجاجات مختومة . مياه من نهر الدانوب المالحة بعض الشىء ، ومن نهر الفرات المخضرة اللون ، ويظنون أنها تفيد فى حالات الضعف والوخامة . أغلاها وأفضلها مياه النيل لأن السلطان لا يشرب غيرها ، يأتون بها من الإسكندرية كجزء من الجزية ، ويظنون أنها ذات فوائد جنسية للرجال !

استمتعا باحتساء زجاجتين ، وأمامهما النساء بحبرات خضراء أو بنفسجية ، وخمار حريرى ينسدل على كل وجه . من الجانب الآخر يطير الحمام بالمئات من أفنية المساجد ليحلق فوق الميدان والمقاهى وحوانيت المجوهرات ، والبرج المطل على المدينة . يبتعد أحيانا ليحط فوق السراى القديمة بجدرانها العتيقة حيث تسكن أم السلطان . قال إسماعيل :

– غدا يزورنا نوبار

– أهو هنا ؟ كم من الأسرار تحجبها عنى !

– جاء يتزوج من فتاة أسرتها ذات صلات مهمة هنا . سيكون زفافه حافلا . أرسل إلينا يطلب الأذن بالزيارة لدعوتنا .

فى اليوم التالى زارهم . استقبله إسماعيل فى ودّ . وترحم نوبار على أيام والده إبراهيم باشا . ثم دخل ثروت وأمه ثريا وقد أسدلت غلالة شفافة على وجهها . بعد دقائق احتسى فيها القهوة دخلت الأميرة خوشيار وقد غطت وجهها . جلست ثم رفعت الغلالة قائلة :

– أنت فى عمر ولدى يا نوبار . أهلا بك .

على الفور كشفت وصيفتها ثريا وجهها . تأمل نوبار جمال وجهيهما ثم غض البصر بسرعة ، ودعا الأسرة إلى حفل زفافه . ثم أجاب على أسئلتهم عن الأحوال فى مصر باقتضاب وحذر . قال إن عباس يسير على سياسة التدبير والتوفير ، وأنه بإزالة

أعباء الجيش والحروب انتظمت مرتبات الموظفين ، بعد أن كانوا ينتظرون أحيانا عشرين شهرا لتسلم مرتباتهم ، فوصفوه بأنه ضليع فى الإدارة .

صاحت خوشيار مستنكرة :

– عباس البليد ضليع فى الإدارة !

– لقد رفض فرض ضريبة جديدة ، وأخضع الضرائب الأخرى لقواعد فلم تعد خاضعة لأهواء حكام الأقاليم ، كما ألغى ضريبة الفردة الجائرة .

اغتاظ إسماعيل وقال :

– نوبار ، لجدى ووالدى أفضال عليك لا تنكر . حدثنا أكثر عن الأمير عباس .

– صموت حذر ، يستمد طاقته من داخله ، يستخلص استنتاجات كبيرة من تفاصيل صغيرة ، ويستنبط آراء مهمة من ملاحظات عابرة . قدراته كبيرة لا يمتلكها رجل عادى ، لكنها خطيرة ، فأى هفوة فى الاستنتاج تقوده إلى خطأ فى الحكم قد يتوقف عليه مصير إنسان !

كان نوبار يريد أن تكون زيارته قصيرة ، لكنهم استبقوه عدة ساعات اعتصروه فيها بالأسئلة . بعد انصرافه قال إسماعيل فى كمد :

– هذا الأرمنى الخبيث ، لم نخرج منه بالكثير . وضع ولاءه الآن فى خدمة سيده الجديد ونسى والدى ولى نعمته !.. سمعت أن خطيبته « فوليك هانم » متوسطة الجمال ، لكن والدها مقرب من السلطان عبد العزيز ، وفى سبيله إلى حمل لقب الباشوية الرفيعة !

كان حفل الزفاف فاخرا كما توقع إسماعيل . فانبهر ثروت وهو يرى القساوسة الأرمن بثيابهم الزاهية ، والشموع فى أيدى الصبية ، وأكبر حشد من رجال الأستانة ونائب السلطان والصدر الأعظم وبعض السفراء على رأسهم الإنجليزى والفرنسى ، وكثير من جواسيس الخفية . الجميع يعرفون العريس الذى عمل مع محمد على وإبراهيم ثم عباس .

انهالت عليه الهدايا ، وأهدته خوشيار هدية لائقة بالمثل فعل ابنها إسماعيل .

كانت ليلة حافلة بالجميلات من الأرمنيات والأوربيات والتركيات ، كرنفال أزياء وعطور ، ، ملابس غربية وتركية وعربية . وشدا المطربون . ليلة تذكرها ثروت مدة طويلة زاحمت ذكريات طفولته وصباه في مصر وحنينه إلى قرية والده الشاطر بالصعيد .

وهذا ما كان من أمرهم وزواج نوبار .

* * *

أما رفاعة الطهطاوى فكان قد أعاد طبع كتابه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريس » . غضب عباس وفكر أولاً فى اغتياله . ثم جعل العسكر يحضرونه إلى القلعة ويتركونه مدة طويلة فى إحدى الغرف . دخل عليه بعدها يسحب نمره المستأنس . أرعبه وهو يصيح فيه :

– ما هذا التخريف الذى سمعته ، تدعو إلى طبع الجرائد والتفسيح لحرية الأفكار ، وتريد وزارة متصرفة مسئولة أمام الأمة ، تريد أن أصبح طرطورا ! وتقول إن المسارح مثل المدارس ، وتحبذ تعليم البنات !

– لأن تعليمهن يا أفندينا يزيدهن أدبا ، ويزيل ما عندهن من طيش وسخافة عقل . بهذا يمكن للمرأة أن تمارس من الأعمال ما يمارسه الرجال وعلى قدر طاقتها .

– هذا فسق !

– عى العكس . إن الفراغ يشغل ألسنتهن بالأقاويل وقلوبهن بالأباطيل . العمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة . لكن يا مولاى معظم هذا أفكار مرسلة لم أضعها فى كتاب بعد !

– تتكلم يا شيخ رفاعة مثل رقعاء الفرنسيس . صدق من قال إن المتعلمين نصابون !

– من القائل يا ولى النعم ؟

– أنا وعندى الدليل . إن المتخرجين من مدرسة الطب البيطرى والمعينين فى تفاتيش حكومتى لمداواة الحيوانات تسببوا فى نفوق عدد كبير منها ، وفى موت الجوادين الكريمين الواردين هدية من حضرة شريف مكة لابننا الكبير . من هذا ترى أن كل المصاريف التى صرفها جدى عليهم ذهبت هباء ، فأمرت بإلغاء مدرسة الطب البيطرى ، ونزع جميع الرتب والنياشين التى نالها هؤلاء الدكاترة وفصلهم جميعا !.

– وماذا عن مبنى مدرسة الألسن ؟ إنها جامعة ذات نفع كبير .

– كانت صاحبة العصمة عمتى زينب هانم بنت المرحوم جدى قد طلبت قصرها ، فطردتكم منه إلى الناصرية . ثم إننى فكرت ووجدت أن السودان محروم تماما من المدارس فأمرت بإلغاء الألسن وإرسالك إلى الخرطوم لإنشاء مدرسة أولية بها !

أدرك رفاعة أن المقصود نفيه ، فخرج منكسراً تتعثر خطاه ، يترحم على أيام محمد على ،الجاهل نصير العلوم والمدارس والبعثات . عباس عاد لينتقم حتى من أهله . جعل الابن يتجسس على أبيه والأخ على أخيه والزوجة على زوجها . إن صلى فى جامع كان جميع المصلين من البصاصين . مسكينة مصر المحروسة ، تولى الأدنياء أمورها ، ساد الأغبياء أذكياءها . جزاء اللبيب النابه السجن الانفرادى من غير تحديد مدة ، أما الجاسوس الدخيل السارق السالب المختلس النهّاب هاتك الأعراض مطلق الرصاص على الضعفاء فعقوبته العفو عنه . كانت مصر أيام العزيز محمد على أمة حديد ، منه تصنع المدافع والمصانع ، صارت فى عهد عباس أمة الذهب ، يشترى به الذمم . عباس الجاهل أراد التوفير فى إتمام القناطر الخيرية ، فطلب من المهندس الفرنسى « لينان » أن يأخذ الأحجار من الهرم الأكبر . يريد أن يقلد قراقوش الذى أفنى أهرام الجيزة الصغار ليبنى سور القاهرة والقلعة ، لكن حمدا لله ، أقنعه لينان ان استخراج الحجارة من المحاجر أوفر من نقل حجارة الأهرام . حتى آثار الفراعين التى تعب رفاعة فى جمعها وصيانتها بمدرسة الألسن أهداها لأحد الأجانب !

ثم حدث أن نشب القتال من جديد بين تركيا والروسيا ، وعجز جيش السلطان عبد المجيد عن حسم القتال ، فاستدعى الصدر الأعظم الذى هو رئيس الوزراء ، وقال له :

- دبرنى أيها الصدر الأعظم ، وأنت بحال جيوشى أعلم !

- نفعل مثل السلاطين السابقين ، ونجلب من مصر العساكر الفلاحين .

شكره على هذا الرأى الرصين ، وأمر فجاءه كبير البصاصين الذى لقبه سر خفية العارف بكل همسة خفية . سأله عن مكان إسماعيل باشا فأجاب :

- عبر منذ ساعتين باب حى جلطة ومعه تابعه ثروت .

- أرسلْ من يحضره فورا .

عندما خرج سر خفية لتنفيذ الأمر كان إسماعيل وثروت يشربان زجاجتين من مياه النيل على مهل . لمعت عينا إسماعيل فى مكر وقرر اصطحاب زميله إلى حى الملاهى القريب العامر بالمراقص ، قال إنه للأجانب فقط وأن الشرطة تداهمه أحيانا للتأكد من عدم وجود أتراك . ثم سبقه قائلا :

- سأدخلك عالم النساء الليلة ، عار عليك أن تظل حتى هذه السن دون نزوة حريمية !

لكنه جمد فجأة وقد توقفت إلى جواره عربة بعجلتين ، مزركشة بشعار السلطان ، نزل منها شخص أخبره فى أدب أن الجناب السلطانى يريده . التفت إلى ثروت باسمًا وقال :

- يبدو أن أوان نزوتك الحريمية لم يحن بعد . عد إلى البيت وطمئن أمى .

ثم ركب العربة متحيرا ، تاركا ثروت فى شحوب الرهبة . تخلص من الرهبة وأسرع الخطو ليخبر الأميرة خوشيار ، رآها تبتهل إلى الله فشعر هو وأمه بالخوف !

أما إسماعيل فكان يعرف أن لفظ « السراى » لا يطلق فى الأستانة إلا على قصر السلطان الذى يسمى « ما بين » ، وأن كلمة « ما بين » أطلقت فى البداية على حجرة لها بابان ، أحدهما إلى جهة الحريم والآخر إلى جهة الخدم ، كان الناس يقفون فيها

إذا أرادوا عرض أمر على السلطان ، ثم صار القصر كله يسمى المابين ، وكل فرد من الحاشية يسمى ما بينجى !

وصلت العربة ودخلت من الباب المخصص لدخول السلطان والحاشية والملوك والسفراء عند مجيئهم رسميا . من نافذتها رد تحية الحراس . وبالداخل شاهد بعض الخمائل والأكشاك والمساجد الصغيرة ، والممرات المفروشة بالحصا الملون ، والطيور السابحة فى البرك الصناعية . ثم ترجل مارا من جوار حجرة بها موظف كتب اسمه ، ثم إلى جوار دائرة « الجيب الهمايونى » حيث المترجمين ، ثم إلى قاعة الضيوف ، فغرفة « الباش ما بينجى » الذى قاده إلى دائرة الياوران وسلمه لكبيرهم « الياور الأكرم » . بعد دقائق كان يحظى بشرف الجلوس فى معية السلطان عبد المجيد والصدر الأعظم ، وظل الياور الأكرم واقفا تزينه رتبة مشير !

كان السلطان فى بذلة إفرنجية ذات أزرار تصل إلى الرقبة ، وطربوش أحمر عليه شعاره السلطانى المرصع بالأحجار الكريمة . شاحب الوجه حزين النظرة ، ربما بسبب حربه مع الروسيا ، طويل الأهداب فى رقة . رحب بإسماعيل ثم قال :

– عباس حلمى باشا أرسل إلى صدرنا الأعظم يلتمس تغيير نظام وراثة الحكم ، يريد أن يكون ابنه إلهامى وليا للعهد بدلا من سعيد باشا أكبر أفراد العائلة سنا . لكنى رفضت وأشرت على الطلب بكلمة « دورسون » أى يحفظ .

راقب فرحة إسماعيل :

– أعرف أنك شديد الذكاء مثل المرحوم والدكم . هل لاحظت أنك متبوع برجلين خفيّة ؟!

– نعم يا مولاى .

– قصدى حمايتك . قد يرسل عباس باشا من يتحرش بكم !

شكره وهو على يقين من كذبه . واستمع إلى قراره بطلب عساكر من مصر للاشتراك فى حربه ضد الروسيا . أخفى سروره وقال :

– عباس باشا سرّح الجيش ، واكتفى بحراس من المماليك الأرناءود . لكن العساكر يمكن جمعهم من قراهم ، عندهم الخبرة القديمة من أيام أبى ، وفى أسابيع قليلة يستعيدون مهاراتهم .

أمر السلطان بإرسال فرمان إلى عباس يأمره بسرعة إرسال عشرين ألف مقاتل على مراكب حربية . وأسرع إسماعيل إلى قصره على ضفاف القرن الذهبى . وجد أمه فى غاية القلق . طمأن ثريا وثروت وصرفهما . ثم قال لأمه :

– سيكون لزاما على عباس الامتثال لأمر السلطان ، وسيكون لزاما على عساكره وبصاصيه التفرق فى أنحاء مصر لجمع الجنود المسرحين ، بهذا يقل عددهم بالقاهرة ، وتضعف الحراسة من حوله ، وهذه فرصتنا !

هبّت خوشيار فى نشاط ترتدى ثياب الخروج . بعثت من يخبر الأميرة نازلى هانم بتوقّع الزيارة فى خلال ساعة . وجعلت إسماعيل يأمر بإعداد المركبة الخاصة المطهمة ، التى تحركت بهما مسدلة الستائر . فى أقل الوقت كانا يجلسان إلى الأميرة نازلى يحتسيان القهوة السادة والليمون . رشفت هى قهوتها ثم قلبت الفنجان ، بعد دقيقة عدلته لتقرأ طالعها وسألت إسماعيل :

– كيف حال ابن الجارية ؟ ابنك ؟

– قصدك « شفق نور » هانم يا عمتى ، أظنه بخير . لا داعى لوصفه بابن الجارية ، هذا الوصف يغضب السلطان عبد المجيد ، لأنه وسائر السلاطين أبناء جوار !

– لأنهم ممنوعون يا ولد من الزواج الشرعى ، وهذه حكمة عثمانية ، كى لا تحظى أسرة الزوجة بامتيازات تثير غيرة العائلات الأخرى . ما اسمه ؟

– توفيق ، محمد توفيق . يغيظنى أن تعامل أميرات الأسرة أمه باحتقار !

– الأتراك أنفسهم عندما يغضبون على السلطان ينعتونه بابن الجارية . أهى تقرأ وتكتب ؟

– شفق نور ؟ لا أظن . كنت فى حالة ملل وضجر ...

– بلغتنى القصة . ذهبت إلى حمام الحريم تتفرج على الجوارى العاريات . خرجت هذه الجارية من بين البخار . أخذتها إلى فراشك . بعد ذلك نسيتها تماما ولم تر الولد إلا بعد ولادته بثمانية أيام . ما اسمها ؟

نفخ ضيقا . أجابت أمه خوشيار :

– شفق نور ، وأنا لا أحبها !

وضعت الأميرة نازلى الفنجان راضية عن طالعها ، ثم تحدثت فى موضوع اللقاء :

– ذلك المجنون عباس حلمي الذى أراد قتلى يبنى قصوره فى أماكن نائية عن العمران ، قصراً فى صحراء العباسية خارج القاهرة من ألفى غرفة ، وقصرا بالخلاء المجاور لمدينة بنها على النيل ، وآخر عى طريق السويس مثل بيت الغول يسميه دار البدر . لا يكون فى إحداها إلا مع مماليكه . لا ينام إلا وعلى جانبى سريره غلامان جميلان ، عندما يروح فى النوم يكون تحت رحمتهما تماما !

فرد إسماعيل كفيه متعجبا :

– أعرف ذلك . وبعد ؟

– ندس له غلامين غاية فى الحسن ، ندفع بهما إلى القاهرة ، نعرضهما للبيع ، يراهما وكيله فيشتريهما . ضربة خنجر فى قلبه تريحنا جميعا !

– عباس يا عمتى شكاك . لنفرض أننا عثرنا على غلامين مخلصين ، كيف نضمن أن يشتريهما وكيله ؟

ردت أمه :

– أنا أضمن . وكيله يتعامل مع ثروت النخاس . أنا أعرفه وثريا تعرفه وأطلقت اسمه على ولدها . إن أمرتها بالسفر إلى القاهرة نفذّت . أنا ربيتها وعتقتها وزوجتها

وأربى ولدها . ابحث أنت عن المملوكين ، ودع الباقى لأمك خوشيار . لا تنس عمك سعيد باشا بالإسكندرية . قد يساعدنا .

أومأ برأسه متذكرا :

– وإسماعيل صديق . نعم . إسماعيل صدِّيق أخى فى الرضاعة ، هو الآن مسيِّر ركائب عباس ، ومازال يتصل بى سرا .

– سيكون أكبر عون لنا بإذن الله .

* * *

كان إسماعيل يعلم أنه مراقب من جواسيس عباس بالأستانة . لم يستبعد أن يكون مراقبا أيضا لحساب إنجلترا وفرنسا . إستانبول تعج بالجواسيس من جميع الأجناس ، يتجسسون على الدولة وضيوفها . وهو بعد أن أعاد أمه توجه إلى المقهى المواجه لتكية الدراويش على المقهى جلس يفكر وهو يرشف القهوة ويدخن النرجيلة ، ويتأمل مواكب السفراء والأثرياء فى الشارع الكبير . نهض يمشى ومن ورائه المراقبان . مرت عربة نساء مذهبة تجرها الثيران . تمهل فى سيره ... ابتداء من التكية تمتد الحوانيت الأنيقة ، ثم فنادق إنجليزية وفرنسية وكتاتيب ومقاه . ثم منطقة القنصليات ، أضخمها القنصلية الروسية ، قصر ضخم من الحجارة يقع فى صرّة الضواحى الثلاثة ، غير بعيد عنها القنصلية الفرنسية . تذكر أنه مراقب فأسرع يبتعد عن جميع القنصليات ، إلى أن مرّ أمام قصر السلطان عبد المجيد الذى يبنيه ، والذى تكلف الملايين ولم يتم واستدان بسببه من بنوك الغرب ، فبدأ بذلك مسلسل القروض لتركيا !

اجتاز المسرح الإيطالى الذى يعمل يومين كل أسبوع ، والقاهرة محرومة من دار للأوبرا . ثم رأى بعض المنازل الأنيقة ، ثم الجامعة التركية والمدارس الخاصة ، فالمستشفى الفرنساوى . عند نهاية الشارع كان باعة المقليات والفاكهة والسمك . أخيرا بدأت الملاهى فى الظهور ، وكل ملهى يحتل مساحة كبيرة ، يباع فيها النبيذ الأبيض والأحمر فى أباريق ، وبها فرن كبير تطهى فيه المشهيات . دخل أولها واختار

مائدة منزوية قريبة من بعض الرواد اليونانيين ، عرفهم من طرابيشهم القصيرة . جلس يحتسى النبيد دون إسراف . لما طال الوقت به أحس مراقباه بالقلق فدخلا يبحثان عنه.

أشار لهما مبتسما . وقال يزيل ارتباكهما :

– من عطف عظمة السلطان أنه أمركما بحراستى . عظمته أخبرنى بذلك اليوم !

ثم أعطاهما بعض الليرات لإحضار كثير من أباريق النبيذ والمشهيات تكفى لعشرة أشخاص، حثهما على الشراب والأكل . بعد أن تخففا من حذرهما ، قال لأكبرهما :

– أريد كما أن تساعدانى فى شراء مملوكين للحراسة .

– أيشك سموك فى كفاءتنا ؟!

– أنا لا أشك فى كفاءة رجال الخفية . أريدهما لحماية من بداخل القصر . أريدهما غلامين أمردين غاية الحسن والصحة . تفهمان قصدى ؟!

ابتسم أحدهما للآخر . فقال ضاحكا :

– سأمنح كلاً منكما خمسين ليرة .

حدقا فى شره ، ثم تجهم أكبرهما :

– إن عرف سر خفية باشا أمر بقطع رأسينا !

– ستخبرانه بالطبع فى تقريركما ، فى هذه الليلة ودون إبطاء . وليكن لكل منكما مائة ليرة .

جذب أصغرهما كف إسماعيل مقبلاً :

– أعرف أين نجد طلب سموكم .

كان الليل قد هبط ، فأخرج إسماعيل مصباحا من الصفيح ، فرد ثنياته المطوية المصنوعة من القماش ، وضع شمعة وسطها وأشعلها . ثم انصرفوا وأنوار إستانبول تتلألأ من بعيد . شاهد عشرات المصابيح تتحرك فى حدائق الجبانات ، حيث يزور الناس موتاهم ويأكلون ويمرحون . وهناك فوق الخليج مصابيح السفن أعلى الصوارى ، تنعكس أنوارها على مياه القرن الذهبى الهادئة . أخذاه فى عتمة الليل من شارع إلى آخر إلى انحناءة ، حتى دخلوا أحياء المدينة الفقيرة ، فشم رائحة العطن ، ورأى الأطفال حفاة ، والبيوت خشبية مثل الأكواخ ، والبؤس فى كل مكان . قاداه إلى ما يشبه الزريبة ، حتى إنه خاف على حياته . لكنهم سرعان ما خرجوا من باب آخر ، وبدأت الشوارع تتسع ، إلى أن وصلوا إلى بيت قديم شبه مهدم ، وقال أصغرهما :

– سامحنا يا سمو الأمير ، جئنا عبر هذه الأحياء الفقيرة لاختصار الطريق .

فتح لهم رجل سلّط ضوء مصباحه على وجوههم ، تعرف على أصغر المراقبين فأفسح الباب ، وقادهم إلى صاحب الوكالة ، الذى أنصت ثم أمر بإحضار خمسة غلمان . تأمل إسماعيل اثنين منهما ، وبدا كما كان اختياره وقع عليهما . لكنه نهض معتذرا :

– ليس هذا ما أريد . ربما فى يوم آخر !

ومضى مسرعا والخفيان فى أثره . أمام باب قصره نفحهما أجريهما ، ودخل إلى الحديقة مبتسما وهو على يقين أنهما متوجهان مباشرة لتقديم تقريرهما إلى رئيسهما ، الذى رفعه إلى سر خفية ، الذى عرضه على الباش أغا ، حتى علم السلطان عبد المجيد بالخبر ، واندهش :

– لم أكن أعرف أن إسماعيل به هذا الداء ؟!

– لكنه لم يشتر يا مولاى ، خاف وغيّر رأيه !

بعد أسابيع جلست الأميرة خوشيار مع وصيفتها ثريا . تعمدت أن تفتح معها سيرة الشاطر زوجها . وفى ذكاء ملفوف راحت ترغبها فى زيارة مصر . نزلت دموع ثريا :

- يأتينى الشاطر فى أحلامى كثيرا . كم أتمنى أن أراه قبل أن ينفذ المكتوب . إن كان مازال حيا فأظنه الآن فى السبعين !

- إن كان على المال فسوف أتكفل به .

- أتريد مولاتى الاستغناء عنى ؟!

- ثريا يا حمقاء ! أنت فى مصاف أختى ومرضعة ولدى ، وسيبقى ابنك معنا .

- لكنها فرصته لرؤية والده !

- لا بأس إذن ، ليذهب معك .

فرح ثروت ، وظل ينزل إلى السوق لشراء الهدايا ، ويتجول فى المدينة لتوديعها . يوم الجمعة شاهد السلطان وهو فى طريقه إلى الصلاة ، كل أسبوع فى إحدى الجوامع . كان فى عربة مكشوفة بعجلتين يجرها جوادان، واحد وراء الآخر ، جوانب مظلتها من القطيفة المزركشة بالنقوش المذهبة . وتدفقت النساء لرؤيته .

على رصيف الفنار تأمل البواخر ، ومن حوله باعة الفطائر والفاكهة واليانسون المخمّر ، والأطفال بصحبة العبيد أو الخدم . توجه إلى غابة بيرا الشاسعة الهابطة نحو البحر ، عن يساره « بولوك درى » أو الباب العالى ، الذى تصدر منه الفرمانات إلى أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، فرمان يصدر من هذا المكان يعزل والى ويعين غيره ! .

على مدى البصر السراي الذى تنتهى عنده استانبول ، وبرج الفنار المرتفع وسط لسان البحر ، وفيما وراء ذلك جزر الأمراء عند مدخل بحر مرمرة . يتخلل هذه الغابة جبانة ذات شواهد رخامية بيضاء فى ارتفاع قامة الإنسان ، على رأس كل منها عمامة ، بعضها مطلى بلون الذهب ، والمهشم منها كان لعساكر الانكشارية الغلاظ الذين تمت إبادتهم ، فهشم الناس شواهد قبورهم !

جلس على مقهى يطل على البحر ، وإلى اليسار على الشاطىء نفسه القصر الصيفى للسلطان بأعمدته اليونانية العالية وأسواره المذهبة تلمع تحت الشمس . مع سماع عزف موسيقى المقهى تأمل الشاطىء الأسيوى المقابل ، هناك قصر صيفى آخر، يمتد جزء منه فوق المياه على أوتاد قوية ، وله حدائق هائلة ترتفع متدرجة إلى قمة التل . يمتلك السلطان قصوراً كثيرة ويبنى واحدا اقترض من أجله الملايين !

نهض يهيم دون هدف . اقترب من مسجد آيا صوفيا وتعجب من تقلبات الدهر . كان هذا المسجد أكبر كنائس الأمبراطورية البيزنطية ، التى حكمت الشرق كله حتى مصر ، إلى أن أخذ العرب منهم مصر والشام ، ومن بعدهم الفاطميون والأيوبيون والمماليك ، وأخذ الأتراك الباقى وهذ العاصمة القسطنطينية . فى هذه الساحة المسماة الآن أتيمدان مسلتان فرعونيتان من الجرانيت الوردى . كان أباطرة اليونان يقيمون احتفالاتهم هنا . فى وسط الميدان تمثال لثلاثة ثعابين متداخلة . والمؤكد أن الباب العالى وجامع آيا صوفيا والسراى تشكل منطقة خلابة لن ينساها .

وبداخل السراى توجد الآثار النبوية الشريفة ، أخذوها بعد هزيمة السلطان الغورى ، آخر السلاطين الجراكسة . خاف أن يستولى أحد الأمراء على ملك مصر فى غيابه ، فأخذ معه كنوز وغنائم سلاطين المماليك السابقين ، وتوجه لمحاربة الأتراك فى مرج دابق ، ليغنمها سليم العثمانى . شاهد إسماعيل تخت السلطان الغورى المرصع باللؤلؤ والياقوت ، وركابا من الزمرد كان المرحوم محمد على أهداه إلى السلطان السابق محمود . تنهد ثروت ، سيترك هذه المدينة الجميلة ، ذات الأحياء الفاخرة والأحياء البائسة ولكم يعز عليه فراقها !

فوق سطح الباخرة ، جلس ثروت إلى جوار أمه يتأمل طيور البحر فوق البوغاز ، والباخرة تبتعد عن الأستانة ، إستانبول ، القسطنطينية ، إلى أن اختفت الأرض . فشرد يتذكر محتاراً سلوك إسماعيل فى الأسابيع الأخيرة ، كثيرا ما أحس به يتسلل خارجا بالليل المتأخر ، لكن أمه أنكرت أنها لاحظت ذلك ، مع أن نومها خفيف . فمضى يشغل وقته بالقراءة ورعايتها .

بعد أيام بدا فنار الإسكندرية وعمود السوارى ، وجاء النورس يرحب بهم . بمجرد رسوّ السفينة غطت القوارب الصغيرة المياه حولها ، ورجالها يعرضون خدماتهم على الوافدين ، ويخطفون الحقائب متنافسين على حملها .

انزوت أمه به بعيدا عن التزاحم . أخرجت منديلا أبيض ظلت تحركه أمام وجهها فى عصبية ، حتى جاء كهل وسألها فى حذر هل هى ثريا هانم . تعجب ثروت ، سأله كيف عرفها ؟ ابتسم العجوز وقام بإشارة ، فجاء بعض الأتباع بالحمير ، امتطت هى واحدا ، وتبعها هو فوق آخر . بعد حين كانا فى بداية رحلتهما الشاقة إلى القاهرة ، بالقطار الجديد حتى كفر الزيات ، ثم بالنيل حتى بولاق ، وفيها قالت أمه :

– سوف نذهب أولا لتحية أحد الأصدقاء .

أخذته إلى دار ثروت النخاس . أمام الدار ابتسمت :

– هنا التقيت بأبيك وأحببته من النظرة الأولى ، لهذا سميتك على اسم هذا التاجر .

ظنها جاءت لأسباب عاطفية وذكريات قديمة .

رحّب بهما النخاس البدين ، وقد ازداد ترهلا بفعل السنين ، وإن بقيت نظراته نشطة لماحة . انتحت به ثريا جانبا ، لكن ثروت سمعها تقول :

– يأتيك غدا مملوكان اسمهما بشير ونذير ، اعمل على بيعهما إليه !

بعد يومين كانت مع ابنها فى قرية تلة تتأمل زوجها الكهل . كان بائسا حزينا لرحيل صاحبه حتحوت عن دنيا الفناء ، وحبيبة قلبه زهرة ، حبه الأول وزوجته الأولى . نزلت دموعه وهو يحتضن ثروت :

– الآن : اطمأن قلبى . يا ولدى لا تقطع صلتك بأهلك ، خاصة أختك بهية وزوجها إدريس ، أوصيك برعاية ابنها أمشير ، شكرا لله أنى رأيتك قبل ذهابى ، لم تعد للحياة طعم بعد رحيل حتحوت وزهرة !

بعد أيام مات قرير العين . وإذا بثريا تتحول أمًا للجميع . صارت تعد لهم الطعام من غير تذمر . من رأى نعيمها فى قصور خوشيار لا يصدق قناعتها بهذه الدار الريفية . حرصت كل شروق على زيارة قبر حبيب حياتها الوحيد الراقد إلى جوار حتحوت . وكانت تبتسم كلما سمعت الولد أمشير يقلد لهجتها لأخويه وهو يظنها لا تسمع ، لا يعرف أن هوايتها التنصت على الآخرين !

وسط حياته الجديدة نسى ثروت كل شىء عن المملوكين بشير ونذير ، إلى أن جاءت الأنباء بتولى سعيد باشا ولاية مصر ، بعد مقتل الحاج عباس حلمى الأول بخنجرى مملوكين اشتراهما حديثا !

(٧) كنت أناديه : حبيبى

اقتربت غبرة كبيرة من قرية تلة . انزعج الفلاحون ولم يكن الوقت وقت الضرائب ، انقشعت الغبرة عن ضابط وبعض العسكر وجواد مسرج بلا راكب . فى أدب غير معتاد سأل عن ثروت أفندى ، حيّاه فى احترام :

– تفضل معنا إلى المنيا . خير كل الخير يا أفندى . سمو الأمير إسماعيل باشا يريدك !

كان إسماعيل يجلس وسط حفاوة حكام المديرية من أبناء الترك والشركس ، وبعض الأثرياء من أبناء البلد . أخذ ثروت فى حضنه فى شوق واختلى به وسأله :

– طبعا عرفت بما حدث ، الرياح الآن فى صالحنا .

– سمعت عن قتل عباس على يدى مملوكين ، أهما المدعوان بشير ونذير ؟!

– كيف أعرف ؟! الشائعات الباطلة كثيرة . يقولون ، قطع الله ألسنتهم ، إن عمتى المحترمة نازلى هانم بعثت مملوكين جميلين إلى سوق النخاسة بالقاهرة ، اشتراهما وكيل عباس ، وأن المرحوم أعجب بهما وجعلهما من خاصته ، وبقيا عنده إلى أن حان الدور عليهما فى السهر إلى جوار سريره لحراسته وهو نائم . مضى الليل وخانتهما الشجاعة بسبب قوته وشدة بطشه ، خافا أن يقاومهما فتكون نهايتهما . ثم مرت أيام عدة استجمعا فيها إرادتهما ، حتى حانت نوبتهما التالية لحراسته ، ما إن راح فى النوم حتى انقضا عليه بخنجريهما فى قلبه ، مات دون صيحة واحدة . حدثت المقتلة فى الليل المتأخر وهو بقصره النائى فى بنها . عندئذ نزلا وطلبا من مشرف الإصطبل جوادين بحجة إحضار بعض الأشياء لسيدهما . من حسن حظهما كانا أسرع جوادين بالإصطبل مسرجين وجاهزين للانطلاق ، فانطلقا بهما عدوا إلى القاهرة ، ومنها إلى

الأستانة ، حيث أخذا مكافأتهما من عمتى نازلى هانم مع وثيقتى عتقهما . هذه إشاعة سمجة سمعتها على الباخرة . ويزعمون أن مشرف الإصطبل ليلتها كان أخى الآخر فى الرضاعة ، إسماعيل صدِّيق !

– إسماعيل صدّيق ؟!

– بعد أن تنبه مرافقو عباس ، بعثوا بأحد المماليك ليستدعى محافظ القاهرة إلى بنها ، إبراهيم باشا الألفى ، فذهب وأمر بإحضار المركبة الرسمية إلى مدخل القصر ، بمساعدة كبير الخصيان وضع جثة المرحوم فيها جالسًا كما لو كان حيا ، وجلس هو مواجهًا له بحسب العادة ، سارت المركبة إلى القاهرة يحيط بها الحراس بالأبهة المعتادة ، دخلا المدينة وقد جاء النهار . لم يشك أحد الناس فى الأمر ، إذ كانت من عادة المرحوم عدم الالتفات يمنة ولا يسرة ، حتى وصلا إلى قصره المسمى بالحلمية . ثم أمر الألفى الخائن بتصويب مدافع القلعة إلى المدينة الآمنة ، ونادى بإلهامى بن عباس واليا على مصر ، وبعث برسالة عاجلة إلى محافظ الاسكندرية يطلب منه الاشتراك فى المؤامرة . لكنه لم يطاوعه وتوجه إلى سراى عمى سعيد باشا بالقبارى ، وهو ولى العهد طبقا لقانون الوراثة ، وأراه الرسالة فشكره على إخلاصه . وذهب صحبته إلى سراى رأس التين وأعلن اعتلاءه للعرش ، ومن حوله جميع أفراد الأسرة الذين كان عباس حلمى قد حدّد إقامتهم . وهناك خابت مؤامرة الألفى وصار عمى والى مصر ، وأخى الأكبر أحمد رفعت ولى العهد . بعد عمر طويل إن تولى أخى الحكم صرت أنا ولى عهده[1] .

– عمى سعيد باشا طيب ، سريع الغضب سريع الرضا . قلت إن أمك بخير ؟ .. أمى مشتاقة إليها وتريدها بالقاهرة فورا . أما أنت فسوف تكون ضمن حاشية عمى والى مصر الجديد !

---

(١) وقيل كذلك إن إلهامى بن عباس تعقب هذين المملوكين ليثأر لوالده ، وأنه صرع أحدهما برصاص مسدسه فى الأستانة . بينما تمكن الآخر من الفرار إلى بلاد الأرناءود . قتل عباس فى ١٤ يوليو ١٨٥٤ . وقد أنجز الخط الحديدى من الإسكندرية إلى كفر الزيات فقط . وكان عمر سعيد باشا ٣٢ سنة وقتها .

– أفضل أن أعمل فى أملاكك ، وعدتنى بذلك .

– هذه وظيفة إسماعيل صديق ، هو جاهل يكاد يتكلم العربية ، وأنت تجيد اللغات . أريدك بالقلعة مع ولى النعم الجديد !

أسدل جفنى عينه اليمنى :

– أرض المنيا ممتازة ، لو صارت ضمن أملاكى لجعلتها تنتج أعظم المحاصيل . قد أبنى لى قصرا هنا . أسرع وأبلغ أمك برغبة أمى . أمرت بأن تكون مشيخة قريتكم لواحد من أسرتك .

استدار ثروت منصرفا . أسرع حسن باشا الشريعى عين أعيان الصعيد يودعه باليد :

– قل للأسرة الكريمة إننى فى خدمتهم دائما .

مع صباح ديك الفجر ودعت ثريا الأسرة متأثرة . عادت وصيفة كما كانت للأميرة خوشيار ، بقصر العباسية الذى بناه عباس بألفى غرفة . قررت أن تزوج ابنها الوسيم ، خلاصة حسنها وبهاء الشاطر ، سوف يعمل بالقلعة ، تخطى الثانية والعشرين ويرفض الزواج من بنات الترك . بينما إسماعيل فى نفس عمره ويمتلك عشرات الجوارى الحسناوات الشقراوات ملونات العيون !

أصبح إدريس شيخا لبلدة تلة الجديدة ، وطه شيخ الخفر . فرحت الأسرة لأن أبناء المشايخ لايجندون . سرعان ما خاب فألهم عندما أمر الوالى الجديد بأن يكون التجنيد إجباريا لمدة عام فقط ، لجميع الفلاحين وأبناء المشايخ !

وكان أمشير تخطى الثانية عشرة من عمره ، فتم أخذه إلى معسكر المستجدين وزجّه إلى البيادة أى المشاة ، حيث عمل سابقا جدّاه المرحومان حتحوت والشاطر !

بالمعسكر تعرف على شاب وسيم طويل القامة يكبره بنحو العام ، ابن شيخ قرية قرب الزقازيق بالشرقية ، اسمه أحمدعرابى ، كان يجيد القراءة والكتابة فجعلوه بدرجة

« بلوك أمين » . فوجئ رفاقه به يلتمس ردّه إلى صفوف الأنفار ، رغم أن المرتب أقل . سأله أمشير السر فقال :

– فرصة الترقى أمام البلوك أمين معدومة .

– وهل هى مفتوحة أمامنا يا أخى عرابى ؟

– لمن يجيد القراءة والكتابة نعم .

– أين تعلمت وعباس أغلق المدارس ؟!

– تعلمت القراءة بكتاب القرية ، ثم درست الحساب على يد عم ميخائيل غطاس الصراف ، مكثت تحت يديه خمسة أعوام ، ثم أربعة بالأزهر الشريف استظهرت فيها القرآن الكريم وبعض اللغة والفقه والتفسير ، قبل أن أتم دراستى جاءوا بى إلى هنا ، لأحظى بشرف التعرف على شخص كريم مثلك ، ومثل أخى هذا على الروبى ، هو من بلدة بالفيوم ، ومثلى نال حظا من التعليم ، بالكتّاب ثم بالأزهر الشريف ..

وهذا ما كان من أمر تعارف أمشير على عرابى وصاحبه على الروبى .

أما ثروت فقد صار من موظفى سعيد باشا ، ضمن قلائل ثقاة مهمتهم عرض وحفظ وتصنيف الرسائل الواردة من السلطان وقناصل الدول أو الصادرة إليهم ، كانوا جميعا يتقنون اللغات ومن سلالات تركية أو شركسية ، فازداد افتخار أمه ثريا به ..

ووقت الغداء أو العشاء كان إسماعيل يعرف منه أسرار القلعة . عرف أن الوالى أذعن لطلب السلطان عبد المجيد وأرسل مزيدا من العساكر المصرية للحرب ضد الروسيا ، رافقهم على مبارك ناظر مدرسة المهند سخانة[1] .

(١) كسب الأتراك هذه الحرب بمعاونة أساطيل بريطانيا وفرنسا . وعندما عاد الناجون القلائل أمر سعيد باشا بتسريح الجيش ورفت الضباط . كما أغلق مدرستى المهندس خانة وطب القصر العينى .

وعرف أن سعيد باشا سيسافر إلى الإسكندرية يوم الخامس من نوفمبر ليكون فى استقبال صديق قديم له اسمه فرديناند .

حل هذا اليوم الموعود ، المحفوظ فى لوح الغيب المرصود ، وفيه اتسعت ابتسامة سعيد فى شرفة سراى رأس التين وهو يرقب بمنظاره وصول باخرة فرنسا ، ومحافظ الإسكندرية يصطحب فرديناند إلى زورق كبير أفسحت له جميع القوارب ، اخترق الماء مسرعا بتجديف ثمانية بحارة أشداء .

رسا الزورق بمرسى السراى ، ليندفع الفرنسى إلى حضن الوالى العريض ، تبعته إمرأة آية فى الجمال ومهرج مشهور إسمه بارافاى !

بعد حديث قصير بالفرنسية صعد الضيوف إلى جناحهم فى رعاية الخدم والجوارى . اغتسل ديلسبس بالماء الساخن ونزل ليجد وليمة فاخرة فى انتظاره ، وقد سبقته المرأة والمهرج .

بعد شبع البطون جلسوا يتسامرون . تحدث سعيد باشا عن رغبته فى تكوين أسطول جديد تسير مراكبه بالبخار ، لأنه أمر ببيع القديم عديم الفائدة كأخشاب . انبهرت المرأة الفاتنة وهتفت بالفرنسية :

– رائع !

– تأمل بعض ثدييها ثم التقط تفاحة قضمها وقال :

– شاءت إرادتى أن أتم الخط الحديدى بين القاهرة والاسكندرية ، وآخر إلى السويس ، وربط المدن الثلاث تلغرافيا على النظام الحديث بدلا من النوع العتيق الحالى ، وسوف يكون على النيل عند كفر الزيات صنادل قوية عليها قضبان حديدية تعبر القطارات فوقها إلى الدلتا ، هذان الخطان سوف يسهلان طريق الإنجليز إلى الهند ، فيقفون أولا فى المدن الثلاث ونقبض نحن رسوم الترانزيت ، مشروع ناجح وعبقرى !

امتقع وجه ديلسبس :

– لن يكون آخر مشاريعكم العبقرية يا سمو الأمير .

استأذن لينام آخذا معه المهرج ، وأمواج البحر قرب الشرفة تلطم الشاطئ وترتد ، وبقيت الفاتنة تؤنس ولى النعم وتشاركه التهامه الفواكه !

ثم إن الباشا أيقظ ضيوفه قبيل الفجر وجعلهم يفطرون . أهدى ديلسبس جواداً كريما ، وصحبهم جميعا إلى خارج المدينة ، للقيام برحلة صيد صحراوية عبر الفيوم وهم فى طريقهم إلى القاهرة ، تحت حراسة عشرة آلاف ضابط وجندى بخيولهم ومدافعهم ، هم بقايا جيشه !

خارج سور المدينة ، التفت ثروت يودع الإسكندرية ، الأحياء الشعبية أزقة فوّاحة برائحة السمك ، وأحياء الفرنجة طرق وميادين ، ومع ذلك يسيرون مشمئزين من ترابها ووحلها ، لكنها بلدة المال السهل ، الحلال والحرام ، منذ سنوات هربوا إلى بلادهم من مضايقات شرطة عباس ، ثم عادوا بعد مقتله ليفتحوا المحلات والكازينوهات والمحالج ، دور القمار والفنادق وبيوت الدعارة . تدعمهم امتيازات الأجانب من ولايات السلطان ، الخلافات التى تنشب بينهم وبين المصريين تقع ضمن الاختصاصات المحلية ولكن بشرط حضور مندوب القنصلية . يشكو المصرى إلى مدير المديرية الذى يرسل إلى القنصلية طالبا مثول مندوبها مع الأجنبى فلا يحضران . يرسل الشكوى إلى نظارة الخارجية التى تتصل بالقنصلية دون جدوى ، فتحال إلى الوالى الذى لا يشغل باله بشكاوى مواطنيه !

وهنا بالإسكندرية صارت منطقة ميدان محمد على مقصورة على القناصل وأصحاب البنوك والمرابين والتجار ، والسماسرة الإنجليز والفرنسيين ، وتجار الشرق المراوغين . والوالى البدين ليس قويا مثل أبيه ولا عدوانيا مثل عباس ، مجرد التهديد بإنزال العلم القنصلى كاف بأن يهزه . ويحيط نفسه بالأجانب الذين يتقنون فن النفاق والدعابة . فى القلعة رأى ثروت القنصل الفرنسى يأتى بتاجر يونانى على أنه وجيه أمثل يحظى بالحماية الفرنسية ، وأن محمد على قبل أن يموت أعطاه كلمة شرف بمنحه امتياز نقل البضائع فى ميناء السويس ولم ينفذ وعده لمرضه ثم موته ، لهذا يطلب له القنصل تعويضا ثلاثة ملايين فرنكا . بدلا من أن يطرده سعيد باشا أمر بالدفع له . رأى امتعاض ثروت ونوبار فقال :

– القنصل ساباتييه لص مرتشى ، وهو الآن يقستم المبلغ مع اليونانى الأفاق . ابن الزانية يأتى كل عدة أيام ومعه حثالة مواطنيه طالبًا تعويضًا لهم عن سرقات مزعومة تعرضوا لها . أنا وآلاف غيرى سرقنا فى عاصمتهم باريس ولم نأخذ فرنكًا واحدا تعويضًا !

ألمح نوبار فى حذر :

– لكن الأجانب الذين تملكوا أرضا يتهربون من سداد ضرائبها ، وكانوا يدفعونها بانتظام مثل الأهالى أيام المرحوم والدكم !

– السلطان يحظر علينا دخول بيوتهم إلا بحضور القناصل

– كل واحد أحاط أراضيه وقصره بسور واحد ، كى لا نستولى على المحصول سدادا للضرائب ، وهذا تحايل سوف يؤدى إلى نضوب موارد البلاد !

– اسمع يا نوبار . اهتم أنت بإنشاء السكة الحديدية ولا تحدثنى ثانية فى مثل هذه الشئون الإدارية التافهة . لست مثل عباس . أنا قائد عسكرى لا أهتم إلا بالشئون الحربية !

وهنا فى قصر رأس التين كان معه أحد القناصل فى السلاملك ، لاحظ سعيد أن النوافذ المطلة على البحر المتوسط مفتوحة ، فصاح ساخرًا :

– من فضلك يا جناب القنصل ، ضع قبعتك فوق رأسك وإلا أصابك الزكام ، فتهب دولتك المحترمة وتطالبنى بدفع تعويض !

وبعد انصراف القنصل التفت إلى ثروت هازئًا :

– أخشى أن ينظر جوادى شذرًا فى طرقات الإسكندرية إلى أحد الفرنجة فيسرع ويطالبنى بدفع تعويض !

يعرف أنهم يسرقونه ولا يقاوم !

تحرك الركب الكبير يتقدمه سعيد باشا منتفخًا مثل قائد عسكرى مغوار . صدر سترته مزدان بنقوش مثل غصون لها أوراق ، وعلى الكتف شراريب سمكية مذهبة ، وحول عنقه شريط معلق فيه قلادة ذهبية ، وحول وسطه حزام عريض مزركش يتدلى منه السيف !

توغلوا فى الصحراء حتى حان موعد الغداء ، فأناخوا البعران والجياد ، وجلس جنود المشاة يريحون أقدامهم . سرعان ما نصبت الخيام للسادة . وجلس ديلسبس والمرأة والمهرج يأكلون على مائدة ولى النعم . بعد الاستراحة تابعوا المسير إلى وقت الغروب . فنصبوا الخيام من جديد ، وبقى بعض الجنود والضباط سهارى للحراسة ، وقد أضاءت المشاعل والمصابيح الصحراء ، وسعيد باشا يتسامر مع ضيوفه ، قال ديلسبس :

– أنا منبهر بمشاريع سموك العظيمة !

– نسيت أن أخبرك عن ترعة المحمودية ، أعدت تطهيرها وتعميقها . كان إنشاؤها عام ١٨١٨ فكرة رائعة من المرحوم والدنا . مات فى حفرها اثنا عشر ألف فلاح خلال عشرة شهور ، لكن الأرض التى كانت على جانبيها تحولت إلى مزارع خضراء وأشجار عالية تغرد فيها الطيور . الأن بعد أن طهرتها عادت اليها المراكب والصنادل . طهرتها فى اثنين وعشرين يوما فقط بواسطة مائة وخمسة عشر ألف فلاح ، دون أن يموت أحد ، لأنى صرفت لهم الغذاء والأدوات ، ولأنهم أحسوا أن الترعة تفيدهم .

على سيرة الترعة خفق قلب ديلسبس بشدة . ومن أجل التسلية أمر الوالى فرسانه بالتسابق ثم التبارز ، فأدوا ما يعرفونه من مهارات ، ثم أشار إلى صخرة مرتفعة وأعلن عن جائزة لمن يقفز فوقها . منهم من جفلت خيولهم وحرنت ، ومنهم من حادت أفراسهم عن المسار راكضة من جوار الصخرة . وإذا ديلسبس ينهض ويركب جواده الذى ناله هدية ، ويبتعد ثم يستدير عدوا وينجح فى تحقيق القفزة ، فصاح سعيد باشا متباهيا :

- مسيو ديلسبس هو الذى علمنى ركوب الخيل عندما كان مساعد قنصل فى زمن أبى .

تعدد الترحال وحط الرحال . كلما اصطادوا غزالاً ذبحوه وأكلوه مشويًا . والمهرج يفلح فى إضحاك ولى النعم ، والمرأة تنبهر بكلامه وتكرر بالفرنسية كلمة رائع باستمرار ، ثم رفعت الكلفة وصارت تقبل وجنتيه أمام الحاشية وهو يقهقه . بينما ديليسبس يتحين الفرصة لعرض مشروع فى رأسه . حتى استيقظ ذات فجر ورأى الشمس عن يمينه تشرق بجلال روعتها ، وشاهد عن يساره غيومًا ملبدة تملأ أفق الغرب البعيد ، وتراءى له فيها قوس قزح بألوانه السبعة . فعقد العزم وقرر الانقضاض فى أول فرصة ، التى جاءته عندما أحس سعيد باشا بالملل فأمر بحط الرحال ، وجعل ضباطه يتنافسون فى إطلاق الرصاص على هدف بعيد . طاشت رصاصاتهم . فنهض ديلسبس وتناول بندقية ودقق التصويب وأصاب الهدف ، لأجل أن يتم المكتوب . فقال لنفسه : سوف أصيب هدفى المحسوب !

انحنى للمصفقين ورد تحية ناظر المالية بالفرنسية . ثم أخذ المهرج والمرأة إلى خيمة الوالى . ساد الهدوء أرجاء المعسكر ، ومن فتحة الخيمة راقب الفرنسى غروب الشمس ، وقال :

- أنا منبهر يا مولاى بسرعة تنفيذ مشروع ترعة المحمودية .

ضحك سعيد متباهيًا :

- ليست الترعة فحسب ، فبمحاذاتها قام الفلاحون بتعبيد طريق عرضه عشرة أمتار وبالحجارة المدكوكة . سوف يذكر التاريخ لى هذا الانجاز . صدق المرحوم والدنا عندما قال أن سبب نعمته هم الفلاحون ، من بعد عظمة السلطان طبعًا !

- هناك يا مولاى مشروع ترعة أخرى سوف يجعل العالم المتمدن يشيد بهمتكم ويحبكم للعمران ، ترعة سوف تكون فريدة فى نوعها ، أو بالأصح قناة !

استدار له فى فضول ، قال :

– قناة تصل البحرين الأبيض بالأحمر .

– هذه رفضها أبى وأخى المبجلان !

– تخيل يا مولاى أى أثر عظيم يمكن أن يتركه حكمك ، وأى مصدر للخير والنعيم يمكن أن يحققه مشروع القناة . إن أسماء الملوك العظام الذين بنوا الأهرام ما زالت حتى الآن مجهولة ، أما اسم مولاى الذى سيوافق على شق القناة فسيبقى خالداً قرناً بعد قرن ، وتنبهر به قريبتى الإمبراطورة أوجينى وزوجها نابليون الثالث الذى أتشرف بأن أكون كاتم سره .

جلس المهرج على حافة سجادة الخيمة . رسم فى الرمال خريطة إفريقيا قائلاً بين الهزل والجد ، والباشا لا يتوقف عن التهام الفواكه :

– مراكب تدور حول إفريقيا ، خطأ ، مراكب تسير فى قناة سعيد باشا ، صح . مولاى يقبض رسوم مرور السفن بكل لغات العالم ، أقصد بكل عملات الدنيا ، صح !

تأوهت المرأة بالفرنسية :

– رائع . أشاهد التاريخ يصنع أمامى الآن . رائع !

نكش ثروت فى الرمال ، من أجل هذا جاء الفرنسى بالمرأة والمهرج : سمع سعيد يأمر حاشيته بالاقتراب ، فجلسوا أمامه طائعين ، تزحزح ثروت يقترب . قال ولى النعم :

صديقى الموقر وأستاذى فى السباحة وركوب الخيل يريد عقد قران بين البحرين الأبيض والأحمر . ما رأيكم ؟

نظروا إلى صديقه بعيون المحبة والمبايعة . صاحت المرأة :

– أنا أفهم نظرات الرجال ، طبعا موافقون ؟

قال ناظر المالية :

– وهل من يجيد الرماية يخطئ يا مولاى ؟!

رفع الآخرون أيديهم إلى رءوسهم علامة الموافقة . فالتفت الوالى إلى صديقه فى تساهل :

– أقنعتنى بمشروعك . سنبحث كيفية تنفيذه فيما تبقى من هذه الرحلة الميمونة .

على قدر فرحة ديلسبس كان قلق ثروت ، حتى إنه لم يشعر بانصراف الجميع . لمحه سعيد باشا فأمره بالاقتراب :

– ثروت أفندى ،على عكس الجميع أراك حزينا . تكلم . معك الإذن .

– يا ولى النعم ، هذه الترعة سوف تحفر بعيداً فى الصحراء . سوف تحرمنا المكاسب الوفيرة التى نأخذها من اجتياز البضائع والركاب أراضينا ، والتى سوف تتضاعف مع انتهاء السكة الحديدية من إسكندرية إلى القاهرة إلى السويس . هذه الترعة ستعزل سيناء عن مصر ، وأمن مصر يبدأ من سيناء !

صرفه مكتئباً . طفح الحقد من عينى ديلسبس . استنكرت المرأة تحرشه :

– هذا الشاب الصغير ، إنه ليس مهندساً!

– ليس مهندساً مثل ديلسبس يا عزيزتى ، هو أخو إسماعيل باشا نجل البطل إبراهيم باشا .

اعتذر ديلسبس بسرعة :

– آسف يا سمو الأمير ، لم تكن تعرف أنه من الأسرة الكريمة !

– أخوه فى الرضاعة مثل إسماعيل صديق .

* * *

متردد الخطو تقدم ثروت إلى فندق شبرد قرب الأزبكية ، بناء ضخم من طابقين ، نوافذ عالية وشرفات لغرف فسيحة تطل على مربع ، تتوسطه حديقة من اللبلاب والنخيل . فى هذه المنطقة عاش بونابرته وقتل كليبر ، هنا كانت مدرسة الألسن جامعة

رفاعة الطهطاوى ومتحفه المصرى ، الآن فندق باسم الإنجليزى شبرد . وفى أعقاب الرحلة الصحراوية نزل ديلسبس فى قصر الضيافة الذى كان مقراً لعلماء الحملة الفرنسية ، فى أيام معدودة فاز بوثيقة تأسيس قناة السويس ، استهلها الوالى البدين بكلمات الحب الخالص : « إلى صديقى المخلص سليل المجد ذى المكانة الرفيعة » . قرأها ثروت فاغتاظ من تفريط سعيد باشا ، مدة الامتياز ٩٩ سنة تبدأ من تاريخ فتحها . لماذا ؟ لأن صديقه مسيو فرديناند ديلسبس وجه نظره إلى الفائدة التى سوف تعود على مصر من وصل البحر الأبيض بالأحمر بترعة تستطيع السفن الكبيرة اجتيازها ، ولأن حضرته أعلمه بأن فى الإمكان إنشاء شركة مالية لهذا الغرض يكون أعضاؤها رجالا ماليين من جميع الأمم ، لهذا نظر الباشا إلى الاقتراح بعين العطف !

مغتاظًا صعد ثروت المدرج إلى شرفة عريضة رطبة مسقوفة ، أرضيتها من المرمر . عبرها إلى بار المرطبات المؤدى إلى غرف الطعام . فى كل مكان النزلاء الأجانب وعدد قليل من لابسى الطرابيش ، وكما توقع كان إسماعيل باشا مع فتاة إنجليزية ، يتغزل فى حسنها بإنجليزيّة ركيكة يمزجها بالفرنسية التى يجيدها ، وهى تتأمله مأخوذة بالذهب فى أصابعه وأزراره وساعته وسلسلتها . لمح ثروت فأشار إليه . قدمه إلى المرأة على أنه أخوه . بقيت تنقل نظرها بينهما وهما يتحدثان بالعربية . شكا ثروت من وثيقة القناة . غازل إسماعيل المرأة بعبارة سريعة ، ثم رمقه وعينه اليمنى شبه مغلقة :

– أيها الجاهل بالسياسة . لن يوافق السلطان لأن حكومة هذه المرأة لن توافق . لابد أن ديلسبس يحقد عليك الآن ، هذا النوع من النصابين يكره الأذكياء ويحب البلهاء . بلغنى أن أمك تريد تزويجك . دعنى أهديك عروسا شركسية !

رد ثروت فى عصبية :

– سأتزوج عندما يشاء الله .

– تأنف من أخذ امرأة من بعدى ! .. نسيت أن بك عرقا صعيديا ، غداً أهديك جارية تكون ملكك . ما رأيك فى شريهان ؟ بيضاء شقراء حسناء صغيرة لم تحبل قط .

– شكرا . سامحنى . لا أريد .

– أتحب أن تصعد مع هذه الإنجليزية الظامئة إلى غرفتها ؟

محرجًا انصرف ثروت . ولم يرسل له إسماعيل الجارية شريهان لشدة بخله !

فى الشهور التالية وصلت الجرائد الإنجليزية والتركية ، مليئة بمقالات الهجوم على مشروع القناة . نشط المترجمون فى تلخيصها ، ومع ذلك لم يهتز سعيد باشا ، السلطان عبد المجيد يدين له بالجنود المصريين الذين نصروه فى حربه . إنجلترا ليست الأسد الوحيد فى غابة الدول ، سيلجأ إلى نابليون الثالث إمبراطور فرنسا ، ويوسطه لدى السلطان ليوافق له على حق بناء سفن بخارية تعويضًا عما غرق لمصر فى حروبها من أجل تركيا ، وحق تعيين قاضى القضاة لأن الذى يرسله الباب العالى يتعاطى الرشاوى عند تعيين نوابه فى أنحاء مصر ، فيستعيضونها من رشاوى المتقاضين !

لهذا بعث بإسماعيل إلى باريس ، فأولمه الإمبراطور وليمة حافلة ، واستمع فى تأدب إلى مطالب سعيد باشا ، ثم وعده بالمساندة فى مؤتمر باريس . شكره إسماعيل وهو يعلم أنه لن ينفذ وعده ، لأن هذا المؤتمر ستحضره الدول التى ساعدت السلطان ضد روسيا ، وهى تريد الثمن لنفسها ، والإنجليز يرفضون ترعة ديلسبس الفرنسية ، وجرائدهم تدعى الإنسانية والطهارة ، وتتهم عمه بأنه سوف يسخر المصريين بالسياط فى حفرها !

تخلص إسماعيل من هذه الأفكار ليركز اهتمامه بجمال الإمبراطورة أوجينى وعطرها ومجوهراتها ، تمنى لو طال الليل ودام الحفل ، تمنى لو أضافها إلى حريمه . لكن الحفل انتهى ، وصعدت الشمس وغربت كثيرًا ، وعاد إلى مصر ليحضر حفلاً

آخر ، فبعد أن طاف بأملاكه وعاين الطلمبات التى اشتراها ، اختار هدية تليق بابنة سلميان باشا الفرنساوى بمناسبة زفافها إلى محمد شريف باشا ، ربيب جده .

حضر حفل الزفاف جميع القناصل وزوجاتهم والأمراء والأميرات وأعيان المصريين ، وقد سبقتهم هداياهم . وتألق الحفل بحضور سعيد باشا وحاشيته ، والذى داعب شريف باشا قائلاً :

- عظيم أن نناسب فرنسا من خلالك ، أنت درست فن الحرب هناك ، وترقيت إلى مرتبة يوزباشى فى الجيش الفرنسى ، وعملت فى هيئة أركان حرب حماك ، وهذه هى النهاية السعيدة !

ضحك والد العروس . وبينما التخت المصرى يستعد لتقديم الوصلة الغنائية ، قال إسماعيل لثروت :

- العريس وحموه من صنع جدى ، العريس كان أبوه التركى قاضى القضاة .

- وطبعًا تعاطى الرشوة ؟

- الرشوة للعثمانى كالماء والهواء ، كان شريف صبيًا عندما رآه جدى فتعهد وأنفق عليه ، ولما كبر ألحقه ضمن بعثة الأنجال . أما والد العروس فتعرف أنه الكولونيل سيف الذى أحضره جدى لينشئ جيش الفلاحين !

تركه وجال يرحب ويبتسم ويجامل الحاضرين ، حتى انتهت وصلة الغناء الرتيبة . وأكل الضيوف وشربوا وسكروا . ثم عاد إلى ثروت موبخًا:

- مازلت مكانك وحيداً . ذكرنى أن أرسل لك الجارية شريهان هدية .

بدأت الفرقة الأجنبية تعزف ، فبدأ المدعوون ينهضون أزواجًا للرقص . وأخرج ثروت ورقة من جيبه قدمها لإسماعيل :

- أحضرت لك تفاصيل امتياز ديلسبس . هذا الرجل نصاب !

– أهذا وقتـه ؟ أهذا سبب كدرك ؟ يا أخى تأمل الجمـيلات من حولك ، قد تفوز بزوجة قنصل أو ابنة باشا أو حتى أميرة بلهاء !

لكنه فرد الورقة . سرعان ما اغتم . من حق الشركة التى سوف تنشئ القناة حفر ترعة عذبة تتفرع من النيل وتصب فى القناة . تنازلت الحكومة مجانًا عن جميع أراضى القناة والترعة وتوابعها بعرض كيلومترين على كل جانب ، ولو أراد مزارع الرى من الترعة العذبة دفع ثمن المياه للشركة . ولها أن تستخرج من المناجم والمحاجر الأميرية ماتحتاجه للمشروع دون مقابل . وفى جميع الأحوال لا تدفع جمارك أو عوائد أو رسوم . وتقدم الحكومة أربعة أخماس العمال من المصريين .

رفع عينيه مغمومًا . قال ثروت :

– عفوا يا سمو الأمير ، لكن السيد نوبار كان على حق عندما قال عن سعيد إنه ولد ليدمر وليس ليبنى !

– الأرمنى قال هذا ؟ هل أنت معجب به ؟ أنالا أرتاح إليه ! .. وإن كان عمى البدين بالفعل غبيًا . إنه لا يصلح ... لكن الفاتنة التى هناك تصلح لإزالة الكدر . من أتى بها من القناصل ؟ من العار تركها وحيدة .

بقى ثروت مكانه وحيدًا . بعد حين جاءه حسن باشا الشريعى عين أعيان الصعيد . داعبه .

– أمامك أجمل ما فى الحياة من نساء وشراب وطعام وغناء ورقص وتقف منزويًا حزينًا !

– أهلا حسن باشا . أنت أيضًا لا تشارك . كيف حال المنيا ؟

– أسرتك وقرية تلة جميعها بخير .

تتابعت الأسابيع وجاهرت الجرائد الإنجليزية تتهم سعيد باشا بممارسة تجارة الرقيق والسخرة . ورسموه على هيئة نخاس بدين متوحش بيده سوط يضرب به رجالاً ونساء ناتئى العظام . غضب ومزق الجريدة .

– أنا هذا ؟!.. أنا أصدرت أمرا يلزم كل سيد بأن يحرر عبيده إن طلبوا ذلك ، العبيد رفضوا ، خافوا من البطالة . ما ذنبى ؟ العبيد والجوارى هنا من أفراد الأسرة ، ليسوا أذلاء مثل عبيد أمريكا . ثم إن معظم تجار العبيد من الأوربيين . أنا ضد النخاسة ، وتعليماتى مشددة لحاكم السودان بمنعها . أحضروا رفاعة بك الطهطاوى .

كان رفاعة بعد أن أعاده سعيد من السودان قد عمل وكيلا للمدرسة الحربية مع سليمان باشا الفرنساوى ، ثم صار ناظرا لها . فلما أتوا به سأله غاضبا :

– قل الحقيقة يارفاعة بك ، أحقا أن عمالى بالخرطوم يتاجرون بالرقيق .

– إنهم لايفعلون غير ذلك . حولوا الخرطوم إلى سوق نخاسة كبير ، ولهم عصاباتهم الخاصة تجوب بالأرجاء لاقتناص الأولاد والبنات البائسين من ذويهم . حتى ممثلى الحكومة الأمريكية هناك يشاركون فى تهريب العبيد مع أن حكومتهم ألغت الرق !

– سأفصل جميع الموظفين .. والآن يارفاعة بك ها أنذا أرد لك اعتبارك وأصدر أوامرى بإعادة فتح مدرسة طب القصر العينى ومدرسة الممرضات .

التقط موزة قشرها وهو يشكو لديلسبس :

– كل شىء من حولى يثير أعصابى !

– الحل بيد سموك . رحلة شتوية إلى السودان ، تتفقد الأحوال بنفسك وتبتعد عن الثقلاء ونتحدث معا فى شئون قناتنا .

صرفهم متبرمًا . وأرسل يستدعى أحد غلمانه المرد . فانسحب الموظفون والخدم فى صمت . توجه إلى غرفة الأوسمة والنياشين التى سبق إهداؤها لمحمد على أو عباس .

وجاء الغلام وأغلق الباب . بدأ سعيد يتخفف من ثيابه والغلام يحاكيه ، حتى تجردا تمامًا . اتجه الغلام إلى خزانة الأوسمة ، وتقدم يقلد وشاحًا لسعيد قائلاً فى أنوثة :

- أنا نابليون الثالث إمبراطور فرنسا أنعم بهذا الوشاح على والى مصر سعيد باشا !

قال الباشا وهو يسحب الغلام من يده :

- شكرا يا نابليون . هيا نوطد علاقة بلدينا !

فبرك الغلام راضياً . بعد أن انتهى سعيد منه جلسا يلتهمان الفاكهة ويحتسيان بعض الخمر . ثم قام سعيد فتبادل مع الغلام الوشاح والوضع !

* * *

مع بداية شهر يناير شدّ الباشا الترحال إلى بلاد السودان مصطحبًا معه ثلث جيشه . تحرك الجنود بالبر ، وهو بالبواخر النيلية مع مرافقيه ، ذو الفقار باشا وأراكيل بك شقيق نوبار باشا وثروت وديلسبس وآخرين وفرقة تمثيلية ، فى أسطول من عشرين باخرة آخر واحدة منها عبارة عن مسرح متنقل .

لم يسترح بالمنيا فلم يتمكن ثروت من زيارة أهله بقرية تلة . وفى كل ليلة وبينما يتناولون العشاء تقدم الفرقة بعض المواقف المضحكة والرقصات . بعد أيام توغلوا فى السودان وأحسّ ثروت أن ما يراه مألوف لديه ، رأى جميع ذلك فى حكايات الشاطر وحتحوت .

فى بلاد النوبة شكا الأهالى من فداحة الضرائب على السواقى . فى أرض قبائل الشايقية رحب به فرسانهم ونحروا الذبائح وتشاكوا من غلظة حكام الخرطوم الأتراك.

مروراً على بلدة بربرة شاهد سعيد القرى التى أحرقها محمد بك الدفتردار الذى كان زوج أخته زهرة باشا الشهيرة بنازلى هانم ، ولم يحاول أحد إعادة بنائها !

ثم توقف ببلدة شندى للترحم على روح أخيه إسماعيل فاتح السودان والذى أحرقه الملك نمر بعد أن أسكره . اجتمع من حوله أكثر من مائة ألف رجل فقال متردداً :

- بلغنى أن التركى الحاكم عليكم منذ عشرين سنة قد حبس عنده بعض الأفراد كعبيد وجلدهم ، إنه بذلك خالف أوامرى . أحضروه وأجلدوه مثلما فعل بهم !

فجأءوا بالتركى وقد قيدوه بالأغلال التى كان يقيد بها العبيد ، وطرحوه على بطنه وضربوه مائة جلدة بالسوط . عندئذ هتف الجمهور للوالى فتحمس قائلاً :

– هل ترون ذلك الحصن على النيل ، الذى شيده والدى منذ أربعين سنة ، اذهبوا وانزعوا مدافعه وارموها فى النهر !

اقترب منه ديلسبس هامسًا :

– إنك بهذا تذهب بعيدًا ، قد يستخدمونها ضدك !

– لا تخف فهى لم تعد صالحة للاستعمال . أعرف ذلك لأننى قائد عسكرى .

ثم نادى على الكخيا ، عبده اليونانى المختص بحشو البايب وراح يدخن مبتسماً .

فى الخرطوم اندفع مديرها التركى يرحب به ، خرّ راكعا يقبل حذاءه . رفسه غاضبًا :

– أيها النخاس اللعين ، لطخت سمعتنا عند الفرنجة . أمرت بعزلك وعزل جميع أعوانك الخنازير !

ثم جلس لاهثا . ضغط على بطنه الكبير بكفيه :

– أمرت بهدم زرائب الرقيق . أمرت باطلاق حريتهم وإعادتهم إلى قراهم !

وفى ليل شتاء الخرطوم الدافئ قال متأثراً وهويلتهم بعض الفواكه :

– آلمنى حال السودان . الظلم والبؤس فى كل مكان . أعترف أننا فشلنا فى إدارة هذا الإقليم الشاسع . كما أننا لا نجنى منه ماكنا نود ، لا ذهب ولا محاصيل جيدة . لقد فكرت وقررت إخلاءه وتركه لأهله !

سارع راغب باشا إلى استحسان الفكرة . تبعه بقية المرافقين مجندين ، ولم يتكلم أراكيل بك وثروت . لكن ديلسبس تنحنح ونصحه بالتروى :

- كيف تهرب سموك وأنت الأمير الخبير والقائد العسكرى ، عليك بوضع القوانين لإصلاح الأمور . إخلاء هذه البلاد البائسة يوقعها فريسة فى أيدى النخاسين ، وقد يجد أعداؤنا فى ذلك مادة للتشهير !

قرب الفجر استدعى الحكام الجدد وأخذ يوصيهم باللغة التركية :

- نفذوا مشيئتى بكل دقة . أحسنوا معاملة الأهالى . خففوا الضرائب عنهم . ممنوع تجارة الرقيق . ضعوا العسكر على نهر السوباط لقطع دابر النخاسين الملاعين !

قال لديلسبس بالفرنسية :

- اشهد على ذلك يا عزيزى . أبلغ مراسلى الصحف الأجانب بما رأيته وسمعت !

انسحب ثروت من القاعة . خرج يتجول فى المدينة . الخرطوم مثل قرية كبيرة . وفى الغرب البعيد قبائل الدنكا عشيرة إدريس ، صديق الشاطر وحتحوت . أغلب الظن أنه لحق بهما إلى دار البقاء ، وبمجرد رحيل سعيد باشا بوصاياه الطيبة سوف يمارس الموظفون الجدد تجارة الرقيق .

فى عودة الوالى البدين بجيشه ومرافقيه ، أسرع دون توقف إلا للنوم ، حتى دخل أسوان ، فاستقلّ الباخرة النيلية ، واسترخى فى غرفته ، تتبعه باخرتان برجال الحاشية ، وفى المقدمة والمؤخرة الغلايين المسلحة . كلما عبر من جوار قرية ساحلية رأى جدرانها مطلية بالجير الأبيض ، وأهلها على الشاطئ يهتفون له وهم فى ثياب جديدة !

سارت الباخرة وقتا طويلا فى محاذاة أملاك أخيه الأمير عبد الحليم ، حتى وصلت حدود مديرية أسيوط ، وكان مديريها فى الانتظار . صعد إلى الباخرة المرافقة . ارتاح باله عندما علم أن مولاه لن يتوقف إلا بمدينة أسيوط ذاتها . فوجئ به يتوقف أمام أول قرية تالية . لم يكن فى حرص المدير السابق فلم يأمر بطلاء الأكواخ . نزل إلى الشاطئ يلحق بولى النعم الذى سار متجهًا رأسًا بحاشيته وحراسه إلى القرية

البائسة . فزع الفلاحون من الحراس ، وولولت النسوة ولطمن ، جرى عدد من الفتيان يختبئون بين الزراعات !

دهش ديلسبس . اغتاظ سعيد . دنا منه ثروت محرجًا :

– اعذر جهلهم يامولاى . ظنوا الحراس قادمين لجباية الضرائب أو أخذ صغارهم للتجنيد !

– وهل زى حراسى الفاخر مثل زى عساكر الجباة ؟!

أشار إلى أحد الفلاحين . أحضروه إليه . رأى الفلاح زى المدير العسكرى فارتمى يقبل قدمه متوسلاً :

– ياجلالة المأمور الجديد . لسنا فى وقت جمع الميرى . المحصول مازال بالأرض . دع الأرض لنا . أولادنا يموتون جوعًا !

ارتبك المدير التركى . صاح سعيد فى الفلاح :

– تعال هنا يا ولد . أنا والى مصر . أنا أعين المأمير . ماذا تريد ؟

تجاهله الفلاح متوسلاً إلى المدير :

– دع الأرض لى ياجناب المأمور الجديد !

خلَّص المدير قدمه وأسرع ينزوى خلف مولاه . زحف الفلاح يقترب . احتار بينهما برهة ، ثم خاطبهما معًا :

– الرحمة يابكوات يرحمكم الله . ريع الأرض لم يسعفنى ، تأخرت فى السداد فنزع المأمور الأرض منى وأعطاها لمن برطله :

نهره المدير :

– احترس يا كلب !

زجر سعيد المدير :

– قال لمن برطله ، يعنى لمن رشاه . أعد لهذا الفلاح الأرض وقسِّط عليه الضرائب ، وعاقب المأمور المرتشى !

عاد مكتئبًا ساخطًا إلى الباخرة :

– هذا الفلاح الحمار يظن أن المدير أعلى منى !

ثم اختار قرية ثانية . ما إن رسا على برها حتى حدث رعب مماثل . بعد أن نجح فى استنطاق أحد فلاحيها عرف أن مأمور المركز الشركسى يخصص لكل أسرة مساحة يزرعونها ويحدد نوع المحصول ، ثم يشتريه منهم بثمن أقل من سعر الحكومة، وكان المعتاد أن تترك لهم زرعة الحبوب يقتاتون بها فصار يأخذها ، فإن احتاجوا لعمل الخبز باع الحبوب لهم بسعر مرتفع !

غضب أفندينا وأمر المدير بوقف هذا الظلم ثم صعد باخرته مهمومًا . فى الليل استدعى ثروت واثنين من خاصة حراسه ، أمرهم بأخذ خيول سريعة عفية والعودة جنوبا والتأكد إن كانت أوامره نفذت . استوقفهم وأمر بأن يذهب معهم أراكيل بك كى يكون التقرير دقيقًا . فنزلوا تحت جنح الليل لتنفيذ المهمة ، وفى الصباح تابع هو مسيره شمالاً إلى مدينة المنيا ، بعد عدة أيام وعدة توقفات رسا موكبه بثغرها قبل الظهر .

كان فى استقباله المديروالضباط والأثرياء وعلى رأسهم عين أعيان المنيا والصعيد حسن باشا الشريعى . بعد العصر وصل ثروت وأراكيل بك والحارسان . توجهوا رأسا إلى الأمير بوجوه عابسة . تكلم ثروت بصوت حزين موضحًا أن ما يجمع من الفلاحين يظل يتناقص من الصراف إلى المأمور إلى المدير إلى موظفى نظارة المالية بالقاهرة حتى يصل الخزانة ناقصًا النصف . ثم قال :

– بالنسبة للقرى المطلية بالجير من الخارج والجلاليب الجديدة فقد دفع الفلاحون ثلاثة أضعاف تكاليفها للمأمور هناك . بالنسبة للفلاح الذى ظن أن المأمور أهم من سموك فقد أخذوه من أهله وكتفوه وألوقه فى النيل للتماسيح . أما المأمور الذى يسلب

قمح الفلاحين ثم يبيعه لهم بأضعاف ثمنه فقد وضع الفلاح الذى فضحه فى جوال كبير ملأه بالجير الحي وألقاه فى النيل . أما ...

سكت وقد رأى مولاه على وشك القيء والبكاء ، حتى إنه عاف الأكل والشراب . وبينما هو فى خلوته سمع ضجيجًا فى الخارج . صرخ فى ياوره :

- قل لهؤلاء الخنازير أن يلزموا الهدوء .

كانت الضجة آتية من جهة البر . فلاح يصرخ طالبًا مقابلة الوالى والعساكر يمنعونه ويضربونه . وكان ثروت قد خرج يستطلع الأمر ، ما إن رأى الفلاح حتى هرول إلى الشاطئ يطلب من العساكر تركه . نظر إليه الضابط المحلى بازدراء ، أمر عساكره بالقبض عليه هو أيضًا ، لولا أن سارع حراس الوالى بإنقاذه . وكان سعيد باشا قد خرج غاضبًا . استدعى الجميع أمامه بما فيهم الفلاح . قال ثروت :

- يا ولى النعم ، هذا الفلاح اسمه أمشير . سبق له التجنيد فى جيش سموكم . جده لأبيه اسمه حتحوت ، جده لأمه اسمه الشاطر ، والاثنان خدما فى جيش ساكن الجنان محمد على باشا واشتركا فى فتح السودان ، ثم عملا بمعسكر جهاد أباد .

- عجيب ثروت أفندى ، كيف عرفت ؟

- أمه هى أختى من أبى الشاطر رحمه الله

التفت سعيد إلى مدير الإقليم :

- عائلة هذا الولد تعفى من جميع الضرائب لأجل سابق خدماتها لنا .

فوجئ بأمشير يقول :

- أعطنى يا مولاى ورقة مكتوبة .

- كلماتى نافذة لاترد يا ولد !

تذكر مصير الفلاحين السابقين فأطرق برهة وسأله عن شكايته . قال أمشير فى شجاعة بنى حتحوت :

- يا أفندينا المعظم ، عمالك يسخروننا فى زراعة أراضيهم وأراضى أصحابهم فلا نجد الوقت الكافى للاهتمام بزراعاتنا . الضرائب والرشاوى لاتطاق ، على الدار والماشية والضأن والنخيل . بعد كل العناء قد يطردنا المأمور إن وجد من يبرطله . يا أفندينا باشا إن لم نجد ما نأكله، كيف نزرع المحصول التالى ؟!

التفت سعيد إلى حسن الشريعى :

- يا شريعى باشا ، أسرة هذا الولد فى حمايتك ، أنت مسئول عنها .

- طوع الأمر يامولاى . اسمح لى أن أقدم لسموكم أحد خدامكم المطيعين ، محمد سلطان عمدة نزلة الأموات .

أشاح سعيد متشائماً . ارتبك الشريعى :

- إنها قرية واقعة شرق النيل يدفن فيها أهالى المنيا موتاهم .

أعطى سعيد ظهره لمحمد سلطان متطيرا قائلا لثروت :

- ذكرنى أن أرقى حسن باشا الشريعى وكيلا لمديرية بنى سويف .

ثم ابتعد عن محمد سلطان . فأخذ ثروت ابن أخته أمشير فى حضنه وحمله التحيات العطرة إلى جميع الأهل .

وكان الغداء شهيًا أحضره المدير من دار الشريعى . ثم واصلت الباخرة رحلتها ودخل سعيد لينام بينما بقى ثروت مع أراكيل بك الذى قال فى حسرة :

- كنت أمتلك خمسة عشر ألف فدان هنا وفى بنى مزار ، وأخى نوبار باشا عشرين ألفا بالفيوم ، ثم فقدناها بأمر المرحوم عباس باشا !

فوجئ بالدهشة على وجه ثروت فقال :

- كيف لا تعرف وأهلك يعيشون هنا ؟ منذ أيام المماليك والأرض مملوكة للدولة ، يلتزم شخص كبير بدفع ضرائب آلاف الأفدنة ، ثم يجمع أضعافها من الفلاحين بأساليب وحشية تصل إلى القتل . جاء محمد على وألغى نظام الالتزام هذا وجعل أهالى كل زمام متضامنين فى أداء الضرائب ، فنال شيخ القرية سلطات الملتزم . وأدت السخرة والضرائب والتجنيد إلى هروب الفلاحين . ومع موت آلاف آخرين بالكوليرا زادت الأراضى المهجورة ، فأهداها محمد على إلى ضباط الجيش وبعض الأجانب والموظفين ، كنت وأخى من هؤلاء . كما اضطر إلى إعادة نظام الالتزام فى بعض الجهات ، فهرب معظم فلاحيها وفشل الملتزمون فى تحصيل الضرائب وتراكمت الديون عليهم . فلما جاء عباس انتهز الفرصة للتخلص من رجال عهد أبيه وأخذ الأراضى منهم ووزعها على صغار الفلاحين وسمح لهم ببيع محاصيلهم كما يشاءون ، وهذا هو سبب انتشار الشوام واليونانيين فى الأرياف لشرائها ، وسبب فقدى وأخى آلاف الأفدنة !

اقترب ديلسبس منهما بخطو خافت ، فلما سكتا عن الحديث نظر إلى ثروت فى مقت وابتعد . ابتسم أراكيل بك :

- منذ رحلة الصحراء وهو يعتبرك عميلاً للإنجليز ، لكن سعيد باشا يحبك !

تنهد مستديراً إلى جهة الشرق وقد بدأ القمر يحدد قمة تل المقطم :

- سمعت أخى نوبار يقول أن مصر مثل عظمة شهية يتنازع عليها كلبان هما إنجلترا وفرنسا ، كل منهما لا يجرؤ على خطفها خوفًا من الآخر ، بينما اليونانيون واليهود الشرقيون يتسربون مثل النمل إليها وينهشونها ويسمنون منها . رحم الله عباس باشا ،، لم يسمح للأجانب بالنصب عليه . سدّد ديون أخى مرتين فتوقف عن الاستدانة . منع أفراد حاشيته من الاقتراض كى لا يخضعوا لدائنيهم فيختل ولاؤهم له . على عكس الفكرة الشائعة عنه كان عادلاً . ذات مرة طلب من أخى تنزيل مرتبتى ظلمًا فأبى نوبار واستقال وطلب الإذن بالسفر ، واستقلت طبعًا معه . نحن أول موظفين يستقيلون فى مصر . ما إن تسلمنا إذن السفر حتى بعنا الأثاث واستأجرنا ذهبية قاصدين الإسكندرية . قرب بنها شاهد أخى رفاصًا يقترب بعباس باشا شخصيًا ،

وقاربًا ينفصل منه وعليه أحد المماليك الذى دنا من دهبيتنا وطلب من نوبار المثول بين يدى الأمير . ظننا أن ساعتنا الأخيرة حانت . أخفى أخى رعبه عن زوجته بابتسامة شاحبة وامتثل للأمر ، حتى واجه الأمير الذى وبخه بخشونة قائلاً : أين أنت ذاهب ؟ إلى فرنسا لتلتقى بالأمراء الذين يكرهوننى ويكرهونك ، كف عن تصرفات الصبية وعد لتستأنف عملك . مال أخى يقبل يده طالبًا الإذن بالسفر لمدة شهرين أو ثلاثة يعود بعدها .. تعرف أن مصر محرومة من إقامة سفارات بالخارج ، وأن محمد على تحايل على هذا بإنشاء وكالات تجارية تحل محلها فى أوربا ، وكان عباس يريد إنشاء وكالتين جديدتين فى فيينا وبرلين ، فجعل أخى يذهب إلى فيينا وعيننى أنا فى برلين . وبقينا هناك أحد عشر شهرًا حتى قتل رحمه الله !

كان سعيد باشا قد ارتاح فخرج يتمشى على السطح . رأى ثروت مع أراكيل فداعبه :

– قريبك سليط اللسان جدًا ، سامحته من أجلك .. لكن ...

قطب مهمومًا يتأمل الأراضى الممتدة والمدينة الغارقة فى الظلام إلا من ضوء القمر :

– ماذا أفعل كى أخفف عن الفلاحين ؟ ماذا أفعل وجميع الحكام من أبناء الترك والشركس ؟ إنهم يسيطرون كذلك على الجيش ، إن عزلتهم بمن أحكم ؟!

اقترب ديلسبس بخطو مسموع . راح يداهنه بكلام فرنسى منمّق :

– يا أميرنا العزيز ، الفلاحون بكل أسف جهلة مثل الأطفال ، يرفضون العمل طواعية فى تقوية الجسور وحفر الترع ، مع أن ذلك فى مصلحتهم !

احتد ثروت بأدب :

– فى بلادكم لا يجرؤ أحد على تسخير الفلاحين دون مقابل !

تجاهله ديلسبس بازدراء ومقت ، واصل كلامه إلى سعيد :

- من فرط أنانيتهم يا أميرنا الغالى ينظرون لمصالحهم الضيقة ؟ بينما أنتم الملوك تعولون جميع الرعايا فى الريف والمدن والسواحل ...

- لا يا مسيو ديلسبس ، أنا أعتبر نفسى فلاحًا مثلهم ، يجب أن أعمل على إنصافهم . إن شعروا بالرضا زاد المحصول وامتنعوا عن الفرار . وكما قال قريب ثروت : إذا لم يجدوا ما يأكلونه فكيف يزرعون لنا المحصول التالى ! يجب أن أنصفهم حتى لا يتطاول حاقد أوربى ويصفنى بالظالم !

- وهل يهتم عظماء التاريخ بهراء الحاقدين . إن محدودى الذكاء لا يفهمونك ، فمثلاً مشروع قناتنا الذى سوف يخلدكم فى التاريخ ، قلة ذكاء السلطان تدفعه للمعارضة ، مقت الإنجليز لفرنسا يعميهم ويدفعم إلى تغليب منافعهم الضيقة على مصلحة البشرية !

- مسيو ديلسبس من فضلك . ارحمنى من هذا الهراء !

بعد ذلك زار سعيد باشا قائد جيشه سليمان باشا الفرنساوى وأمره بسرعة ترقية المجندين النجباء من أبناء الفلاحين . لمعت عينا الفرنساوى فى فهم وقال :

- فكرة ثورية سيكون لها أكبر الأثر !

ثم أمر أفندينا بإلغاء جميع الضرائب المتأخرة على الفلاحين ، على أن تدفع الضرائب الجديدة نقداً وحين جمع المحصول الجديد .. وأعد لائحة سمّاها على اسمه باللائحة السعيدية ، تمنح الفلاح حق البقاء فى الأرض التى يزرعها وتوريثها لذريته مادام مواظبًا على دفع الضرائب . أمر موظفيه بكتمان سر اللائحة حتى يعلنها بنفسه من سراى رأس التين بالإسكندرية وهو يحتفل بالعيد الرابع لتوليه حكم البلاد .

لكن الفرحة جعلت ثروت يشرك إسماعيل باشا فى معرفة السر . لأول مرة ومنذ قديم الزمان يصبح الفلاح فى حكم المالك للأرض والمحصول . أغمض إسماعيل عينه اليمنى ولم يعلق . فباح ثروت بسر آخر يحيّره ، سعيد باشا ينوى طبع سندات لحامله

ذات آجال قصيرة ليبيعها للأثرياء ، وهذا معناه أنه يقترض منهم بفوائد على آجال قصيرة ، لماذا يورط نفسه ؟

تكدر إسماعيل :

– ليشترى بعض أسهم شركة ديلسبس البائرة . الفكرة للفرنسي الخبيث ، والخيبة لعمي السفيه . بصراحة هو لا يصلح للحكم ، ولا أخي غير الشقيق الأمير أحمد رفعت يصلح لولاية العهد !

حاول ثروت أن يزيل كدره فأخبره بأن الناس أطلقوا على وزير الخارجية اسم شريف الفرنساوى ، بسبب زواجه من ابنة سليمان الفرنساوى !

لكن نظرة قاسية أفلتت من إسماعيل :

– قلت إن سعيد باشا سوف يحتفل بعيد ولايته الرابع بالإسكندرية ؟

– يوم الخميس

– طبعًا سوف يتواجد أفراد الأسرة وعلى رأسهم ولى العهد الذى يكرهنى !

– الأمير أحمد رفعت طيب ومشهور بالعطف على الأيتام والفقراء .

– لو تولى الحكم فسوف نجد أنفسنا مرة أخرى لاجئين بالأستانة . أنا لن أذهب . لا أحب الإسكندرية . أنبأنى منجم فى صباى بأننى سوف أموت فيها ، وحذرنى منجم آخر من القيام بأى عمل مهم فى أى يوم خميس !

– أتؤمن بالخرافات مثل المرحوم عباس ؟ أنت تمزح !

أرخى جفنى عينه اليمنى على نظرة غامضة :

– لن يضمنى وأحمد رفعت قطار واحد ! ثم إن عمى يكرهه مثلى !

سافر ثروت فى معية سعيد باشا إلى الإسكندرية . وبقى مع المترجمين . بإحدى غرف سراى رأس التين ، ينصتون إلى صخب الحفل وغناء مطرب العصر

عبده الحامولي ، وشدو سيدة غناء زمانها ألمظ . ثم وزع الهدايا على ضيوفه ، وأعلن اللائحة السعيدية ، وأوصاهم بشراء سنداته الجديدة . وسهروا حتى بشائر الصباح .

مرت عدة أيام لاهية استأذن بعدها ولى العهد أحمد رفعت والأمير عبد الحليم فى العودة بحاشيتهما . ومضى القطار بهم ينفث دخانه الأسود إلى أن اقترب من كفر الزيات ، حيث الجسر المتحرك المثبت على صنادل ليعبر عليه النيل إلى الدلتا . تنبه السائق بعد فوات الأوان أن الجسر مفتوح لعبور المراكب الشرعية . حاول عبثًا إيقاف القطار . اندفع ساقطًا بعرباته الفاخرة من الشاطئ العالى إلى النهر .

نجا الأمير حليم وغرق جميع الركاب وولى العهد أحمد رفعت !

هز سعيد باشا رأسه فى غير اكتراث وقال سوف يبكيه الفقراء والأيتام !

وفرح إسماعيل وقد صار وليا للعهد . بحيث أن ثروت عندما عاد من عمله بعد أيام وجد الجارية شريهان فى انتظاره ، وقد تذكر إسماعيل فجأة وعده !

أما الفلاحون فقد رحبوا باللائحة السعيدية ، وأحبوا الوالى البدين الطيب ، وراحوا يطلقون اسمه على مواليدهم الذكور ، واسم زوجته إنجى هانم على مواليدهم الإناث بسبب حبها للخير ، لكن معظمهم اكتفى بلقبها فحذفوا إنجى وسموا بناتهم باسم هانم[1] .

* * *

كانت الجارية شريهان فى الثالثة عشرة من عمرها ، جميلة بيضاء شقراء زرقاء العينين . جلست بغرفة ثروت حزينة ، وإلى جوارها صندوق ملابسها ، نزل مستواها من جارية ولى العهد الجديد إلى جارية موظف صغير بالسراى . سمعت حكايات عن أكثر من ملك أو أمير أحب جاريته فأعتقها وتزوجها لتصبح أميرة ، كثيرًا ما حلمت أن يحدث لها هذا مع إسماعيل . كانت تنتظر الليلة التى يتذكرها فيها ويطلبها إلى فراشه ،

---

(١) صدرت اللائحة السعيدية فى ٥ أغسطس ١٨٥٨، وكانت بداية تملك الأفراد للأطيان ، ورحلة السودان تمت فى مطلع العام السابق .

فتذهب إليه بقلب خافق بحبه ، منتشية من قبل أن يلمسها . أول مرة جرؤت وتأملت وجهه لم يرقها ، أذناه كبيرتان عريضتان ، حواجبه بارزة مشعثة حمراء ، لحيته سوداء قصيرة ، لكنه جذاب عند أقل حديث ، وكان ينتهي منها سريعًا ، ثم يقف بقامته القصيرة ليرتدي ثيابه ويأمرها بالانصراف . عرفت فيه ضعف البنية ، ولم تحبل منه ربما لصغرها !

عندما عاد ثروت من عمله فوجئ بها . بهره جمالها لكنه غضب ، يفهم أن يهدى الصاحب صاحبه ثوبًا أو حذاء أو بعض الأثاث والرياش أو بهيمة ، أما أن يهديه إنسانًا فهذا لا يقبله . مسكينة أمه ، مرت ولابد بمثل ما تمر به هذه الفتاة الآن . عاين حزنها وصغر سنها ، أخذته الشفقة ودنا منها يربت على ظهرها متعاطفا . سالت دموعها فربت على شعرها الأصفر ، أحس برعشة تتملكه فسحب يده . رفعت عينيها تنظر إليه ، راقتها وسامته ووجهه الوديع فخفق قلبها أملاً . لكنه ليس أميرًا ولا وليا للعهد !

كانت أمه ثريا قد استقبلتها قبل وصوله . لم ترحب بها بسبب روعة حسنها . خشيت أن يقع ولدها في حبها ، إنه غشيم لم يجرب النساء ، مثل والده مقدام رابط الجأش إلاّ أمام الجميلة المحنكة ، والجارية تتعلم من صغر سنها فنون الحب وأحابيل الحريم ، منذ أن كانت تحت يدي النخاس ومن عشرتها للجواري المجربات . لو كان ثروت أفندي ولدها متزوجا لاطمأنت عليه من هذه الفتنة الصغيرة . رفض الزواج من فتاة شركسية أو تركية . أخفقت في العثور له على زوجة من أسرة غنية لعدم اختلاطها بالعائلات المصرية ، ولا ترضى له بزوجة فلاحة من قريبات المرحوم زوجها وهو الذي يمشي في معية ولي النعم . لذلك تركت شريهان وحيدة في غرفته ، ولم ترسل لها أكلا أو شرابا !

غير أنها مارست هوايتها في التجسس ، راحت تراقب سلوك الفتاة ، وجدتها لا تتحرك من مكانها ، منكسة الرأس وكفيها فوق حجرها . فزعت ثريا عندما رأت ثروت يعطف عليها ويلمس شعرها الناعم . احتارت ماذا تفعل ، لا يمكنها رد الجارية لأن هدية الأمير لا ترد . انتظرت حلول الليل وعادت تراقبهما ، وجدت ثروت ينام وحده

على سريره ، وشريهان على الأريكة ، بعد حين نهض يقف بالنافذة وقد جافاه النوم . فى الصباح ، كان التعب باديا فى عينيهما معا . الجارية أيضًا لم تنم إلاّ لماما . ولم يخاطبها ثروت بكلمة واحدة !

فلما امتنعت عن الفطور نصحها بالأكل . ثم قال فى حزم ورقة :

– أنا لم أطلبك من ولى العهد . ولا أريدك . أنت جميلة جدًا ، لكنى لا أريد امتلاك جارية لأن هذا ظلم . أنت إنسانة مثلى وليس من حق أى واحد أن يبيعك أو يهديك !

رمقته فى امتنان شاعرة بحبه يتسلل إلى قلبها . بلعت ريقها وسألت :

– إن كنت لا تريدنى ، أين أذهب !

– لا أعرف . سأجد حلاً .

– اتخذنى خادمة لك .

– لست محتاجًا لخادمة .

وجعلها تبيت بعد ذلك فى غرفة أمه . لكن الأميرة خوشيار علمت بذلك من الطواشى خليل أغا فاستشاطت غضبًا ، ونهرت ثريًا .

– أيرفض ولدك ابن الفلاح هدية ابننا ولى العهد باشا ؟! والله أسجنه !

عادت شريهان تعيش مع ثروت . ليلة بعد ليلة لم يقدر على مقاومة سحرها . كان واقفًا بالشرفة أرقا فاقتربت منه . شم عطرها . أحس بساعدها يلامس ساعده . استدار وقبلها ثم جذبها ، خرجت منهما معا تنهيدة حارة . سحبها فى رقة إلى السرير ، وباتت فى حضنه . ذاق طعم المرأة لأول مرة وندم على سنواته الماضية !

رأت ثريا النضارة فى وجه الفتاة فأدركت ماحدث . وصار ثروت يتلهف العودة إلى غرفته ، وحبلت منه فأخذها وخرج بها بحجة التريض فى طريق شبرا . عاد ليخبر أمه بأنه أعتق شريهان وتزوجها . بعد شهور ثلاثة صار متيما بزوجته ، وقد أخذ منها عهود الوفاء والإخلاص ، واستأجرا دارا مستقلة قريبة من القلعة ومن سراى الحلمية .

* * *

كان سعيد باشا قد طرح السندات قصيرة الأجل ، وتمكن من جمع المال . وكان ديلسبس قد عرض أسهم شركة قناة السويس للاكتتاب فى باريس وفيينا ولندن ، ثم عاد إلى القاهرة ، وقدم لولى النعم ورقة صغيرة بها بعض الأرقام ، أخذها سعيد باشا ضجرا وأعطاها لمدير أعماله الفرنسى دون أن يقرأها ، الذى أعطاها لثروت كى يحفظها فتفحصها ولم يفهم أرقامها !

ثم عاد الفرنسى من جديد يطالب صديقه الوالى بدفع ثمن ١٧٦ ألف سهم ، تعادل تقريبا نصف مجموع الأسهم . انزعج سعيد :

– أى أسهم يا عزيزى ؟!

– لقد اكتتبت أنا لحسابكم . ولو لم أفعل لفشل المشروع الذى سيخلد اسمكم على مر العصور ، ويحفظ لمصر الاستقلال والعظمة ، لقد أخبرت سموكم من قبل !

– أين ؟ ومتى ؟ :

– على الورقة التى قدمتها لكم .

أمر سعيد بإحضار الورقة الصغيرة . وجد على أحد وجيها حساب الاكتتاب فى أوربا ، وعلى الوجه الآخر سطراً واحداً ٨٨ مليون فرنك قيمة اكتتاب صاحب السمو . وهى قيمة جميع الأسهم التى لم تبع !

قال ديلسبس بابتسامة باردة :

– ها أنتم ترون أننى اكتتبت لكم ، وقد مضى حتى الآن أكثر من خمسة عشر يوما بدون اعتراض من جانبكم وهذا يعنى الموافقة . لقد أخبرت زملائى فى الشركة بذلك وحملونى أطيب التحيات لسموكم !

– أنت تعرف إننى فى أزمة مالية فظيعة !

– بإمكاننا تدبير قرض لسموك من بنك الفوائد الفرنسى بضمان إشرافه على الميزانية المصرية !

– هذا خازوق كبير يا عزيزى !.. لا تصدّع دماغى بالتفاصيل !

ودفع القسط ، فتأخر صرف مرتبات ثروت وجميع الموظفين شهراً كاملاً .. بينما ولى العهد إسماعيل منهمك فى شراء الأراضى واستيراد الطلمبات العجيبة التى ترفع المياه إلى الأرض بأسهل الطرق وتقوم بعمل العشرات من أبقار السواقى . ومعاونه صدّيق إن أعجبته أرضا قطع الماء عن صاحبها حتى يضطره إلى بيعها بأبخس الأثمان ، ولا ينسى أن يستأذن مولاه فى شراء أرض خاصة به !

بالمثل صار آل حتحوت والشاطر فى حكم مالكى الأرض التى كانوا يزرعونها بقرية تلة ، ومن بعض الجنيهات القديمة التى تركها الشاطر وزوجه ثريا اشتروا لوازم الزراعة ، وأمنوا إلى الزمان وظنوا فى دوام الحال ، الذى هو المحال !

ذلك أن ديلسبس لجأ إلى سياسة فرض الأمر الواقع . توجه إلى أرض الفرما قرب البحر المتوسط ، حيث كان المهندسون منتشرين بآلات المساحة وضبط الزوايا ، وكل آلة مثبتة فوق ثلاثة قوائم ، مصطحبًا معه المقاول الفرنسى ومجموعة من مستخدمى الشركة ، ومائة عامل جىء بهم على عجل من دمياط ونواحيها .. وقفوا على ساحل البحر الكبير ، بعد تلاوة الصلوات من بعض المشايخ والقسس والحاخامات ، أمسك ديلسبس بمعول ضرب به أرض مصر ، وبحركة مسرحية قال :

– باسم الشركة العالمية لقناة السويس ، وبهذه الضربة نبدأ أول خطوة لفتح أبواب الشرق لتجارة الغرب وحضارته !

وبدأ العمال المائة يحفرون فى المكان المحدد لهم ، بين تصفيق الحاضرين(١) .

غير أن قنصل الإنجليز صعد إلى قلعة القاهرة وهدّد الوالى ، أخبره أن بريطانيا العظمى سيدة البحار تنصح سموه بوقف مشروع القناة الفرنسى ،

---

(١) أبريل ١٨٥٩ ، وفى الشهور الستة التالية زادت ديون سعيد باشا ثلاثة أضعاف .. والفرما مكانها بورسعيد الآن .

فأرسل الباشا أوامر سرية وشفاهية إلى محافظى دمياط والشرقية بمنع العمال عن الشركة ..

جاءت بوارج الإنجليز إلى مياه الإسكندرية ، رأها بمنظاره من شرفة سراى رأس التين . ذعر وأمر شريف باشا أن يطلب من ديلسبس كتابة بوقف العمل .. فجاءه قنصل فرنسا يحتج باسم الإمبراطور نابليون الثالث !

تذكر الباشا أنه قائد حربى فاستدان وابتاع المدافع لأبراج الثغور القديمة ، وأمر باستدعاء العساكر المسرحين . جمع فى مريوط قرب الإسكندرية ستين ألف مجند ، كان من بينهم أمشير بن الشاطر !

من فوق صهوة جواده واجه سعيد باشا حشود الفلاحين فى ثياب الجهادية . عن يمينه سليمان باشا الفرنساوى ، ومن خلفهما كبار الضباط فى تجهم واحتشام . انتفخت بطنه يخطب فيهم متوعدا الإنجليز . امتدح المصريين ووصفهم بأنهم أكثر عراقة من الأتراك . احتقنت وجوه الضباط من أبناء الترك والشركس غيظا ، أكثرهم غلا كان الشركسى عثمان رفقى !

ظل الجنود فى غير حماس . وأمشير يراقب ضابطًا مصريًا ممشوق القامة بشارب مفتول . كان زميله السابق أحمد عرابى وقد قفز إلى رتبة بكباشى ، وإلى جواره زميله الثانى على الروبى ، قفز هو الآخر إلى رتبة صاغ . وحاكم البلاد يعرفهما بالاسم ! .. هذا الوالى يظن نفسه بونابرته زمانه . أراد أن يجرب مهارته الحربية ضد بدو المنيا ، توهم أنه عرضة لهجوم غادر منهم فهرب ، ولم يتبعه سوى قليل من فرسانه ، ولم يقف جواده اللاهث إلا على ضفاف بحر يوسف .. يبدد الأموال فى شراء ملابس العساكر والضباط الجديدة التى استوردها لهم ، مصنوعة من أفخر القماش ، ولثياب الضباط أزرار مثل الذهب والفضة !

توالت أيام التدريب ، ولم يحاول أمشير التحدث إلى زميليه السابقين عرابى والروبى ، إلى أن توقف أمامه عرابى محاولاً التذكر :

أذكر الوجه لكننى نسيت اسمك !

- النفر أمشير إدريس ، قرية تلة مديرية المنيا .

انضم إليهما على الروبى الذى قال لأمشير :

- أراك لست سعيداً ، أهو الحنين إلى الأهل ؟!

أطرق محرجًا فقال الروبى :

- يجب أن نساند أفندينا وندعمه ، أنا شخصيًا أحبه لأنه رقانى وصاحبى عرابى ، ويرقى المصريين على حساب أبناء الترك والشركس ، وهذا لم يحدث من قبل :

لزم أمشير الصمت طوال شهور التدريب الثلاثة . رغم مقتة للسرقة إلا أنه حرص على الاقتصاد فى تموينه من البارود وإخفاء مايوفره ، عند نهاية المدة كان لديه ما يملأ جرابًا كبيرًا . ليلة التسريح تسلل وسرق مسدسين أخفاهما بدقة ، وفكرة قوية تسيطر عليه ، سوف يحتاج إلى السلاح فى يوم قريب !

كان سعيد باشا قد اطمأن إلى مؤازرة نابليون الثالث فأمر بتسريح الأنفار ومشاركة فلاحى الوجه البحرى فى حفر القناة .. فعاد أمشير إلى قريته تلة ومعه المسدسين وجراب البارود ، وحرص على إخفائهما عن جميع أقاربه وأصحابه !

بينما عاد الوالى إلى معاناته من زيارات الأجانب ، يمتقع وجهه مع كل زيارة لقنصل ، والدائنون يطاردونه يريدون أموالهم وأرباحها ، فيجف ريقه وينخلع قلبه ويطلب مهلة سماح . يقترض من مرابى أفرنجى بالإسكندرية ليسدد قرضًا صغيرًا ، ويقترض من ثالث ليسدد للثانى . صار مثل المربوط بحبل فى عنقه ، كلما دار حول نفسه زاد خناق الحبل .. أمر بتخفيض الجيش إلى خمسة آلاف رجل ، فصل كل موظفى الترسانة البحرية ، استغنى عن غالبية المدرسين ومنهم رفاعة بك الطهطاوى !

وزخرت أسواق القاهرة بكميات هائلة من الثياب الميرى الفاخرة والعتاد العسكرى ، سراويل وقمصان ، وأحذية ثقيلة ومخلات وبنادق ومسدسات وبارود ، ومئات الخيول والجمال والبغال ، معروضة للبيع بأبخس الأثمان !

انتفخت ملفات القناة والديون ، وثروت يعاون زملاءه فى فهرسة الأوراق ، وقد صار على يقين من أن هذا البدين جاء ليهدم ما بناه والده !

جاءه قنصل الإنجليز مبتسمًا طالبًا إعطاء شركة إنجليزية حق إنشاء ترام بين الاسكندرية وحى الرمل الجديد . وقع العقد دون قراءته . فى اليوم التالى زاره قنصل النمسا وأخبره أن الإنجليز أخذوا العملية بخمسة أضعاف قيمتها . وكان معه نمساوى مثله وصفه بأنه شريف ، كان ينتظر القطار على محطة السويس ومعه ثمانية وعشرون صندوقًا من شرانق الحرير ، بقيت تحت الشمس مدة بسبب تأخر القطار فماتت ، ولو وصل القطار فى موعده لعاشت .. دفع له ولى النعم ثلاثمائة ألف فرنك تعويضًا !

ثم أمر بإعطاء ديلسبس أموالاً جديدة . لم يسمعه ثروت يرفض طلبًا لأجنبى ، لكنه سمعه يأمر بفصل المصريين ، حتى تخلص من جميع الموظفين ، ثم أعاد بعضهم . وألغى الشرطة فانتقلوا من أخذ الرشوة إلى احتراف السرقة . وقف العمل فى إكمال القناطر الخيرية . باع تحفه الثمينة بالثمن الزهيد ليسدد قروض المرابين العاجلة ، والإنجليز يضغطون عليه بالسلطان لإلغاء مشروع ديلسبس الفرنسى :

أرسل السلطان العثمانى عبد المجيد يطلب من سعيد باشا الحضور إلى الأستانة لتوبيخه على حفر القناة دون فرمان منه . أدرك سعيد أن ذهابه سيكون بلا عودة ، فتوجه إلى الحجاز فى برد الشتاء ، مصطحبًا ألفى رجل من المشاة والفرسان والمدفعجية والأتباع . جعل ياوره فى هذه الرحلة القائمقام أحمد عرابى .. فلما كان قرب المدينة المنورة قرأ كتابًا عن حياة نابليون وكيف احتل مصر بثلاثين ألف جندى فقط . ملأه الحنق وألقى الكتاب أمام ياوره مغتاظا :

– انظر كيف قهر نابليون مواطنيك فى ساعات قليلة !

أخذ عرابى الكتاب إلى خيمته وسهر الليل كله يقرأه على ضوء المصباح .

وكانت المرة الأولى التى يقرأ فيها كتابًا من هذا النوع . فى الصباح توجه إلى مولاه وأبلغه أن نابليون انتصر لأن جيشه كانت منظمًا على عكس جيش المماليك ، وأنه بالإمكان تطوير الجيش المصرى إن أراد الباشا !

كل ذلك يحدث بينما ولى العهد إسماعيل منهمك فى شراء الأراضى وفى تسخير الفلاحين فى حفر القنوات لرى الأطيان البعيدة عن النيل ، حتى كاد يتملك نصف أراضى الصعيد . وتابعه صدّيق يثرى من ورائه .. وثروت غارق فى حب زوجته شريهان ، التى ولدت له ابنا ذكرا ، طارت به جدته فرحًا ، واختارت له اسم حبيب . كان والده يريد تسميته الشاطر حتحوت فاحتجت :

– كيف تنادى طفلاً اسمه الشاطر حتحوت ؟!

– كيف كنت تنادين أبى الشاطر ؟

سرحت فى ذكرياتها ، وبدا فعل السنين فى شعرها ووجهها ، لولا مسحة جمال باقية وسحر دائم فى عينيها ، وردت باسمة :

– كنت أناديه : حبيبى !

(٨) قصر الجوهرة

تأمل سعيد باشا لسان الأرض الداخل فى مياه البحر المتوسط ، ومن فوقه شريط حديدى . تأمل الفنار الخشبى الجديد ، وجرافات الرمال ذات العجل الكبير ، والبنايات المتناثرة ، والمهندسين الفرنجة . ثم رقص الزهو فى نظراته وديلسبس يقول بلهجة ساحرة :

– ميناء سعيد ، بورسعيد ، على اسم سموكم ، مدينة جديدة تتحكم فى مدخل القناة الشمالى ، سوف تنمو وتصبح عظيمة ، أى خلود أعظم من هذا لسموكم :

قال المقاول الفرنسى ألفونس هاردن :

– رغم العقبات والصعاب التى تعرفونها سموكم أنجزنا الكثير ، نحن الآن فى أبريل ١٨٦١ وبعد شهور قليلة يصل الحفر حتى بحيرة التمساح ، أى نصف طول القناة .. بفضل سموكم يعمل معنا الآن عشرون ألف عامل ، لو أمكن زيادتهم إلى ثلاثين لكسبنا وقتا ثمينا .

– ومن يزرع أراضى الوجه البحرى يا عزيزى ؟!

– وماذا عن فلاحى الصعيد الأشداء ؟

– هؤلاء صعب التعامل معهم !

كان المقاول مهموما بالمنطقة المتاخمة لبحيرة التمساح ، اسمها عتبة الجسر ، لا يصلح معها إلاّ الآلات الحديثة ، والآلات تكلف كثيرا !

قبل نهاية العام زار سعيد منطقة الحفر عند عتبة الجسر ، وجدها هضبة صخرية وعرة شديدة الارتفاع ، وآلاف الفلاحين يعملون فى مثابرة ومذلة ولا يتقدمون إلاّ

بطيئا ، ومياه البحر المتوسط وصلت إلى المنطقة . رآهم فى ثياب مهلهلة رثة وأجساد هزيلة ، سعل ودارى فمه بمنديله الحريرى ، وانصرف متوجها إلى الزقازيق ثم إلى القاهرة ، بعد أن أمر بجمع ٢٥ ألف فلاح من الوجه البحرى ، ووعد بجمع خمسة آلاف من فلاحى الصعيد ممن كانوا مجندين !

مع مستهل العام التالى زار الصعيد لتنفيذ وعده ، فكان على قرية تلة الصغيرة أن تقدم عشرين نفرا ، من بينهم أمشير بن إدريس وبهية ، وحسن وحسنين ولدا طه . سيقوا مع المأخوذين من البلاد الأخرى إلى القاهرة ، والسلاسل فى رقابهم !

ظن أمشير أن إرادة أفندينا شاءت إعادة الجيش ... لكنهم سيقوا إلى الزقازيق فى حراسة الجنود ، عبروا أراضيها المزروعة ، ثم دخلوا فى صحراء لا يعرفونها . فى الصباح تكون الشمس على يسارهم صباحا ، ويبيتون فى العراء ليلا ، يأكلون وجبات قليلة ويشربون مياه شحيحة محمولة على عشرات الجمال . مات الضعفاء فى الطريق ، وواصل الأصحاء السير وأقدامهم الحافية تغوص فى الرمال .. إلى أن رأوا عن بعد آلاف العمال وترعة تأتى من أقصى الشمال ، ثم هضبة تحول بينها وبين بحيرة كانت بالنسبة لما شاهدوه فى حياتهم فسيحة جدا !

عرفوا أن مهمتهم هى هدم الهضبة التى يعلو ارتفاعها على أطول نخلة . لم يتركهم أحد يستريحون . انهالت سياط الملاحظين تفرقع فى الهواء لإرهابهم . اندفعوا يحفرون فى الهضبة بأظافرهم ، أحدهم يحفر وأربعة ينقلون الرمال بعيدا وبدون مقاطف . يقوّس كل واحد بدنه ويشبك ساعديه خلف ظهره ، فيضعون الرمال ليصعد بها ، يفرد ظهره فتسقط .. كلما أوغلوا زادت الصعوبة والوعورة ، والتربة شديدة الملوحة تكوى أبدانهم بأملاحها وحمضياتها :

تكررت الأيام ثقيلة كئيبة ، تنهش التربة الحمضية أبدانهم نهارا ، والفئران الجبلية الشرسة ليلا :

أكثر من مرة اهتاج أمشير وهمّ بضرب الحراس والملاحظين ، لولا إمساك رفاقه به . فأخذ يرعى قريبيه حسن وحسنين لأنه الأكبر سنا .. وفى يوم منكود سقط الصبى حسنين إعياء ، من الإنهاك والشمس وقلة الطعام والماء . انهال عليه سوط الملاحظ

الأجنبي . صرخ الصبي يئن . اندفع أمشير بقوة لم يكن يظن أنها باقية فيه ، دفع الملاحظ بعيدا . مال يأخذ حسنين في حضنه ، وإذا كل شيء يصبح في عينيه مصبوغا بالأحمر والأسود ، والسياط تنهال فوق جميع بدنه . توقف العمل في الموقع كله ، وجاء كبير الملاحظين وشخط واحتقن وجهه الفرنسي . دار معاونوه على الفعلة بالسياط ، عاد العمل ، كفت السياط عن الجميع عدا أمشير ، حتى كلّت يد الملاحظ .. عندئذ أمر الفرنسي بتعليقه على آلة العروسة ، فربطوه من معصميه وقدميه إلى عمودين ملتقيين عند الوسط مثل مقص ضخم مفتوح . تركوه تحت الشمس وكل حين ينهال عليه أحد السياط . زادت آلامه وهو يرى حسنين ملقى دون اهتمام والفرنسي يلقي عليه نظرة سريعة قائلا :

– مات . ادفنوه .

أهالوا عليه التراب قبل أن تطلع روحه . وظل أمشير معلقا لمدة يومين دون أكل ، ثم أنزلوه وأعطوه بعض الطعام والماء . نظر إلى الكوم المهال فوق حسنين وعاهده بالثأر له . ركل بعصبية فأرا ضخما وأقسم أن يثأر . تألم من آثار السياط فازداد إصرارا !

مضت أسابيع قليلة وتعددت الأكوام بفعل الإرهاق وقلة الغذاء والملاريا .. وبقية الأحياء في غل وحقد ، وقد صار واضحا أن ثورتهم وشيكة !

كان أمشير أكثرهم غضبا ، لكنه كان مهموما بقريبه حسن الذي صار هزيلا ضعيفا ، يعمل حينا ثم ينظر إلى كومة حسنين وينتحب .. أقسم أمشير من جديد أن يثأر لجميع المدفونين تحت الأكوام .. وفي هدأة الليل قرر أن يهرب لإنقاذ حسن . غفا قليلا من الإنهاك والقهر ، وقبل شقشقة الفجر أيقظ حسن وتسلل به زاحفا وظهره يؤلمه . رآه بعض الأرقين فأغمضوا عيونهم ..

بعد زحف طويل وقف أمشير حاملا حسن من تحت إبطيه وهو لا يكاد يصلب طوله . ظلا سائرين لاهثين حتى ضمنا الابتعاد فارتميا أرضا يستريحان .. ثم صارا

يواصلان السير ليلا ، يتسولان الطعام والشراب ، هدهما التعب فصار السير يوما والراحة أياما ، وقد انهارت صحة حسن !

بعد أسابيع من الترنح والإعياء دخل أمشير قرية تلة حاملا الصبى . أمام الدار خرّ واقعا . ظل ساعات طويلة غائبا عن وعيه . ثم فتح عينيه بصعوبة . رأى أمه بهية وأباه أدريس فى لهفة ولوعة ، وبدر وزوجته وبناتها ريحانة وياسمينة ووردة ، والبكاء يملأ المكان .. أما بدور أم حسنين فكانت تلطم وجهها وزوجها طه يجلس عاجزا مغرورق العينين !

بعد أيام من الرعاية والراحة صلب عوده . عرف أنه وصل بحسن ميتا . سالت دموعه فى صمت !

عرف أيضا أن ثلث الصعايدة ماتوا فى الحفر وبوباء الملاريا ، وأن الآخرين ثاروا ثورة دموية ورفضوا مواصلة الحفر ، رغم البنادق والسياط . فاضطر المقاول الفرنسى إلى الاستغناء عنهم .، حدث ذلك بعد هروب أمشير بأيام قليلة ، لهذا وصلوا القرية قبله !

بقى أمشير عدة أسابيع مهدود الحيل ، يقسم كل يوم أنه سوف يثأر . عندما تحسنت صحته ظل منطويا على نفسه ، يتناول طعامه ثم يستلقى شاردا .. حتى أحس أنه استرد عافيته تماما فعاد إلى مرحه ، فرح أهله ، لكن أمه بهية الذكية ظلت تراقبه قلقة ، شاعرة بأنه يدبر لأمر ما !

صدق حدسها . استقظت يوما ولم تجده !

وكان هو فى طريقه نهرا إلى القاهرة حاملا أقل الزاد ، والمسدسين وجراب البارود ، عازما على تنفيذ ثأره وإن كان لا يعرف كيف !

وسط زحام ميدان الرميلة مال أمشير برأسه يتأمل القلعة الشاهقة المطلة على الميدان وتل المقطم والقاهرة . من حين لآخر يهبط منها أو يصعد إليها فارس على جواد ، أو قنصل فى عربة أو رجل على حمار . عند الظهر انطلق من مدفعها طلقة

واحدة ، تذكر حكايات جديه حتحوت والشاطر عن أهل القلعة : ندرة فى الوفاء ووفرة فى الغدر .. وقريبه ثروت يعمل معهم !

انشغل بالفرجة على بعض الحواة والقرداتية . الباعة فى كل مكان ، بضاعاتهم فوق الصخور الناتئة وسط الساحة ، حديد خردة وتبغ وقصب . فى مواجهة سور القلعة العالى مسجد السلطان حسن البديع بمئذنتيه الشاهقتين ، إلى جواره أكواخ الفقراء خفيضة متداعية . وباعة السلاح يعرضون السيوف والدبابيس والمدى والبنادق . بعض العربان فى ثيابهم الفضفاضة يساومون على شراء غدارات ، معظم أموالهم من سرقة المسافرين بالصحراء ، قتل محمد على منهم الكثير ، وخافوا من عباس ، وعادوا إلى غيِّهم زمن سعيد البدين !

زحام السوق ، ونساء يحملن الأطفال على أكتافهن . بائع الأحجبة والتمائم ، ألباني يتجول مختالا فى كبرياء وجهامة . كاتب قبطى بعمامته السوداء والدواة مثبتة فى وسطه . درويش يتدلى شعره حلقات على قفاه . مجاذيب نصف عراة . مكفوفون يقودهم صبية صغار . كلاب ضالة . وحلاق يتدلى من حزامه سير الجلد الذى يشحذ عليه الموس وتحت إبطه طشت نحاس ومرآة !

تجول أمشير فى الزحام حريصا على صرّة ملابسه ، إلى أن شاهد الأفندية الموظفين ينصرفون من القلعة . رأى شابا يشبه قريبه ثروت على حمارة صغيرة . اقترب منه وناداه . التفت إليه الشاب وتابع مسيره ثم توقف يتأمله . سرعان ما هبط عن حمارته مبتسما فاتحًا ذراعيه :

- أمشير ؟! يا ألطاف الله !! شخت قبل الأوان !

طال الوقوف بين الأسئلة والأجوبة .. وصعق ثروت وهو يستمع إلى رغبة أمشير فى العمل بمشروع القناة ، صاح :

- تريد العودة إلى جحيم الصحراء بعد كل الذى حدث لك ؟!

– هذه المرة موظفا ، ملاحظا معززا مكرما ، وبراتب محترم مضمون .

وعده ثروت بالتوسط له لدى الوالى لتعيينه معاونا لإسماعيل حمدى .

– من يكون إسماعيل حمدى ؟

– مدير حازم صارم أرسله سعيد باشا لحفظ الأمن هناك بعد تكرار هروب الفلاحين وهياج الصعايدة .

توجها إلى الدار ، وأدخله ثروت مندرة الطابق الأرضى ، وصعد قفزا ليخبر أمه ، التى نزلت ترحب بأمشير وتربت على ظهره وهو خجل . سألته عن أمه بهية ابنة المرحوم زوجها .. تأكدت من أنهم يعتنون بقبر الغالى . اطمأنت إلى تحسن أحوالهم رغم كل الظروف . مازال مدير المنيا يعاملهم بالتغاضى والرفق تنفيذاً لأمر الباشا سعيد ، وأهداهم حسن باشا الشريعى عين أعيان الناحية بقرتين وناقة .

بعد الطعام الشهى أخذه ثروت يريه ابنه حبيب . طلب ضاحكا من زوجته ألا تستتر :

– الضيف بمثابة أخى يا شريهان ، على الأصح أنا بمثابة خاله .

دعا أمشير للطفل حبيب بالصحة والهناء ، ثم قال مؤكدا :

– سيكون بهى الطلعة مثل المرحوم جده وجدى .

بات عندهم أربعة ليال . ذهب إلى الحمام العمومى مرة ، وطاف بأنحاء المدينة يتعجب من بناياتها ومن قناطر الخليج . اكترى حمارا وذهب لمشاهدة أهرام الفراعنة وتأمل رأس أبى الهول . فى نهاره الخامس عاد ثروت من القلعة مزهوا وقدم له ورقة مكتوبة بالفرنسية بخط أفندينا قائلا :

– بهذه الورقة تتسلم عملك فورا .

قبل الرحيل أعطاه بذلتين من ثيابه الأفرنجية قائلا :

- بهذا الزى يحترمونك ، وتكون مميزا عن فلاحى السخرة . وإن كنت لا أفهم سر اختيارك لهذا الوظيفة المكروهة !!

زار أمشير مكتب الشركة بالقاهرة فاحترموه وأضافوه إلى قافلة الطعام .. وفى فجر اليوم الموعود ركب جملا يحمل على جانبيه جوالين من الدقيق ، ضمن قطارات من مئات الجمال . سرعان ما غادروا القاهرة وساروا عبر المزارع والحقول ، وهو يترجرج فوق الجمل ، فى ملابسه الأفرنجية وعلى رأسه قبعة من الخوص . أكثر من ألف جمل أهداها سعيد باشا الشركة مجانا !

توغلوا فى بحر الرمال ، هذه المرة راكبا . بعد مسيرة ساعة عبروا من جوار هياكل آدمية قديمة . بعد قليل كشفت الرمال عن يد مرفوعة مازال يكسوها بعض اللحم . رمى ببصره إلى الأفق البعيد ، لا شىء سوى صفرة الرمال ، وهو يمسك أمامه بالصندوق الخشبى الذى أهداه له ثروت ، وبداخله ثيابه والمسدسان وجراب البارود .. إلى أن رأى بعد زمن كأنه ألف عام أكواما عالية من الرمال ، مع اقترابهم رأى كائنات صغيرة تتحرك مثل الحشرات بين تضاريس عتبة الجسر ، أوشكوا على الانتهاء من الهضبة الملعونة ، شبه عراة وبينهم صبية وصبيات !

أناخوا الجمال وجاء المدير إسماعيل حمدى يراقب النظام ، والتف بعض الملاحظين بسياطهم ، تأمل كبيرهم لون أمشير القمحى متسائلا :

- عربى من الشام ؟

- مصرى من الصعيد

تفحص وجهه كأنه يتذكره :

- فلاح مثل هؤلاء ؟!

تدخل رئيس القافلة بكلمات أفرنجية فتأدب الملاحظ . وأعطى أمشير كتاب الخديو إلى المدير إسماعيل حمدى . عرف الخط فأمر له بخيمة نظيفة ، وضع فيها صندوقه الخشبى ، وبعد أن اطمأن على قفله المحكم خرج يدرس المكان ، الآلاف يعملون فى

مذلة ، والملاحظون يقودون عشرات الصبية. لإنزال حمولة القافلة وتشوينها تحت سقيفة واسعة ، وعند الأطراف بعض البدو يبيعون الخبز والحليب لمن معه نقود .. وعن بعد بيت ديلسبس منفردا قرب البحيرة ، يستريح فيه عندما يأتي !

انتهى تفريغ الحمولة قرب المغرب . وتوقف الحفر وتجمع الفلاحون في دوائر يأكلون ، بين صيحات الملاحظين التي فهم أمشير أنها سباب . ظل يتأمل كبيرهم الذى جاء لقتله ، وهو واقف قرب آلة التعذيب المسماة عروسة . والفئران البرية الشرسة تهرول في كل مكان !

ألقى أمشير قبعته الخوص وراء ظهره وكبير الملاحظين يداهنه ويقسم أنه رآه قبل ذلك ، فأخرسه مقسما بشرف مسيو ديلسبس بأن هذا لم يحدث ، وصار يناديه مثل الآخرين بكلمة كومندا . والمشاعل تنير الموقع ، والمصابيح الزيتية تنير الخيام . وفي سكون الليل علا صوت حزين بأغنية نائحة ينعى المقادير التي غربته في بلاد بعيدة ليعمل تحت الهجير !

صاح الكومندا يأمر الفلاح بالكف عن النهيق . ضحك الملاحظون استظرافا ثم تحشموا إزاء نظرة المدير المحذرة . فتحسس الكومندا بطنه وهرش شعر لحيته الحمراء ووقف يدعوهم إلى خيمته ، حيث أخرج زجاجة ضخمة صب منها الخمر في أكواب نحاسية .. بينما تناول أمشير عشاء جيدا مع رجال المدير ثم توجه إلى خيمته الصغيرة . أسدل بابها واستلقى على الرمال ، كاد يختنق من الحر فرفع طرف القماش وأخرج رأسه خارجا يتأمل النجوم . تذكر حسنين المدفون تحت كومة الرمال شمالا فاغرورقت عيناه !

هبت نسمة رطبة فأدخل رأسه داخل الخيمة . قبل أن يذهب في النوم شعر بالندم لمجيئه . لن يستطيع قتل الكومندا قاتل حسنين وهو وسط عشرات الملاحظين وفي حماية رجال المدير . كثيرا ما حذره والده إدريس من التهور والاندفاع !

قبيل الفجر تناول إفطاره ، مع بزوغ الفجر تسلم سوطا . اندهش الفلاحون من لون بشرته . توسموا الرحمة فيه فضاعف من تجهمه ، وكاد يبتسم أمام ابتسامة

صبية نحيلة . مع مرور الأيام تعرف على الموقع والمستنقعات القريبة الضحلة وأعواد البوص المرتفعة فيها والتى تصلح مكمنا .. لكنه هز رأسه ساخرا ، كيف ينفذ ثأره ؟! .. وتعجب : كيف سيحفرون مجرى القناة عبر المستنقعات القريبة ؟!

وكان واقفا يلوم نفسه عندما سمع همسا قريبا ، ورأى شابا يزحف نحوه ويسأله إن كان مصريا . أمره فى جفاء بالعودة إلى عمله . لكنه فى الصباح التالى تجول حتى مرّ من جواره . من غير أن ينظر إليه سأله عن بلدته ، فأجاب :

– اسمى ميهوب ، صياد من المطرية

تأمل ضيق عينيه وفمه الواسع :

– المطرية ضاحية من القاهرة !

– المطرية قرية صيادين على بحيرة المنزلة . أعرف جيدا طريق العودة إليها ليلا . دعنى أهرب !

بعد ذلك عرف أمشير أن معه شابا آخر من قريته اسمه ضرغام وفى الخامسة عشرة مثله . رآه اسما على مسمى ، قويا مثل الليث !

ظل يراقبهما لمدة أسبوع ، ثم سألهما بغتة :

– هل جربتما قتل إنسان ؟

بعد تردد أجاب ضرغام :

– قتل هؤلاء الملاحظين الأنجاس حلال !

– أين تختبئ لو هربت ؟

– نعرف دروب الصحراء وخفايا المستنقعات ، وعندنا فى بحيرة المنزلة مخابئ يعجز رجال السلطة عن التوغل فيها !

ظل أمشير لا يعرف كيف ينفذ ما جاء من أجله ، إلى أن غادر المدير سليمان حمدى الموقع مع عدد من رجاله ، فبدا على باقى الحراس التراخى .. وشاء رب الكون أن يستدرج أحد الملاحظين صبية إلى خيمته ليرتكب معها الفحشاء ، رأى والدها ذلك فغلى الدم فى عروقه ، استجمع بقية قواه واندفع صوب الخيمة بحجر انهال به على رأسه حتى هشم جمجمته وصعدت روحه إلى جهنم ، والصبية تصرخ مرعوبة ، ورصاص الحرس ينهال على والدها ، فجأة توقفت عن الصراخ ، جمدت وتخشب بدنها وسقطت ميتة . تحفز الفلاحون واندفعوا فى هياج ، ثم تراجعوا وقد قتل منهم ستة رجال وصبى !

بينما الملاحظون يكفنون زميلهم القتيل ، اندفع أمشير إلى خيمته ، أخرج مسدسيه من الصندوق ، خرج فوجد ضرغام وميهوب ، أعطى ضرغاماً مسدسا ، لكن ميهوب قال :

– ليس وهم متأهبون بالسلاح ، الكثرة تغلب الشجاعة !

ثم جاءتهم الفرصة ، كان العمال فى قاع المجرى يعمقونه ، فإذا المياه تدفقت فجأة جارفة حاجز الرمال وبعض الصبية . حدث اندفاع وصراخ . صاح الملاحظون يأمرون بالانضباط . ضرب أمشير أحدهم على رأسه فتدحرج إلى القاع .. بسرعة استدار ضرغام عند سفح المجرى الغارق يخنق الملاحظ القريب منه ويغرقه . فعل مثله ميهوب ، بين ذعر القريبين منهما !

وصلت المياه إلى ركب الرجال وأعناق الأطفال ، فسارعوا يتسلقون المنحدر ، وصار الموقع كله فى فوضى وصراخ ! .. فهرول أمشير إلى الخيمة الكبيرة حيث كان الكومندا يرتدى ثيابه ويثبت مسدسه حول وسطه ، خطفه منه أمشير وأطلقه فى إحدى ساقيه ، خر الرجل متألما لا يصدق ، أراد التحامل على ساقه السليمة فعاجله أمشير بطلقه من مسدسه الخاص . أسدل باب الخيمة وراح يهيل التراب على الكومندا حتى دفنه حيا عاجزا !

خرج ليجد الفلاحين قد انهالوا جماعات على الملاحظين والحراس حتى قتلوهم . بعد أن شفوا غليلهم نظروا إلى بعضهم البعض في هول ، وجلسوا يفكرون فى العاقبة ، بين لطم النسوة لخدودهن ونحيب الأطفال .. حتى أسكتهم ميهوب صائحا :

– اسمعوا . إن اتحدت أقوالكم نجوتم . عندما يعود المدير إسماعيل حمدى أخبروه أن العربان هاجموا المعكسر ليلا وقتلوا الحراس وسبعة رجال منكم وصبيا وصبية ، وسرقوا التموين . اجلسوا فى تعقل ووحدوا أقوالكم !

قال هذا ثم أشار إلى أمشير وضرغام ، فانسحبوا هاجرين الموقع ، وتوغلوا فى الصحراء . تغوص أقدامهم فى الرمال أو بين بوص المستنقعات المتناثرة . قبل هبوط الليل مشوا فى حقول الأرز الموحلة . لا يدرى أمشير اتجاها . هبط الظلام فناموا ، قبل الفجر واصلوا السير .. ومع مغيب اليوم الثالث لاحت لهم قرية المطرية . كمنوا فى المياه الضحلة بين أعواد البوص ، إلى أن نامت القرية ، فتسللوا خفية إلى دار عبد الخالق شيخ الصيادين ، وحكوا له جميع ما كان دون نقصان . أمر لهم بطعام ساخن ، أكلوا أرزا وسمكا ، ثم غلبهم النوم ، فأحضر وسادات وضعها تحت رءوسهم ، وجلس خارج الدار يفكر فى هذه الملمة !

قبل بزوغ الفجر بساعة أيقظهم وأطعمهم أرزا وسمكا وبعض التمر ، وجعلهم يرتدون ثياب الصيادين . عرف أن أمشير من الصعيد فصاح :

– يا ألطاف الله ، لكم بعدت عن أهلك . كنت أصيلا عندما أخذت بثأرك !

خرجوا والقرية نائمة . فى دقائق يتوجه الصيادون إلى أرزاقهم .. أسرعوا يبتعدون . رأى أمشير القرية فوق لسان يمتد فى البحيرة الهائلة بين مجموعة من الجزر الصغيرة ، التى بدأت الشمس تشرق عليها . ابتسم ضرغام له :

– سنعلمك الصيد وتصبح واحدا منا

– سأعود إلى أهلى بمجرد هدوء الحال .

ابتسم ميهوب فازدادت عيناه ضيقا :

– أنت ابن أصول ، وسنزوجك فتاة جميلة ، بلدك هى بلد المحبوب !

كانت رائحة البحيرة تملأ الجو ، رائحة الملح والأعشاب . تزايدت أصوات الطيور المبكرة . ومياه البحيرة ضحلة وأعشابها كثيفة . بوسطها جزر عديدة فوق بعضها مبان قديمة . واتجاه الموج يتغير مع اتجاه الريح . مع طلوع الشمس بدت البحيرة مثل بحر شاسع ضحل ، يمكن لصياد خبير أن يخوضها من جانب إلى آخر !

لجأوا إلى جزيرة منعزلة . الصباح جميل والسماء صحو وهالة ذهبية تحيط بشمس الشروق ، والسمك يتقافز فى الماء وفيرا ، والطيور المائية فى كل مكان ، تهبط لتأكل السمك الصغير ، أحيانا يلتهمها السمك الكبير !

استغرقت الفرجة أمشير ، أسراب الطيور فى مجموعات غفيرة ، ذات أنواع وألوان جميلة . ثم بدأ الصيادون يتوافدون ، خائضين إلى جوار قواربهم المسطحة وهم يرمون الشباك . سارع بالاختفاء ولكن ضرغام طمأنه أن أحدا منهم لن يشى بهم .. وهذا ما كان من أمرهم ..

أما ما حدث للفلاحين وأطفالهم فبعد أن دفنوا ضحاياهم جلسوا يتشاورون فيما يفعلون . رفضوا فكرة الهرب لأنهم يجهلون دروب الصحراء . آثروا البقاء والقول بأن العربان هاجموا المعسكر وسرقوه . ثم نهضوا إلى المخازن ، فى ساعات قليلة أكلوا وشربوا معظم المخزون !

عاد المدير إسماعيل حمدى فجن جنونه ، وبدأ التحقيق والسؤال . ثم أرسل يطلب تجريدة قوية ، جاءت وهاجمت مضارب العربان وقتلت منهم الكثير !!

عاد الانضباط التام واكتشف إسماعيل حمدى غياب ثلاثة رجال ، منهم أمشير الذى جاء بتوصية شخصية من الباشا الوالى . اشتد غيظه وأمر بتعليق أحد الفلاحين إلى آلة العروسة وجلده ، لكنه لم يظفر إلا بالأقوال السابقة . عندئذ أحضر طفلة الفلاح ومزّق ثوبها المهلهل مهددا باغتصابها ، بكى أبوها وقال فى لمحة ذكاء أن الفلاحين الهاربين اختطفا الملاحظ المصرى كرهينة لما عرفا أنه من عمال أفندينا !

كاد المدير ينفجر غضبا . بعد أيام تتصل القناة ببحيرة التمساح ، ويأتى ديلسبس للاحتفال ، وقد يجيء سعيد باشا وتكون المصيبة !

من حسن حظه أن الباشا لم يحضر بسبب مرضه . جاء زوار كثيرون من الفرنجة وفرقة موسيقى عسكرية ، ومفتى الديار المصرية ومطران الكاثوليك وبعض القناصل .. ثم صعد ديلسبس إلى منصة يعلوها العلم المصرى وقال بفرنسية رنانة :

- إنى أصدر الأمر باسم حضرة صاحب السمو سعيد باشا أن تمتزج مياه البحر المتوسط بمياه بحيرة التمساح :

ثم أتى بإشارة معينة فأزال العمال السد الذى كان يحجز مياه القناة عن البحيرة ، بينما الموسيقى تعزف .. وإسماعيل حمدى يحمد ربه على تغيب سعيد باشا ويتمنى له الشفاء ، ويتمنى أكثر أن تعثر شرطة دمياط على أمشير حيا وتقبض على خاطفيه !

* * *

فى قرية المطرية كان شيخها عبد الخالق جالسا أمام داره يخيط تمزقات إحدى الشباك ، عندما داهمته شرطة دمياط ، سأله الضابط عن مواطنيه الهاربين فرد فى هدوء .

- يكونان من الغفلة لو قدما إلى هنا !

- قل الحقيقة أيها العجوز ، لقد خطفا شخصا يهم أفندينا !

لم يظفر بشيء . وفى اليوم التالى ظهرت على سطح البحيرة قوارب الحكومة بأشرعتها العريضة . رآها أمشير كطيور هائلة بأجنحة محدودبة تحلق قرب سطح الماء . فزع وأشار لصاحبيه ، فاختبأوا بين البوص الكثيف . وشرح ميهوب أن هذه القوارب خاصة بالمياه الضحلة ، مفتوحة وذات قيعان مسطحة .

من بكرة النهار وحتى غروب الشمس والعساكر يفتشون أرجاء البحيرة الفسيحة . والصيادون منهمكون فى عملهم اليومى . ارتطمت القوارب بالأسماك وجفلت الطيور

وطارت صائحة .. والثلاثة يراقبون الموقف من بين البوص الأخضر ، والطيور تحط من حولهم دون خوف لامتناعهم عن الحركة . أخذ ميهوب ثلاث بوصات ونظفها للتنفس بها من تحت الماء إن اقترب العسكر منهم . قبل المغيب سارعت القوارب بالرحيل وابتعدت لتبدو أشرعتها في لون الغروب مثل أجنحة طيور نارية !

عادوا للبحث عدة مرات على مدى أسبوع كامل حتى يئسوا .

كل هذا يحدث والصيادون يلقون بالشباك ثم يلمونها ، يحمون رءوسهم بطواق ذات حواف مثل القبعات ، بعضهم يثبت فى القاع عدة قوائم طويلة من الغاب على مسافات تشكل دائرة ، ثم ربطوا فيها الشباك غائصة فى البحيرة ، وخاضوا إلى داخل الدائرة يصطادون السمك المحاصر . بعضهم غطوا رءوسهم بأقنعة حمراء لا يبدو منها سوى العيون ، يغوصون ويظهرون مثل عفاريت الحواديت . آخرون يمسك الواحد منهم بعصا طويلة فى آخرها دائرة من الخيرزان يتدلى منه شبكة على هيئة القمع ، يلقيها فى الماء ويسحبها مسافة ثم يرفعها لتنساب منها المياه والأسماك الصغيرة ويبقى الكبير محاولا الفكاك .

وفى موعدها الأسبوعى وصلت مركب الريس قنديل طوبار الكبيرة العريضة المسطحة . جاءت بالمياه العذبة فى براميل . وقفت وسط البحيرة . توجه إليها الأهالى بالزوارق الصغيرة ، ومعهم الأوانى التى ملأوها وعادوا بها زادا لأسبوع كامل ، مياه النيل المحمولة من فرع دمياط .

مع حلول برد الشتاء بدأت الطيور المهاجرة تصل أسرابا بالآلاف ، وتحط على سطح البحيرة متعبة نهمة إلى التهام السمك الصغير . صار أمشير يميز بين أنواعها ، البط والبجع ومالك الحزين والبشروش بريشه الأحمر المتوهج وهو يغوص الماء مزهوا بجماله .. ثم تتابع وصول أسراب الأوز المصرى والعراقى والحوصل الأبيض الرشيق . جاءت طائرة فوق البحر المالح هاربة من برد موطنها عند القرم وصقيعه ، حيث حارب الجيش المصرى فى معارك لا شأن له بها ، وحيث مات من قرية أمشير

سبعة على الأقل . وبدت كل مجموعة هائلة منها مثل جزيرة طافية ، عندما تحلق تبدو مثل سحابة كبيرة !

ومع وصولها وصلت مياه فيضان النيل المبارك بطميها الغامق فزاد ارتفاع البحيرة وغرقت الجزر الصغيرة ، وغطت المياه الحاجز الرملى الضيق الذى يفصلها عند البحر المتوسط عند حصن الجميل . قال ضرغام لأمشير :

– لكل سرب من هذه الأسراب قائد منها ، يحذو الباقى حذوه فى كل تحركاته ، لا يرتفع طير فوق الماء إلا إذا فزع القائد . فى لحظة ينشر جناحيه صائحا صيحة يعرفونها فيحلق السرب كله خلفه .. وان أفلح صياد فى صيد القائد خفية أصبح فى إمكانه صيد باقى السرب ، وسنفعل ذلك ليلا .

ثم انهمك فى تقشير بعض عيدان البوص وتضفير شرائحه فيما يشبه الخوذة . بينما سبح ضرغام فى خفة تحت الماء حتى تمكن من إمساك طائر من رجليه فطار باقى السرب فزعا ، وعاد هو بصيده الصائح ، ذبحه وفتح بطنه وأخرج أحشاءها وحشاها بالأعشاب ثم خاطها من جديد ، فبدت فى ضوء القمر بطة حية ثبتها فوق الخوذة المضفرة ..

فى سكون الليل هبط ميهوب إلى الماء ووضع الخوذة فوق رأسه وقد جعل بها ثقبين للرؤية ، والبطة المحنطة ظاهرة وكأنها سابحة . وكان قد حدد مكان قائد السرب ، اقترب منه فى خفية وبراعة ، أمسك بساقيه وسحبه بسرعة تحت الماء وذبحه من قبل أن يصرخ ، فظل باقى السرب مكانه نائما . عندئذ نزل ضرغام وصار يغوص ويسحب بطة ثم يذبحها تحت الماء ويتركها ، ويكرر ذلك مع أخرى . ظلا عدة ساعات يفعلان ذلك ، ثم خرجا إلى الجزيرة وجلسا يستدفئان بالنيران التى حافظ عليها أمشير مشتعلة . بمجرد ظهور أول ضوء للفجر خاض الثلاثة وجمعوا البط المذبوح وربطوه من سيقانه فى خيوط طويلة متينة ، توجهوا بها إلى قرية المطرية وأعطوها للشيخ عبد الخالق ، فاستحسن صيدهم ووعدهم ببيع البط بعد نتف ريشه .

هذه المرة جلسوا أمام الدار فى اطمئنان ، وقد صار أمشير مثلهم فى المظهر ولون البشرة ، وراحت أكثر من فتاة تتأمل طلعته الوسيمة فى إعجاب !

وكان سعيد باشا قد عرف بنبأ تمرد فلاحى الحفر وفشل الشرطة فى العثور على أمشير والترجيح بأن مختطفيه قتلاه . زادت صحته اعتلالا ، وبعد تردد استدعى ثروت أفندى وأبلغه خبر موت قريبه !

صدم ثروت وحزنت أمه ثريا ، وقررا التوجه إلى المنيا لإبلاغ الأهل فى أول فرصة سانحة .. والتي سنحت بتدهور صحة الباشا الوالى إلى درجة خابت معه فنون الأطباء، فنصحوه بالسفر إلى أوربا ..

كان ينتظر قرضا فرنسيا ، ما إن وصل حتى حاصره الدائنون وتبدد المبلغ وتأجل السفر . وطلب قرضا فرنسيا جديدا ، وزاد اعتلال صحته فتبرعت زوجته الطيبة إنجى للفقراء .. ثم هرب إلى الإسكندرية ، فتتبعة الدائنون . بمجرد وصول القرض الجديد دفع لبعضهم ، واستعد لبدء رحلة الاستشفاء على ظهر يخته الخاص .

هكذا سنحت الفرصة لثروت ، فسافر مع أمه إلى المنيا لإبلاغ إدريس بنبأ وفاة أمشير . مثل الزيارات السابقة كان دخولهما القرية سببا فى نباح الكلاب وتجمع العيال وصياح الأوز . رحب بهما شيخ البلدة إدريس ، وزوجته بهية تحمل رضيعها الجديد فتوح ، وطه وزوجته بدور وابنهما الفتى حسونة وطفلتهما حسنية التى لم تعوضهما فقدان حسن وحسنين ، وبدر وزوجته هانم وبناتهما ريحانة وياسمينة وقد تزوجتا وأنجبتا ، ووردة وهى على وشك الزواج .. لكثرتهم عجزت ثريا عن حفظ أسمائهم !

لكنها تشجعت بعد إحجام وأخبرتهم بنبأ موت أمشير . بكى الجميع إلا بهية أمه التى ظلت صامتة . أخرجت ثديها ترضع طفلها فتوح ، وزوجها يرمقها فى عطف . بعد فترة قالت لثروت :

– أنا لا أصدق ، قلبى يحدثنى أن ولدى حى !

- أفندينا بشخصه هو الذى أبلغنى .

- أفندينا يبلغك أنت، وقلبى يخبرنى أنا . مازلت أذكر جدتنا الكبيرة المرحومة أم الخير ، اختفى ابنها جدنا المرحوم حتحوت سنوات طويلة ، وظلت مؤمنة بعودته خمسة عشر عاما وهى لا تيأس ، حتى ظنها الجميع مجنونة ، ثم عاد إليها سليما فائزا بحكمة الشيوخ وهو بعد فى شرخ فى الشباب !

ثم إنها منعت زوجها من تلقى العزاء ، ومنعت النسوة من ارتداء السواد !..

حان وقت رحيل ثروت وأمه ، وبينما المركب البخارى يبتعد بهما تأملت ثريا الشاطىء ومدينة المنيا وسورها ، اغرورقت عيناها منقبضة ، شاعرة بأنها لن تشاهد هذه الأماكن مرة أخرى . كانت موفقة عندما أعطت شيخ القرية إدريس نقودا ليبنى لها قبرا إلى جوار زوجها الشاطر .. ثم زال انقباضها بمجرد رؤية حفيدها حبيب .

فى تلك الأثناء كان يخت سعيد باشا يشق أمواج البحر المتوسط ، مبتعدا عن الإسكندرية ، مسترخيا تحت المياه الدافئة التى يصبها خادماه سيد وأنتيرى ، تذكر محنته فقال :

- أنتيرى ، ألم تفكر فيما سوف يقوله التاريخ عنك ؟ ألم يخطر على بالك أن التاريخ سوف يذكر أنك عملت لدى أمير عظيم كنت تحادثه وأنت تصب الماء على جسده من الإبريق ، أمير له مدينة جديدة باسمه ؟!

سالت دموعه حسرة :

- أمير بدين حطم مصر . ماذا سيقول التاريخ عنى ؟!

* * *

استيقظ ولى العهد إسماعيل باشا مبكرا . ركب عربته الفاخرة المطهمة سارت به إلى القلعة ليباشر الحكم بالنيابة ، فى أثناء صعودها كانت المدينة تتسع أمام ناظريه . فى ساحة القلعة نزل ليجد الحاشية فى انتظاره ، تقدموا واحدا تلو الآخر يلثمون ظهر كفه ، وهواء الشتاء يطير أذيال ثيابهم . كان من بينهم مفتش أملاكه إسماعيل

صديق ، ومحمد شريف وعلى مبارك زميلاه فى بعثة الأنجال فى باريس والتى لم يتمها هو ، وعدد كبيرمن المنافقين ، وثروت أفندى أخوه فى الرضاعة .

تقدم إسماعيل إلى قبة الهواء يضم طرفى معطفه ، ليجد القاهرة المترامية الأطراف أسفله ، متربة عتيقة المآذن . قال :

- مسكينة هذه المدينة ، لم يفعل عمى سعيد لها شيئا ، سأحولها أنا إلى مدينة أوربية ، سأجلعها أبهى مدن الشرق .

استدار يتأمل قصر الجوهرة من الخارج ، وقصر الحرم ودار سك النقود وباقى منشآت جده محمد على باشا ، مط شفتيه ودخل إلى قاعة العرش والحاشية من خلفه ، صرفهم وبقى معه ثروت وشريف وصديق . تأمل رسومات الجدران فى استهجان ، وقال :

- قاعة سخيفة ، ألوان فجة ، رسومات تليق بفلاح تركى ، لا تصلح لحاكم متمدن !

دهش ثروت :

- كأن سموك يراها لأول مرة . سبق وجلست على العرش نائبا عن أفندينا مرتين!

اتجه إسماعيل إلى النافذة العالية ، الآن يشعر أنه جاهز لحكم مصر والسودان وملحقاته ، يرغب أن تكون قاهرة إسماعيل أجمل من باريس نابليون الثالث ، طرقات عريضة وحدائق ومدارس تجهيزية وعالية ، ومصانع ومستشفيات وقصور رائعة ومنازل حديثة متعددة الطوابق والشقق ، ودار للأوبرا تفوق ما فى ڤينيا !

استدار وجلس على أريكة الحكم ببذلته الأفرنجية ، وأزرار قميصه المتقاربة حتى العنق ، ومعطف الفرو الثمين ونيشان الباشاوية الذى منحه له السلطان عبد المجيد الذى خلعوه أخيرا . التفت إلى محمد شريف متوددا :

- أنت وأنا من أصول تركية ، ولكن ألا ترى أن مصر بإمكانياتها العظيمة قد آن أوان استقلالها عن آل عثمان . كان هذا حلم جدى الكبير الذى رباك وأرسلك إلى

باريس ضمن بعثتى ، أسألك لأنك درست فن الحرب هناك ووصلت إلى رتبة يوزباشى أركان حرب فى الجيش الفرنسى ..

تدخل صديق :

– رغبة سموك رغبتنا جميعا

قال شريف بدماثة وهو يشعل سيجارا :

– بشرط أن تسمح الظروف الدولية

– ظروف الأستانة تسمح ، السلطان عبد العزيز الجديد لم تظهر له رغبة إلا فى بناء القصور والاستماع إلى شدو جاريته الشركسية مهرى هانم ، التى عشقها وأغرقها بالأموال والمجوهرات ، إنه أكثر إسرافا من عمنا سعيد باشا

– عفوا سموك ، لكنه أيضا يبنى المدارس الجديدة ويعمل على تقوية بحريته وتسليح جيشه بالأسلحة الحديثة ، هذا له مغزاه . الرأى أن نداهنه ونظهر الخضوع له !

– ماذا لو ساندنا صديقنا نابليون الثالث إمبراطور فرنسا ؟

– ستسارع إنجلترا وباقى الدول إلى مساندة السلطان . الرأى أن ننتظر ظروفا مواتية . لكنى أتعجب يامولاى ، هذه الأمور من المفروض أن تشغل بال الوالى !

– فعلا ، لابد أن تشغل بال الوالى !

فى أوربا كان الشتاء معتدلا لكنه بارد جدا على سعيد باشا ، مما ضاعف من علته . لم ينفعه طب الأطباء ولا أدوية الصيادلة ولا وصفات عرافات الغجر . فقرر العودة إلى الإسكندرية التى يهواها ، فلما وصلها وجد فى استقباله بعض الحاشية وكثيرا من الدائنين . بينما بقى ولى العهد إسماعيل بالقاهرة يجهز فرقة سودانية لإرسالها إلى المكسيك بكامل معداتها . على سبيل الإعارة لنابليون الثالث . اندهش ثروت :

– المكسيك النائية جدا . هذه أوامر عجيبة من السلطان الجديد عبد العزيز !

– السلطان لم يأمر . الامبراطور وسّط ديلسبس لدى أفندينا سعيد باشا فوافق!

– لماذا من السود ؟

– قال الإمبراطور إن الحمى الصفراء بالمكسيك فتكت بجنوده لأنهم بيض ، ورأى السود لديهم مناعة![1] .

وكل يوم يخرج إسماعيل باشا من قصره مبكرا ليصعد إلى القلعة ، وكل يوم يتذكر ثروت وصف والده الشاطر لقلعة الحكم : شح فى الوفاء ووفرة فى الغدر ! . فمع اشتداد العلة بسعيد باشا رأى رجال الحاشية يتوافدون على القلعة يقبلون قدمي الوالى المقبل أو طرف سرواله ، هاجرين قدم سعيد باشا الذى لم يبق له إلا دعاء زوجته الأميرة إنجى ، والذى يودع الحياة وقد تخطى الأربعين بقليل ، فى ذات السن التى اغتيل فيها سلفه عباس . وكان أكثر مايدهش ثروت هو اهتمام الجميع الجنونى بمكتب التلغراف . وكانت أمه ثريا فى زيارتها الأسبوعية له كل يوم جمعة عندما زادت من دهشته :

– نصيحتى لك أن تهتم مثلهم . أنا مستعدة لملازمة زوجتك الأيام التالية على أن ترابط أنت بمكتب التلغراف الرئيسى مندوباً عن إسماعيل باشا !

– لماذا أهجر زوجتى وأرابط بمكتب التلغراف ؟!

– هذه فرصة كبيرة . تنتظر تلغراف البشارة بموت سعيد ، تأخذه وتسبق به الجميع إلى إسماعيل باشا ، وسوف يجزل لك العطاء وينعم عليك بلقب البكوية وربما الباشاوية . لن يفيدك الحزن على الوالى الميت ، وإنما الابتهاج بالوالى الجديد !

---

(١) أبحرت القوة السودانية وعددها ١٢٠٠ جندى وضابط فى نهاية عام ١٨٦٢، وعاد منها بعد سنوات حوالى ثلاثمائة فقط !

رمقت حفيدها حبيب الذى يلعب على الأرض ، صار عمره عامين ونصفا وأبوه لا يجيد جمع المال والقفز إلى المناصب الفاخرة ، ويرفض العمل بمشورتها . قالت لثروت :

- اذهب إلى قصر الأميرة خوشيار وسلم عليها ، سألتنى عنك مرارا ، إنها تحبك . .

بالقصر استقبله أغا الأميرة الخطيرة خليل أغا ، حياه بصرامة وقاده إليها . رحبت به وسألته عن طفله ، أمرته أن يحضره معه فى الزيارة التالية ، وقالت :

- تربيته وتعليمه على نفقتى

قبل يدها شاكرا . وكان قد لاحظ أن جميع من بالقصر منهمكون فى جمع المتاع ووضعه فى الصناديق ، الملابس والفضيات والمجوهرات والشمعدانات ، وكل ما هو نفيس . قال مندهشا :

- الأستانة برد الآن يا مولاتى !

- لا أنوى الذهاب إلى الآستانة ، إلى القصر العالى ، قصر زوجى البطل إبراهيم باشا ، هو الذى بناه . سأحتله ولن أغادره . مكانى هناك على النيل ، وليس هنا بصحراء العباسية !

استدعت الطواشى خليل أغا وأمرته بإعطاء كيس به خمسة جنيهات ذهبية لأجل خاطر حبيب نجل ثروت أفندى ، الذى قبّل يدها ثانية شاكرا ، واستأذن فى الانصراف فأمرته أن يمر على غرفة التلغراف ويشدّد على العامل أن يحضر لها البرقيات أولاً بأول .

وجد العامل شابا نحيفا يشع ذكاء ، عرف أن اسمه عبد الله نديم ، وأنه سكندرى ، بدلا من أن يبلغه الرسالة ويرحل ، وجد نفسه يجالسه ويحادثه كما لو كانت تجمعهما صداقة قديمة . عرف أنه يكتب الشعر ، استمع إلى بعض أشعاره . أعجبه خفة ظله وسخريته البديعة . قال نديم :

– أعرف الآن أن تلغرافًا بعينه يصل من الإسكندرية سوف يقلب حال المحروسة ، الجميع هنا يتعجلون موت سعيد . انظر كيف يكون موت إنسان بشارة طيبة لغيره . مات الملك عاش الملك ، قاعدة المنافقين الأزلية، أو الرغبة فى استمرار الحياة !

– سوف تكون نتيجته ذهابك مع حاشية سمو الأميرة إلى القصر العالى على النيل . يقولون إنه جنة !

– هنا قصر وهناك قصر ، هنا سور عالى وهناك سور أعلى . هنا وهناك سيغيظنى خليل أغا بأحقاده ، هذا الخصى الحقود كرهنى من أول نظرة ، لا يعرف إلا الكرباج ، كل يوم يضرب خادما أو عبدا ، جاءت جارية سوداء وأكلت بعض الطعام وضبطها فأمر بجلدها !

تنهد ثروت منصرفا :

– سعدت بمعرفتك يا نديم ، سوف نلتقى كثيرا بإذن الله

حتى مدير شركة التلغراف الأجنبى اهتم بالتلغراف الموعود ، جاءه الخبر بأن الباقى من حياة سعيد باشا ساعات معدودات فسهر الليل كله بجانب عامل التلغراف . جميع البرقيات تصل المكتب الرئيسى أولا ليوزعها على الفروع . لكن الوالى خيّب رجاءه وطال احتضاره عدة أيام ، فعاد إلى منزله لينام بعض الوقت ، وقبل أن ينصرف اختلى بموظف مصرى يثق بإخلاصه وشدّد عليه أن يوافيه إلى منزله حالما يتوفى الوالى ويوقظه لو كان نائما ، ووعده بمكافأة سخية . ثم انصرف ونام وبينما هو يغط فى نومه وصل الخبر ، وكان الموظف الوفى يعلم أن حامل البشارة ينال العطايا والأنعام ، فهرع إلى إسماعيل باشا ، وكان أول من أنبأه ، فمنحه بعض الذهب وخاطبه بلقب باشا ، فصار النطق قرارا .

أطلقت مدافع الابتهاج من القلعة ومن جميع ثكنات الجند حول القاهرة ، وسارع المهنئون إلى القلعة فى كامل أبهتهم وابتساماتهم ، رأى الناس مظاهر الابتهاج ففهموا أن واليا مات وواليا صعد . وأمر إسماعيل بارسال تلغراف إلى محافظ الإسكندرية كى يسرع بدفن سعيد باشا هناك . رأى الانزعاج فى وجه ثروت فقال :

– المرحوم بدين والإسراع بدفنه إكرام له . سامحه الله ترك لى ديونا: أحد عشر مليون جنيه . تزداد بالفوائد . أنت تبكيه لأنه حابى الفلاحين على حساب أبناء الترك والشراكسة . تذكر أنك ابن شركسية وزوج شريهان الشركسية !

احتقن وجه ثروت . ضحك إسماعيل :

– لا تخشى منى ، لا داعى للغيرة ، لدى ما يكفينى ، إن شئت واحدة أخرى أرسلتها لك !

– أنا أحب زوجتى .

– عظيم ، ستكون مكافأتك منصبا خطيرا[1] .

صعد القناصل لتهنئة الحاكم الجديد ، اجتمعوا ببهو القصر ، فخرج إليهم منفوخا محاطا بالباشاوات والحاشية . شكرهم ثم تكلم عن نواياه ، ذاكراً أن أساس الإدارة الصحيح هو النظام والامتناع عن الإسراف ، ثم قال :

– عزمت على عكس سلفى ، أن أرتب لنفسى مخصصات محددة لا أتجاوزها مطلقا، وآمل أن تؤدى حرية التجارة إلى نشر الرفاهية والرخاء بين جميع طبقات الشعب ، وسأعمل على توطيد دعائم العدل ، وعلى إبطال السخرة .

بذكر السخرة تركزت النظرات على القنصل الفرنسى ، الذى قال فى برود القناصل :

– نحن فى فرنسا ضد السخرة ، عقود توريد العمال بين مصر والسيد ديلسبس ، لا دخل لحكومة جلالة الإمبراطور بها .

بعد الانحناءات الواجبة انصرف القناصل هابطين من القلعة فى عرباتهم . وظلت الحمير والبغال والجياد والعربات تصعد وتهبط بالمهنئين . حتى تأخر الليل فخفت الحركة ، لتصعد الدواب بالعازفين والألاتية وثلاث جوقات كاملة ، للاشتراك فى

---

(١) مات سعيد باشا فى ١٨ يناير ١٨٦٣ ودفن بمسجد النبى دانيال بالإسكندرية بعد جنازة مهولة .

احتفالات إسماعيل بنفسه ، كان آخر الصاعدين مطرب العصر محمد عثمان ومغنى الملوك والسلاطين عبده الحامولى وفريدة زمانها ألمظ ..

بينما الضيوف يشنفون آذانهم بعزف محمد العقاد وتقاسيمه على العود ، كان الوالى الجديد يتحدث عن أحلامه وعن إعجابه بمستر لنكولن رئيس دولة أمريكا الجديدة . قال :

– ستكون هذه الولايات المتحدة الأمريكية دولة قوية وخطيرة ، ستتفوق على إنجلترا لأنها تعادل قارة .

قال نوبار :

– كان المرحرم والدكم إبراهيم باشا العظيم يردد أمامى دائما أن محمد على باشا أخطأ بإهدار أموال مصر فى الشام بينما لديه السودان ، الامتداد الطبيعى لمصر لأن النيل يوحّد بينهما .

رفع إسماعيل قبضته فى حماس :

– أبى معه كل الحق . تصوروا لو أنشأت أنا الولايات المتحدة الإفريقية ، من البحر المتوسط حتى منابع النيل ، لكن أمامى عقبتين ، الأولى أن المرحوم عمى ألغى الجيش وباع عتاده ، والثانية أن المساحات الهائلة جنوب السودان غير مكتشفة وليس لها خرائط . هذه لها حل ، سأجعل حاكمى بالسودان يساعد مستر صمويل بيكر فى اكتشاف منابع النيل ورسم خريطته .

وهم يتناولون أنواع الأطايب تحدث عن قناة ديلسبس . فقال شريف باشا :

– حتى الآن امتيازها غير قانونى . عظمة السلطان لم يوقعه ، وبإمكان سموك التنصل منه !

– لن أتمادى إلى هذا الحد . أريد أن تكون القناة لمصر لا أن تكون مصر للقناة!

تدخل نوبار :

- بمعاونة بريطانيا يمكننا إلغاء شرط السخرة فى حفرها ، حتى يتفرغ الفلاحون للفلاحة ، وحتى يتوقف هجوم الدول المتمدنة علينا . منذ أسبوعين وثلاثة أيام فقط أمر مستر لنكولن بتحرير العبيد فى الجنوب الأمريكى !

نظر له إسماعيل معجبا بفكرته . شعر صدّيق بالغيرة وقال فى ذكاء فطرى :

- يا مولانا ، مستر لنكولن يقدم لنا خدمة كبيرة ، بسبب أوامره اشتعلت حرب الولايات عنده ، وامتنع القطن الأمريكى الرخيص عن مصانع أوروبا ، واشتد الطلب على قطننا ، فزاد سعر القنطار ثلاثة أضعاف !

- إزرع جميع أطيانى قطنا . من الآن أنت إسماعيل صدّيق المفتش على عموم أراضى الصعيد ، سلطتك أعلى من حكام الأقاليم .

انحنى يقبل طرف سرواله امتنانا . ابتسم نوبار فى حياد . أعاد محمد شريف باشا إشعال سيجارة . ثم راحوا يهزون رءوسهم فى وقار طربا ، وقد تبارى المطربون بعد الآهات ويا ليل يا عين فى إنشاد الأغانى الجديدة : جمالك يا فريد عصرك ، كادنى الزمان ، أنت فريد فى الحسن ، الله يصون دولة حسنك ، رايح فين يا مسلينى ، يا قمر دارى العيون ..

أعجب إسماعيل بغناء محمد عثمان وعبده الحامولى وقرر تقديمهما للسلطان فى أثناء زياته القادمة للأستانة . وكانت الحفلة فى بدايتها عندما جاءته برقية من خوشيار هانم تبدى فيها رغبتها السامية بأن تقوم المطربة سكينة الشهيرة بألمظ بإحياء الليلة التالية عندها . أمر بذلك ، واستقبل عامل تلغراف الأميرة عبد الله نديم برقية الموافقة وأبلغها على الفور إلى خليل أغا .

مع بشائر الفجر عاد ثروت إلى زوجته القلقة من تأخره . كان نشوانا من الحفل ومن أحلام إسماعيل باشا فانطلق يداعبها ويثير غيرتها ، واصفا جمال العوالم والمغنيات وأناقتهن ، كل واحدة لها ثوب مشقوق أعلاه يسمح برؤية العنق وشق النهدين ، شعرها مضفر بخيوط ذهبية ، على رأسها عمامة مثل الكعكة الكبيرة ، مكحلة الأهداب مخضبة الأصابع والأظافر بالحناء ، حزام الخصر دائم الانزلاق فى أثناء

الرقص لتعيد رفعه فى إغراء وتثنى ، وجميع ذلك على إيقاع الموسيقى ودق الصاجات وتمايل إسماعيل باشا والى مصر .

لثم طفله حبيب النائم وقال :

- غدا ، أقصد مساء اليوم تزورين أمى ومعك حبيب . الأميرة خوشيار طلبت رؤيته . إن تأخر بك الوقت باتى هناك . وسوف تستمعين إلى ألمظ .

قبل أن تخبو فرحة المنصب الجديد ، صعد قنصل فرنسا النصاب بنياشينه وأبهته إلى إسماعيل المزهو بهيلمانه ، وقال :

- يا سمو الأمير ، جاءنى تلغراف من دوق فرنسى نبيل أمين ، يقول فيه إن المرحوم سعيد باشا عندما كان تحت العلاج فى أوربا أعطاه كلمة شرف أن يكون امتياز الكبريت فى مصر من نصيبه ، وهو الآن يطلب تعويضا !

ضحك إسماعيل وأمر له بالتعويض المطلوب . ثم أمر بتعويض وبمعاش لطبيب المرحوم والده ، وأمر بمنحة لسيدة فرنسية من أجل أنها أرملة . فانصرف القنصل ظافرا يحسب عمولته من هذه المبالغ . انتشر خبر كرم الحاكم الجديد ، فتوافد القناصل يطالبون بالتعويضات لرعاياهم النصابين . اغتاظ ثروت وهمهم :

- ألم يتعهد بعدم الإسراف !

سمعه صدّيق فوبخه :

- وهل المال مال أبيك . إنه يتحبب إلى القناصل لأن فرمان السلطان بتعيينه لم يصل بعد . سياسة أيها المتعلم . المال أقصر الطرق إلى قلوب الناس !

بعد أيام توجه إسماعيل باشا بالقطار إلى الإسكندرية ثم الأستانة باليخت . هناك تكلم وتودد ، وجعل المال يتكلم ويقنع . هدية فاخرة للسلطان ، وهدايا ورشاوى للمحيطين به ، فقبل الدعوة لزيارة مصر . وعاد إسماعيل إلى قلعة القاهرة مصطحبا شخصا قصيرا أبيض اللون أشيب السالفين . عرّفه بثروت على انفراد :

– هذا صديقى إبراهام ، يعرف جميع حاشية السلطان والصدر الأعظم ، يعرف باشاوات الأستانة والأغاوات وطباخى القصور . هو بهذا مصدر معلومات خطير . سوف يكون عونى وعينى هناك ، يمدنى بالمعلومات والتوقعات . سوف يرسلها بالتلغراف ، فى رسائل شفرية . عليك أن تلازمه حتى يعلمك طريقة تحويل الشفرة القادمة إلى رسالة مفهومة ، وتحويل رسائلى إليه إلى شفرة يتولى هو هناك حل طلاسمها . معه عشرة أنواع فى عشر كراسات ، ستكون سرا بينكما فقط . ابدأ من الآن . ولا تخبر أى إنسان بذلك .

فى عشرة أيام أتقن ثروت استعمال الشفرات ، منها شفرة تستخدم أسماء الحيوانات وأخرى النباتات وثالثة بالأرقام .. حتى أتقنها جميعا . عندئذ عاد إبراهام إلى الأستانة بعد أن موّله إسماعيل بالتعليمات والمال .

(٩) آهـــات الغــــرام

تلونت بشرة أمشير بلون الصيادين ، اقتربت لهجته من لهجتهم ، ظل ملازمًا رفيقيه ميهوب وضرغام ، وهما يلحان عليه فى البقاء بقرية المطرية ، ويبحثان له عن عروس ، لكنه كان دائم الحنين إلى أمه بهية وأبيه إدريس بن حتحوت ، وبقية أهله وكل قريته . بسبب هذا الحنين ظل يقاوم إعجابه بصبية مليحة سوداء العينين اسمها رباب ، كلما سارت أمامه تعمدت إسقاط ملاءتها ليرى عنقها الطويل ووجهها الخمرى دقيق التقاطيع وشعرها الفحمى . كلما شاهد ذلك ارتبك ، لاحظ صاحباه تأثيرها عليه فصارا يمتدحان جمالها وأخلاقها ، حتى شيخ الصيادين والقرية عبد الخالق أخذ يحرضه بحنكة المسنين على الزواج بها . قال له ذات سهرة :

– أتقنت فنون الصيد بسرعة ، كأنك ولدت على البحر !

– جدى المرحوم حتحوت عمل نوتيًا بالنيل منذ طفولته مع أخيه المرحوم الريس مرسى . كانت لدى الأسرة مركب كبير تنقل البضائع من المنيا إلى أسوان وإلى القاهرة ، جاءت أيام الضيق والكوارث فبعناه !

– سألوا جحا عن وطنه قال : من فيه حبيبتى !

غضّ النظر :

– جئت لأخذ ثأر حسن وحسنين لا للحب ، الواحد منهما بعشرة !

وكان كلما ظهر أحد رجال السلطة ينسحب مع رفيقيه ويغيب عدة أيام . ورباب تظنهم مختبئين بالبحيرة إلى أن عرفت أنهم يتوجهون إلى أرض المستنقعات والرمال حيث يحفرون القناة الجديدة . فى المرة الأولى لم تأكل إلاّ أقل الأكل من شدة خوفها

على أمشير ، ثم ظهر ورفيقاه فى ليلة اليوم الثامن ومعهم بندقية . بينما هم يتناولون العشاء الساخن ، سمكًا وأرزًا ، تبادلوا حكاية ما حدث . لقد اقتربوا من موقع الحفر ، شاهدوا الفلاحين والأطفال والبنات وسياط الملاحظين ، ظلوا مختبئين حتى المساء . عندما حلّ الظلام حفروا حفرة على قدر جسم إنسان ، وظلوا صابرين حتى خرج أحد الملاحظين من خيمته وسار يغنى بكلام أعجمى ، ما إن ابتعد حتى فك سرواله وجلس يقضى حاجته ، فهجموا عليه وكتموا أنفاسه وقضوا على حياته . أخذوا بندقيته وأمواله وألقوه فى الحفرة ، وردموا عليه وعادوا إلى القرية !

انبهر الجميع إلاّ رباب ، عذّبها القلق على حبيبها أمشير وعلى ضرغام وميهوب . تضاعف خوفها عندما اختفوا أحد عشر يومًا ، ثم عادوا ومعهم بندقيتان . هذه المرة حفروا حفرة كبيرة ، فلما خرج أول ملاحظ قتلوه ودفنوه ، وكمنوا فى مكانهم حتى خرج الثانى ينادى عليه فأرقدوه إلى جواره ، وعادوا بالبندقيتين ليخفيهما الشيخ عبد الخالق . وكان يغيظ أمشير أن ذلك لا يوقف العمل فى القناة !

فى المرة الثالثة طالت غيبتهم أسبوعين ، ثم دخلوا المطرية بالليل على ظهور ثلاثة جمال فتية ، مما جعل القرية كلها تتجمع حولهم ، من كان نائمًا استيقظ وجاء ، وجلس يستمع إلى أعجب المغامرات . حكى ميهوب :

– وصلنا وقت المساء إلى موقعهم الجديد وهو أبعد من بحيرة التمساح ، كان يوم وصول قافلة الأكل والماء ، وقد نام المسخرون من إجهاد العمل ، وكذلك رجال القافلة من مشقة الطريق . هذه المرة وجدنا حراسًا ساهرين يتمشون فى كل مكان ، والمشاعل موقدة ومثبتة على الأرض ، والجمال باركة أو واقفة أو تتحرك نحو الكلأ ، بينما كانت حمولاتها على الرمال لم تخزن بعد بالمخزن الخشبى . اقتربنا منه فرأينا بداخله برملين من زيت المصابيح ، سكبنا ما فيهما على الملاءات والبطاطين والخيام والأدوية وجميع مستلزمات الملاحظين والمهندسين ، ثم قام ضرغام بسحب شعلة من مكانها ورماها على المخزن ، سرعان ما اشتعل كل شىء ، فى أقل الوقت كان الجميع يحاولون إطفاء النار بما فيهم الحراس ، فتوجهنا إلى حيث الجمال وأخذنا ثلاثة وأوغلنا فى الظلام

مبتعدين عن النيران . من حسن حظنا أن المدير إسماعيل حمدى كان متغيبًا أو أنه نقل !

قال الشيخ عبد الخالق يلوم ابن بلدته ضرغام :

– أنا لا أفهم جدوى تعريض أنفسكم للتهلكة !؟ كيف نخفى هذه الجمال إذا ما حضرت الشرطة ؟!

– نخفيها فى بطوننا . نذوق طعم اللحم ، نريح بطوننا من أكل السمك !

سرعان ما ذبحوها ووزعوها على جميع البيوت . وظل الأهالى لثلاثة أيام يأكلون لحمًا وطبيخًا . حرصوا على إفهام الأطفال بأن ذلك سر ، حتى إن كل أب كان يسأل طفله : هل أكلنا لحمًا اليوم ؟ فيجيب : سمكًا مثل كل يوم !

قبل غروب اليوم الرابع توجه أمشير إلى البحيرة ، جلس ساكنًا يتأمل الطيور وهى تهبط لتنام . بينما هو شارد سمع وقع أقدام خفيفة ، التفت ليرى رباب تقترب وتدنو وتقف أمامه وتبعد ملاءتها عن وجهها فى عتاب :

– انظر إلى حالى كيف صار ، شاحبة نحيفة بسببك !

– وهل حرمتك من الأكل ؟

– من راحة البال خوفًا على حياتك .

– سأعود إلى الصعيد قريبًا ، وترتاحين منى .

– لن تعود .

دهش . قالت فى جرأة :

– اسمعنى جيدًا . مهما طالت حياتك على الأرض فلن تجد من تحبك مثلى ، وأعرف أنك تحبنى . غدًا تطلبنى من أبى .

ثم استدارت منصرفة . قبل ابتعادها . سألها :

– وإن عدت إلى أهلى ؟

– أذهب معك إلى آخر الدنيا !

جلس هيمان ، حتى إنه لم يشعر بصاحبيه يقتربان منه إلاّ بعد أن صارا إلى جواره . قال ضرغام :

– بنات السواحل أجرأ من بنات الريف . إن أحبت البنت عندنا شاباً صادته ولا يفلت من شباكها !

قال ميهوب :

– اسمع كلامها واطلبها من والدها . هو موافق .

أطرق شاعراً بالميل إلى ذلك . لما ابتسم قال ميهوب :

– مبروك مقدماً يا عريس .

حاول تغيير الموضوع :

– هناك أمر يحيرنى .

– الحيرة من الحب ؟

– لا أقصد هذا . أعنى القناة ، طريقها يمر بمستنقعات كثيرة ، وأجزاء منها نشعت بالمياه قبل تعميقها ، كيف سيحفرون هذه الأماكن وهى غارقة ؟!

– ليس بإمكان الإنسان الحفر تحت المياه !

– على ذلك فإن المشروع لن ينجح .

ابتسم مسروراً ، وكانت الطيور قد نامت وكفت عن الصياح ، وبدأت النجوم تتلألأ فى السماء ، وهواء الليل الشتوى له برودة منعشة ، وقرر أن يطلب رباب من أبيها صباح الغد .

لكن ما تحيّر منه وجعله يتوقع خيبة مشروع القناة ، كان قد فكّر فيه المهندسون ويعرفون له الحل . قبل موت سعيد باشا بشهور كان ديلسبس قد أوصى المصانع الفرنسية بصنع عدة كراكات بخارية ، لكل واحدة منها ذراع طويلة فى نهايتها جاروف ضخم يجرف الرمال من تحت المياه . كان قد دفع بعض المال مقدمًا ، على أمل أن يدبّر الباقى من صديقه سعيد باشا ، فلما مات حزن ، وأخذ يفكر فى حل وحيلة !

ولم يكن إسماعيل باشا يعرف سر الكراكات عندما استقبله فى قاعة الفرمانات هو وقنصل الفرنسيس النصاب . قال ديلسبس :

- جلالة الإمبراطورة أوجينى تبلغكم تحياتها العطرة ، وتوصى سموكم بى !

- نقبل بسرور تحياتها العطرة ، لا أظن أن هذا سبب مجيئك !

- عن مشروع القناة جئت . كان مشروع عمكم المرحوم ، والآن صار مشروعكم .

- كنت أظنه مشروعك يا مسيو ديلسبس !

- المشاريع الضخام تنسب للملوك العظام .

محتارًا بين الزهو والريبة التفت إسماعيل إلى حاشيته ، محمد شريف باشا الشهير بشريف الفرنساوى ، صدِّيق الشهير بالمفتش ، وبعض المقربين إليه ، وثروت أفندى كاتم سر الشفرة التلغرافية . ثم ضيّق من عينه اليمنى تحفزًا والقنصل النصاب يقول :

- نعرف يا مولاى أن عظمة السلطان عبد العزيز سيزوركم الشهر القادم ، وهذا تشريف كبير لسموكم ، هو أول سلطان عثمانى يأتى هنا بعد السلطان سليم فاتح مصر ومدمّر سلطنة المماليك .

- لكم جاسوس ماهر بالأستانة !

تدخل ديلسبس :

– يعرف العالم كله يا مولاى أن السلطان وملكة بريطانيا يريدان إلغاء مشروع القناة ، ما موقف سموكم ؟

– أريد للقناة أن تتم . لكن معارضة مولانا السلطان تجعلها كأن لم تكن . عمى المرحوم سعيد باشا وعد بما لا يملك !

– تقصد سموك الترعة الحلوة والأرض التى على جانبيها ؟

– الفرمانات السلطانية حاسمة ، تمنع تنازل أى والٍ عن شبر واحد من ولايته لأى أجنبى .

– منعًا لحرج سموك أمام السلطان والإنجليز ، قررت التنازل عن الترعة الحلوة وعن ملكية الأراضى على ضفتيها . وهذا عربون لصداقتى !

تطلع إسماعيل دهشة بعينيه الاثنتين . أفلتت منه بسمة فرح ، خبت بسرعة لتحل محلها الريبة :

– أعرف أن عمالى حفروا جزءًا من الترعة العذبة . بالسخرة التى أمقتها ، وأعرف من مهندسىّ النابغين أن الترعة بوضعها الحالى مشروع خائب ، لأن خروجها من عند الزقازيق لن يمدها بالمياه الكافية ، من الضرورى أن تنبع من مجرى النيل الأصلى ، أى من هنا بالقاهرة .

– هذا صحيح والمصلحة مشتركة ، سموك تسترد الترعة والأراضى على جانبيها ، وتشقهاحسب الأصول الهندسية . والشركة تستفيد من مياهها ، لأنها ضرورية لحياة المدن الجديدة التى سوف تنشأ على ضفاف القناة ، فى جنوبها سوف تتسع السويس وتصبح مدينة هامة ، وفى الشمال على البحر أنشأت ميناء بورسعيد ، على اسم الراحل سعيد باشا ، وفى الوسط تقريبًا حيث المقر المصرى للشركة مدينة الإسماعيلية على اسم سموك .

عاد الزهو إلى إسماعيل :

– هكذا يكون الكلام يا مسيو ديلسبس . وأرجو من سعادة القنصل أن يبلغ تحياتى إلى صديقى الإمبراطور وزوجته المبجلة أوجينى .

ضغط القنصل على كلماته :

– يسعدنى ذلك ، ويسعدنى أيضًا أن أرباحكم من بيع القطن قد تضاعفت بسبب الحرب الأهلية الأمريكية . نحن نحب الخير لكم .

بمجرد خروجهما قال إسماعيل لشريف باشا :

– هذا القنصل الحسود ، لو بمصر بخور كاف لأطلقته كله !

– لو كان البخور يدر شر الناس لصار أغلى من الماس . لكن الصفقة رابحة ، وسيوافق عظمة السلطان على القناة .

– هذا ثانى خبر طيب يصلنى مؤخراً ، الأول أن مجرى النيل لم يعد مجهولاً بعد اكتشافات بيكر وسبيك وجرانت ، لابد من الحصول على الخرائط التى رسموها .

قال ثروت متلعثمًا فى البداية :

– عفوًا يا موالى ، سبيك وجرانت ليسا أول من وصل إلى منابع النيل ، المرحوم أبى وصاحبه حتحوت وصلا هناك من قبل أن أولد أنا .

– ومعظم تجار الرقيق زاروهما ، لكن من يضعها على الخريطة يسمى مكتشفًا ، مثلما رسم على مبارك خريطة بحيرة المنزلة وقال : إنه اكتشفها [1] .

بعد ذلك بأيام بعث السلطان لإسماعيل رسالة يشترط فيها لموافقته على امتياز القناة أن تحذف منه الفقرة الخاصة بتسخير المصريين فى حفرها . وتلقى تلغرافًا

---

(١) سبيك وجرانت هما مكتشفا بحيرة أكروى منبع النيل الدائم . وكان صمويل بيكر الإنجليزى قد حاول ذلك عن طريق الخرطوم ، فوصل إلى غندكرو فى ٢ فبراير ١٨٦٣ وكانت حملات البكباشى سليم قبطان قد وصلتها فى عهد محمد على سنة ١٨٤١ . وهناك قابلاه وأخبراه بنبأ اكتشافهم البحيرة الأم التى سميت فيكتوريا على اسم ملكة إنجلترا . فتابع سيره حتى اكتشف بحيرة ألبرت فى ١٤ مارس ١٨٦٤ .

بالشفرة من إبراهام بالأستانة ، انهمك ثروت فى حلها ، فإذا بإبراهام يؤكد أن قرار السلطان بمنع السخرة تأخر أربعة أعوام كاملة بناء على إلحاح السفير الفرنسى لديه . ثم صدر مؤخراً بناء على طلب السفير ذاته !

احتار إسماعيل أمام هذا اللغز ، لماذا غيّر السفير رأيه ؟ شم رائحة مؤامرة . لكنه أوقف إرسال الفلاحين إلى القناة ، وصار يسخرهم فى تقوية الجسور ومد السكك الحديدية الفرعية فى مزارعه الشاسعة ، وفى شق الترعة التى تنازل عنها ديلسبس وسماها على اسمه : ترعة الإسماعيلية .

ثم سرعان ما انشغل بالإعداد لوصول السلطان ، سافر بقطاره الخاص إلى الإسكندرية ليكون فى استقباله . أمر بزينة سراى رأس التين ابتهاجًا . استبعد أن يحضر عبد العزيز معه جاريته الشركسية الحسناء مهرى هانم ، وإن تمنى حضورها . عندما رسا يخت السلطان كان جميع القناصل فى استقباله ، وإسماعيل وحاشيته وجموع غفيرة من المرابين الأجانب بالإسكندرية ، بثيابهم الزاهية الفاخرة . تنوعت الأزياء ما بين تركى وعربى وفرنسى وروسى ونمساوى ومالطى وإنجليزى ويونانى وإيطالى . ازدانت رءوسهم بالعمامات بألوانها والقبعات العالية والقصيرة والطرابيش . وبالخارج انتظرت مركبات الوالى الملكية وعشرات الجياد والبغال والحمير مع السياس والصبية والعبيد . وانتشر العسكر والعسس فى كل شبر .

نزل السلطان فى أبهته ، من خلفه الصدر الأعظم فؤاد باشا وأفراد حاشيته فى اختيال وتعال . تقدم إسماعيل يقبل يد عظمته ، ثم اصطحبه فى عربته بادئًا زيارة الإسكندرية ، وقد ازدحم الطريق بالأهالى ، الذين جاءوا للفرجة أو للتبرك برؤية الخليفة السلطان ، الذى صلى الجمعة بجامع سيدى الأباصيرى فى مقصورة خاصة .

لكن محطة السكة الحديد خلت إلاّ من الشرطة والعسس وبعض حرس السلطان وخفينه . اندهش عظمته من منظر القطار الأسود المزدان بالنقوش الذهبية والحمراء . كانت أول مرة يشاهد فيها قطاراً ، فاستكثر فى سره أن تحظى ولايته مصر بالقطار قبل تركيا مقر السلطنة !

عندما دخل إلى العربة الفاخرة جلس إلى جوار النافذة وأمامه إسماعيل ، وتفرق الأعوان والحراس على العربات الأخرى ، جلس شريف باشا الفرنساوى يجامل الصدر الأعظم فؤاد باشا رئيس وزراء الإمبراطورية . وصار كل باشا يجلس مع الباشا الذى من رتبته ويتبادلون المجاملات . مع تحرك القطار أخفى السلطان انزعاجه بصعوبة . تذكر حادثة سقوط القطار فى النيل بأحمد رفعت الذى كان واليًا للعهد ، لكنه اطمأن لوجود إسماعيل معه !

مضى القطار ينفث الدخان الكثيف من مدخنته ليتبدد فى الهواء ، ويتناثر بعضه على وجه السلطان الذى رفض إغلاق النافذة الزجاجية ، وراح يتأمل الأراضى المزروعة الشاسعة ، والأبقار ترعى فى هدوء وقد ألفت صخب القاطرة . رأى أن خير مصر وفير، وقرر أن ينتهز الفرصة ليطالب بزيادة الجزية !

عبر القطار النيل عند كفر الزيات بسلام ، ثم عبر النيل مرة أخرى عند إمبابة فوق الصنادل القوية المعدة لذلك ، حتى دخل المحطة . نزل الضيف ليجد استقبالاً أضخم من استقبال الإسكندرية . خرج سائرًا بين صفين من الأمراء والذوات العظام وكبار الضباط ، بين تهليل آلاف الناس ، حتى ركب مركبة إسماعيل المزدانة بنقوش الذهب ، تجرها خيول أربعة مغطاة ظهورها بأغطية مطرزة بخيوط الذهب والفضة . سار من أمام فندق شبرد ثم من جوار حديقة الأزبكية ، ثم شارع عبد العزيز الجديد الذى سمى على اسمه احتفاء بزيارته .

أخيرًا صعد إلى القلعة ، ليكون مقره قصر الجوهرة ، وليكون الجميع فى خدمته . وإسماعيل يبالغ فى الحفاوة ويغمره بهدايا وتحف قاربت أثمانها مليون جنيه ، منها يخت بخارى بعد أن قرر شراء يخت جديد لنفسه يسميه المحروسة ، وجارية شركسية فى الرابعة عشر من عمرها تجيد الغناء ، فى خدمتها عبد طواشى وست جوار سود وثلاث بيض ، كان قد اتفق مع أكثر من واحدة منهن أن يكنّ عيونًا له داخل قصر المابين ، وأفهمهن الطريقة السرية التى يتصلن بها مع إبراهام رجله بالأستانة . إلى جانب الهدايا التى أخذها أفراد الحاشية . أما الصدر الأعظم فؤاد باشا فقد أبدى رغبته السامية فى أخذ هديته مالاً ، فمنحه إسماعيل ستين ألفًا من الجنيهات الذهبية !

أدى السلطان صلاة الجمعة بجامع محمد على بالقلعة داخل مقصورة خاصة وضعت بجوار المنبر . ثم زار المتحف المصرى والأهرام والقناطر الخيرية ، ومصانع القطن والحرير ببولاق . كلما خرج تجمعت الحريم والصبى توفيق وأمه شفق نور من وراء مشربيات قصر الحرم ، يتفرجن عليه بأبهته وهو محاط بالحاشية والحراس وإسماعيل !

وكما جاء بأبهته رحل بالهدايا الثمينة . وفى أثناء سفره إلى الإسكندرية طفحت من عينيه نظرات الحسد وهو يرى المزارع والأبقار السمينة ، فتمنى إسماعيل لو كان بمصر بخور يكفى لتبخيرها كلها من الحسد (١) .

بعد رحيل السلطان بأسابيع ماتت إحدى الأبقار فى الدلتا ، بكاها صاحبها أكثر مما لو كان بكى ولده . بعد أيام ماتت بعض الأبقار فى أماكن أخرى . كانت البقرة تقف خائرة ثم تنهار عاجزة ، فى ساعات قليلة تموت . لم يتنبه أحد بالقاهرة إلى ذلك . وكان إسماعيل قد تقوى بزيارة السلطان ، فأمر بإعادة التجنيد لزيادة الجيش استعداداً لفتوحاته بإفريقيا . وأمر بإعادة ديوان المدارس وبفتح مدرسة تجهيزية بالعباسية ، وأخرى ثانوية برأس التين بالإسكندرية . وعيّن على مبارك ناظراً على القناطر الخيرية ، ولم تكن بواباتها الحديدية قد ركبت على عيونها ، كانت فى حاجة إلى تقوية كى تتحمل ضغط المياه خلفها .

بينما موت الأبقار لا يتوقف ، تزايد وانتشر فى الدلتا كلها ، شاع موتها وأتى على نصفها ، واستفحل حتى قضى على معظمها ، ثم أتى على البقية ، وأصيبت به الغزلان ، وامتلأت فروع النيل البطيئة الجريان بآلاف الرمم المتعفنة . توقع الأطباء انتشار الكوليرا أو الطاعون فى الصيف التالى . خلت الدلتا تماماً من الحيوانات ، فتعطلت آلاف السواقى ، تاركة الأرض الخصبة فريسة للتصحر ، وتعرض محصول القطن للدمار . ومن رأفة الرحمن نجت الخيل والحمير والماعز !

---

(١) زيارة السلطان العثمانى فى أبريل ١٨٦٣ وما زال شارع عبد العزيز باسمه .

كان النيل مرتفعًا فى منتصف الصيف ، مع الخريف فاض وحطم جسوره فى القاهرة والدلتا ، فتلفت بالات القطن وزكائب الغلال ، وانقطعت السكك الحديدية فتعذر وصول البضائع إلى الثغر لعدة شهور . عندئذ تحرك إسماعيل وأرسل جميع الأطباء البيطريين والبشريين إلى الدلتا للبحث عن دواء لهذا الوباء . وأمر المديرين والمأمير ومشايخ القرى بانتشال الرمم ودفنها .

أراد إنقاذ الصعيد فأمر ثروت بإرسال الأوامر التلغرافية إلى كل مأمور وشيخ قرية بأن يدفن على الفور أى حيوان يموت ، ومن أهمل جلد ثمانين جلدة ، وإن تكرر الإهمال قطعت رأسه بالفأس ، فإن أهمل دفن حيًا . سأل ثروت :

– كيف يدفن حيًا بعد قطع رأسه بالفأس ؟!

– صغ الأمر كما يجب . الأرض بدون البهائم تبور ، الأبقار تدير السواقى وتجر المحاريث وتمد أطفال الفلاحين باللبن . لدينا تعاقدات هائلة لتصدير القطن ، علينا أن نفى بها وإلا طالبنا الأجانب بالتعويضات !

قال صدِّيق المفتش :

– عفوًا يا مولاى ، قطن سموك بالصعيد سليم والحمد للّه . وقد اندفع باقى الملاك كبارًا وصغارًا إلى تقليدنا وزرعوا قطنًا ، وهذا يفى بالتعاقدات . لكن المشكلة سوف تكون فى ندرة الغلال والخضار لعدم زراعتها أصلاً ، وندرة الألبان والجبن والسمن لموت أبقار الوجه البحرى . أنا شخصيًا حافظت على تفتيشى .

– أنت ماهر يا صدِّيق .. يا شريف باشا ، اجمع حكام الوجه البحرى المهملين وأرسلهم منفيين إلى فازوغلى ، وصادر أطيانهم !

ثم أمر باستدعاء مرابيى الإسكندرية ووكلاء بنوك أوربا بها ، وطلب منهم استيراد مئات الآلاف من حيوانات الذبح والتربية ، من أوربا وآسيا وتركيا ، وعدة مئات من الطلمبات والمحاريث البخارية ، وكميات ضخمة من الزيوت والأطعمة . فهرولوا ينفذون الطلبات ويوردونها بأبهظ الأسعار !

وسط هذه الهموم صعد قنصل فرنسا إلى القلعة ومعه ديلسبس يحمل حقيبة منتفخة بالأوراق . استقبلهم إسماعيل ببشاشة الصديق ، بعد التحية والسؤال عن نابليون الثالث وزوجته أوجينى ، عرف أن ديلسبس يريد بعض التعويضات المالية !

سأله ساخطًا :

– هل ماتت لك أبقار بالدلتا ؟!

أخرج من حقيبته ملفًا :

– ما أريده من تعويضات عادلة مسجلة فى هذا الملف . سأتركه لسموك للاطلاع عليه مع رجاء الموافقة . أتمنى يومًا سعيدًا . عن إذن سموك .

قلّب إسماعيل الأوراق . على الفور اختفت بشاشته وتجهم :

– هذا ابتزاز . ابن الخنزيره يظننى أبله مثل عمى !!

صاح فى يا وره :

– الحق بابن العاهرة ديلسبس وأرجعه . اسمع ، أرجعه بحزم ولكن بأدب .

لحق الياور به عند بوابة السور . اعترضه فى أدب ورجاه أن يعود معه .

قال القنصل النصاب فى صلف :

– سنعود فى يوم آخر . لدينا أعمال !

– مولاى يريد مسيو ديلسبس ، وأنا عبده !

كان سبعة من الحراس قد لحقوا بالياور . فقفلا عائدين ، دخلا قاعة العرش . أمرهما إسماعيل بالجلوس . جلسا . أعطى الملف لشريف باشا :

– اقرأ هذه المطالب العادلة بندًا بندًا .

قرأها بلسان فرنسى سليم حتى النهاية . ثم قال إسماعيل لديلسبس :

– كيف تطلب تعويضاً ضخماً عن الترعة العذبة وأنت الذى جئت طواعية بحضور قنصلك هذا وتنازلت عنها ، فى نفس هذه القاعة ؟!

– تنازلت عن الترعة وليس عن التعويضات . أريد ما أنفقته على الجزء المحفور منها ، والتعويض عن المكاسب التى كانت ستجنيها الشركة بعد تشغيلها من رى الأراضى على ضفتيها .

– ليس لك أية حقوق منذ البداية !

تدخل القنصل :

– العقد شريعة المتعاقدين .

– اسكت أنت من فضلك .

– أنا أحتج . سوف يكون لجلالة الإمبراطور كلام آخر مع عظمة السلطان !

– لست إلاّ لصاً مرابياً وعاراً على الإمبراطور !

هبّ ينصرف . وقف ديلسبس . وقف الحراس فى طريقهما . قال إسماعيل :

– اتركوا القنصل يذهب .

ذهب بعد تردد . وجلس ديلسبس . واجهه إسماعيل :

– كما أنه ليس من حقك طلب تعويضات عن إلغاء السخرة . صحافة بلادك والعالم المتحضر كلها تهاجم السخرة . لم يكن السلطان قد وافق على امتياز القناة . بدون موافقته ليس لامتيازك صفة قانونية . ثم إنه هو الذى أمرنى بإلغاء بند السخرة .

– سوف أجلب عمالاً من فرنسا أجورهم عالية . وأنا لست مفوضاً من الشركة لمناقشة هذه المطالب . بعد إذن سموك ، هل أنا أسير ؟!

– تزعم أنك قريب لأوجينى المبجلة ، لا أظن أنها والإمبراطور يوافقان على هذا الاحتيال . أنا أثق فى شرفهما .

– لنحتكم إليهما وأنا أقبل حكم مولاى الإمبراطور .

بعد أخذ ورد ومقاومة يائسة من إسماعيل وتلاعب من ديلسبس . أرسل الباشا وزيره نوبار إلى الآستانة وباريس للسعى لتخفيض هذه المطالب الجائرة . فى باريس دخل معركة حامية مع محامى الشركة على صفحات الجرائد لكسب عطف الناس دون طائل . واستقر الرأى على قبول التحكيم أمام نابليون الثالث رغم عدم ارتياح نوبار لذلك !

* * *

أما قرية المطرية فلم تتأثر بالطاعون البقرى لاعتماد أهلها على الأسماك . وكان أمشير ورباب يستعدان للزواج ، فتوجه مع صديقيه ميهوب وضرغام إلى مدينة دمياط لشراء الشبكة وأثاث قليل بما ربحه من صيد الأسماك والطيور .

كانت دمياط تشكل هلالاً متسعاً على ضفة النيل وهو يصب فى البحر المتوسط ، أمامها سهل فسيح تحده شمالاً غابة من النخيل ، تعلوا عنها مآذن المساجد . بينما ترفرف أعلام الدول فوق بيوت القناصل وساريات السفن البخارية .

تجولوا فى أسواقها الضيقة المعتمة ، بين باعة القصب والفواكه والأرز والغلال والتبغ والمشمش المجفف والأوانى الخزفية وصيد البحيرة وبلح الصالحية ، إلى أن وصلوا إلى محل الصائغ فانتقى أمشير حلية ذهبية صغيرة وبعض قطع الزينة الفضية . ثم اتفق مع نجار على ما يريده . وبعد الغداء تجولوا فى المدينة .

بينما هم يتسكعون شاهدوا قافلة من الجمال تأتى من الميناء حاملة بعض الصناديق الخشبية المغلقة بإحكام متوجهة إلى خارج المدينة ، عرفوا أنها خاصة بشركة القناة ولا أحد يعرف محتوياتها ، لأن ما يرد إلى الشركة يدخل دون تفتيش أو جمارك . قال ميهوب لأمشير :

– حتى تجار الفرنجة لا يدفعون . يرسون بالمراكب بعيداً عن الموانئ ثم ينزلون بضائعهم ويدخلونها إلى مصر . جميعنا نعرف ذلك . بعضها ينزلونها ليلاً عند طابية الجميل قرب مدخل البحيرة !

– لماذا لم تخبرنى من قبل ؟

– وماذا يهمك ؟ الريس طوبار ينقل لهم بضائعهم عبر البحيرة .

فى طريق عودتهم نهار اليوم التالى بعد أن باتوا فى إحدى المساجد ، دفعهم فضولهم لمعرفة محتويات الصناديق ، فتسللوا نحو المستنقعات ليجدوا الفرنجة قد أخرجوا أجزاء حديدية كبيرة ، أخذوا يركبونها بمسامير وصواميل وعدد وآلات ، لم يدركوا كنهها . كانت الحراسة مشددة فانصرفوا فى خيبة وحيرة . ولم يخطر على بال أمشير أنها إحدى الكراكات الكاسحة التى ستحفر فى الأماكن الغارقة !

عادوا إلى المطرية . طلب أمشير رؤية الريس طوبار . بعد عشاء وسهرة طويلة عرفوا منه أنه يتقاضى عن كل نقلة كيسين ، أى عشر جنيهات ذهبية ، وأن مهمته تنتهى عند مصب فرع النيل فى البحيرة ، وهناك ينزلون البضائع ليلاً لتنقلها المراكب النيلية الكبيرة إلى داخل مصر فى وضح النهار ، رافعة إحدى رايات الفرنجة ، فلا يجرؤ أحد على اعتراض سبيلها أو تفتيشها . وقال : إنه مستعد للمشاركة فيما ينوون فعله !

وفى ليلة مباركة احتفلت القرية بزفاف ثلاث عرائس إلى ثلاثة شبان ، فرح الأهالى وغنوا ورقصوا وصفقوا حتى الفجر . أخيراً اختلى أمشير بزوجته رباب ، لمحت الحزن فى عينيه ، سألته :

– ألست سعيداً بزواجى ؟

– أسعد مخلوق . تذكرت أبى إدريس وأمى بهية . تمنيت لو كانا معى !

رمقته فى حب :

– لنذهب إليهما إن شئت ، سأكون لهما خادمة مطيعة .

احتضنها وقد زادت محبتها فى قلبه ، وضاجعها وعلقت منه فى لحظتها . بعد انقضاء أيام العسل الست توجه فى اليوم السابع إلى البحيرة . ظل كلما رأى مركبًا بشراع عريض يسأل إن كانت للريس طوبار إلى أن أشار له ميهوب :

– هذه مركب الريس طوبار ، وهى متجهة الآن صوب طابية الجميل .

فأدرك أنه فى سبيله إلى نقل بضائع إفرنجية إلى داخل البلاد تهريباً . على الفور اختلى بميهوب وضرغام وأبلغهما خطته الجديدة . وفى الليل كمنوا يراقبون باخرة كبيرة وقفت فى البحر المتوسط ، وبعض القوارب تنقل منها البضائع إلى مركب الريس طوبار . بعد أن رصدوا ذلك انصرفوا إلى عائلتهم .

مساء اليوم التالى كانوا يختبئون عند مصب النيل فى البحيرة . ظلوا صابرين حتى لاح شراع الريس طوبار خافتًا فى الليل ، ورست مركبه وأنزل رجاله إلى البر ستة صناديق خشبية ، ثم عادوا من حيث جاءوا . وبقى مع البضاعة خمسة من الفرنجة يحملون البنادق ، فى أحزمتهم المسدسات . أشعلوا مصباحًا وجلسوا للحراسة .

همس ضرغام لميهوب :

– هم خمسة مسلحون ونحن ثلاثة عزل ، نسينا إحضار المسدسين !

– ننتظر قضاء الحاجة .

بعد حين أكل الفرنجة وشربوا من زاد معهم ، ثم انفصل أحدهم إلى الخلاء لقضاء حاجته ، فى خفة النمور وثبوا عليه وكتموا أنفاسه وصعدت روحه إلى جهنم . ثم سارعوا إلى مكمنهم يترقبون ، حتى نهض الثانى يبحث عن زميله ، فقفز عليه ضرغام وحده وهزمه . بعد ذلك ألقى أمشير بطوبة إلى الماء ، التفت الثلاثة الباقون إلى النهر شاهرين السلاح ، فى أقل من لمح البصر وفى ذات اللحظة وجدوا أنفسهم واقعين فى الماء ، فى صراع شرس مع ميهوب وأمشير وضرغام ، الذى سبق زميليه فى الإجهاز على ضحيته ، تبعه أمشير الذى ظل ضاغطًا على عنق رجله حتى اختنق ، وكان ضرغام قد ساعد ميهوب على الثالث ، بعدها صعدوا إلى البر يستريحون . ثم نهضوا ودفنوا الخمسة وموهوا بالرمال من فوقهم ، واتجهوا إلى الصناديق فوجدوها ثقيلة جداً . فتحوا إحداها وذهلوا مما بداخله !

بعد التشاور استقر رأيهم على إخفاء الصناديق إلى حين نقلها . فى المساء التالى أخبروا عبد الخالق شيخ القرية بغنيمتهم الجديدة . فاستنكر خائفًا :

– أربعة صناديق بنادق وصندوقان ذخيرة ؟! هذا خطير ! . لن أعاونكم إلاّ إذا وعدتمونى بالكف عن هذه الأمور الطائشة !

وعدوه . وفى جنح الليل توجه معهم تسعة رجال أشداء ، حمل كل اثنين صندوقًا ، دخلوا بها إلى القرية فى هدأة الليل ، وضعوا صندوقين متجاورين حذاء حائط دار عبد الخالق ، بسرعة بنوا من حولهما بالطوب والطين بحيث بدوًا مثل مصطبة . فعلوا ذلك مع الصناديق الباقية ، بحيث أن الأطفال عندما استيقظوا فى الصباح وجدوا بالطريق ثلاث مصاطب جديدة على وشك أن يجف طينها . قبل مغيب الشمس كان من الممكن الجلوس عليها !

مضت حياة أمشير رتيبة ، صار يخرج كل يوم للصيد ويعود مع الغروب ، وكل يوم يزداد حنينه إلى أهله ، ويزداد حمل رباب انتفاخًا ، ما إن بلغ الشهر السادس حتى قرر السفر إلى المنيا ، أحب أن تلد فى دار الأسرة . ووافقته على الفور .

استقلاّ مركبًا من دمياط ، فرد شراعه الكبير وتهادى فوق المياه ضد اتجاه التيار ، ومعهما طعام يكفى عدة أيام . والمركب يحمل أرزًا . والحقول على الجانبين يهوِّم فوقها الحزن ، دون أبقار ترعى أو تدير السواقى . من حين لآخر ترتطم جيفة منتفخة بحافة المركب فى انتظار من ينتشلها ، وكل شيخ قرية يدفعها إلى الزمام التالى للتخلص من عبء دفنها . ورياح الشتاء تدفع المركب جنوبًا . جاء غراب وحط على الجيفة وراح ينقر فيها وينعق !

فى اليوم الثالث رست المركب على مقربة من قرية القناطر الخيرية . اكتريا حمارين إليها ، ومنها اكتريا جَمَلَيْن أوصلاهما إلى القاهرة قبل هبوط الظلام . كان لابد لهما من المبيت ، فتوجها إلى دار ثروت أفندى ، الذى سمع دقًا على الباب . نزل بشمعة وسأل عن الطارق ، سمع الاسم ولم يصدق . سأل مرة أخرى وأنصت إلى صوت الطارق :

– أنا أمشير يا ثروت أفندى ، ابن إدريس وبهية .

فتح الباب رافعًا الشمعة حتى تأكد من وجهه ، فاندفع يردد :

– الحمد للّه . أنت حى . صدق إحساس أمك . أنت حىٌّ تُرْزَق !

– حى أُرزق وزوجتى حامل .

صعدوا إلى الطابق الأعلى وجاءت شريهان وطفلها حبيب . بعد التحيات والتعارف حكى أمشير حكايته من البداية للنهاية . اهتم ثروت جداً بموضوع البنادق والذخيرة ، سأل أكثر من مرة :

– إلى من كانت هذه الأسلحة متوجهة ؟

– كيف نعرف ونحن نجهل لغة الإفرنج الخمسة ؟!

ثم أخبرهما ثروت أن الأبقار التى أمر إسماعيل باشا بإحضارها من أوربا وآسيا تصل تباعًا :

– وبمجرد وصولها تعرض للبيع على المزارعين بأقل من ثمنها ، حتى يواصلوا فلاحة الأرض ، وهذه خصلة محمودة فى أفندينا ، يعترف بها الفلاحون ويدعون له فى صلواتهم . كما أنه استورد علب السمن ، وصاروا يطهون بها طعامهم رغم غرابة مذاقه ورغم ما أشيع أن بها شحم خنزير !

بعد ذلك استمتعت رباب أكثر من أمشير بأكل الطبيخ واللحم وحلوى المهلبية وأُم على وشراب التمرهندى . قبل التوجه إلى النوم قال ثروت :

– لن تسافر حتى أخبر أُمى ، ستكون أسعد إنسانة غداً ، وقد ترغب فى إرسال هدية معك إلى الأهل . كم تغيرت الأوضاع فى غيابك ، ذهب حاكم وجاء آخر !

نام الجميع حامدين الحافظ الستار ، واستيقظوا شاكرين نعمته . وكانت الأميرة خوشيار هانم قد نفذت رغبتها وانتقلت إلى القصر العالى على النيل . من بكرة الصباح توجه ثروت لرؤية أمه ، يعرف أن الأميرة تستيقظ مبكرة ، وأن أفراد حاشيتها يستيقظون قبلها . قاده خليل أغا إلى الحديقة ، حيث كانت أمه ثريا مع الأميرة ، شهقت من شدة الفرحة لنجاة أمشير وتعجبت خوشيار :

- مثل حكايات السندباد يا ثروت بك ...

سكتت تستوعب ما نطقت :

- قلت ثروت بك !

دقت الجرس النحاس تستدعى خليل أغا وأمرته :

- قل لعامل التلغراف أن يرسل إلى ولدنا أفندينا باشا بأن يكون ثروت أفندى من اليوم ثروت بك !

بحسد ظاهر مضى الأغا يبلغ الأمر لعبد اللّـه نديم . بينما اندفع ثروت يقبل يد الأميرة وهى تضحك جذلى . فلما نوى الانصراف أخذته أمه إلى غرفتها ومن مخبأ تحت الإيوان أخرجت له ثلاثة جنيهات ذهبية وأوصته أن يشترى بعض الهدايا لأمشير وزوجته لأن قدومهما قدوم السعد ، ثم قالت :

- اطلب منه أن يعطى هذا الكيس إلى إدريس من أجل إتمام مقبرتى .

تأمل شعرها المصبوغ بالحناء وفعل الزمان فى وجهها الوديع ، قبّلها متأثراً ومضى . فى طريقه مر على غرفة التلغراف لتحية صاحبه نديم ، الذى تلقاه مهللاً :

- مبروك يا ثروت بك . أرسلت البرقية الآن . هذا صباح مبارك زاد فيه راتبك عدة جنيهات من الذهب الرنان . جاءتك الترقية من أعلى سلطة فى البلاد !

- أشكرك . كيف حالك مع الشعر والنيل إلى جوارك ؟

- لا يرى النيل إلاّ من جلس فى الدور العلوى . إن حالى شرم برم !

فى الطريق إلى القلعة تذكر ثروت عملية تهريب الأسلحة والذخيرة ، تردد فى إبلاغ إسماعيل باشا ، الذى تلقاه مرحباً :

- ثروت بك .. برافو الوالدة باشا لأنها ذكرتنى . أنت تستحق اللقب منذ مدة !

رأى ثروت أن واجب الإخلاص يلزمه بالمصارحة ، فروى له الحكاية على أن أمشير سمعها من بعض الأهالى . بان الغضب وبعض الذعر على وجه إسماعيل :

- لابد أنها مهربة لأخى مصطفى فاضل غير الفاضل ، أو لعمى اللئيم عبد الحليم . الاثنان يكرهانى ويطمعان فى عرشى . حليم عنده أراض شاسعة فى الصعيد لا أعرف ما يدور بداخلها ، جائز أنه يخزن السلاح هناك . لابد من طردهما من مصر . سأعمل على شراء أملاكهما وترحيلهما . ألا تكفينى منغصات ابن الزانية ديلسبس !

- قد تكون يا مولاى عملية تهريب عادية بقصد الربح ؟

- الأولى أن يهرّبوا ما خف حمله وغلا ثمنه !

* * *

مع بشائر الفجر توجه أمشير ورباب إلى الباخرة النيلية ، كانت الدرجة الأولى بها مزدحمة بالتجار اليونانيين والإيطاليين والمالطيين ، وبضائعهم الإفرنجية المعدة للبيع فى مدن الصعيد . فى الطريق شاهدت رباب ذهبيات السواح صاعدة إلى الأقصر أو هابطة شمالاً ، وأحد مراكب العبيد متجهة إلى القاهرة ، وعكسها مراكب المغضوب عليهم إلى أسوان ثم إلى فازوغلى بالسودان ، ورأت التماسيح لأول مرة فى حياتها . وكان من حسن حظها أن الباخرة وصلت قبل الغروب ، فأسرع أمشير يخرج بها من باب المدينة قاصداً قرية تلة .

ضاع تعبهما مع فرحة العائلة والعناق والبكاء والزغاريد ، أمرت بهية بذبح أوزتين لأجل طعام ولدها العائد وزوجته الحامل ، وأحضرت لهما لبن ناقة طازجًا شرباه فاستعادا نشاطهما .

كان الليل محتمل البرودة وقد ظهر القمر بدراً منيراً ، ارتفع فى السماء وفاض نوره على كل الأشياء كأنه شمس خابية ، فصارت كل الألوان مرئية، وبدا الليل نهاراً مكبوتًا ملفوفًا بالشجن . وقد جلس الجميع يستمعون إلى بعض ما مر على أمشير فى تغريبته بصحراء السويس والبحيرة المالحة . وبقيت أمه تتفرس فيه ثم ضحكت فى فوز :

- قلت لكم ، حدثنى قلبى أنه حى وصدق ظنى ، وقلبى يحدثنى الآن أنه سوف يتغرب مرة أخرى ، لكنه سيعود سالمًا بإذن اللّه . الغربة مكتوب على جبين بنى حتحوت :

كان النعاس قد تسلل إليهم ، فانصرف أهل القرية ، وطار النوم من عيون الأسرة عندما علموا بنبأ حصول ثروت على رتبة بك . قال إدريس :

- ذلك لأنه متعلم ويجيد اللغات .

أكملت بهية كمدًا :

- وأخو أفندينا فى الرضاعة ، وأمه شركسية !

لم يعلق أمشير وقد شدت انتباهه التغيرات التى حدثت بالدار . أضاف والده حوشًا فسيحًا ، وبنى الشرفة التى يجلسون فيها ، ووضع أريكة إلى جوار الحائط فى مواجهة أخرى لصق السور . تأمل الفانوس المعلق ، كان كبيرًا نحاسيًا لامعًا به مصباح بالوسط يحيط به أربعة مصابيح تضاء جميعها بالزيت . عندما دخلوا للنوم قادهما إدريس إلى غرفة المسافرين ، فوجئ ابنه بسرير نحاسى عالى الأرجل ، به نقوش من النحاس المشغول على هيئة ملائكة وزهور ، بأعلاهناموسية تفرد فوقه فتحمى النائم من الناموس والحشرات . كانت دهشة رباب أكبر منه ، نامت على شبيه لهذا السرير فى دار ثروت بك بالقاهرة ، لم تتوقع أن تراه فى أية قرية . ورأت نفسها فى مرآة كبيرة معلقة على الحائط لها إطار مذهب فاخر . قال إدريس مزهوًا :

- مجلوبة من بلچيكا . وهذه الناموسية مجلوبة من تركيا . أما الشمعدان المعلق بالشرفة فهو من البندقية . لماذا أنتما مندهشان هكذا ؟ أتظن يا ولد أن هذه الأشياء حكرًا على بكوات القاهرة . إننا والحمد للّه نعيش فى أرغد عيش بسبب القطن . تضاعف سعر القنطار ثلاث مرات ، بعد ضرائب أفندينا العالية يتبقى لنا ما يجعلنا مستورين . ألم تلحظ ثياب الفلاحين الجديدة ؟

- لكن الزمان غدار !

- تعالى أريك .

أخذه على ضوء المصباح إلى غرفة مغلقة ، فتحها وأراه طقماً بهياً للجلوس مذهباً ومنجداً بالقطيفة التركى ، أريكة لجلوس ثلاثة أفراد وأربعة مقاعد وثيرة ذات مساند للظهور والأيدى . قال :

- كل عدة شهور يحدث أن يزورنى مدير المنيا أو حسن باشا الشريعى عين أعيان الصعيد ، وأحياناً سلطان باشا الذى أثرى من تفاتيش أفندينا ، ولابد من استضافتهم بمكان لائق .

لوهلة ظن أمشير أن أباه تصرّف فى أموال ثريا ، فأخرج من عبه الكيس الذى أرسلته ، ابتسم إدريس :

- جنيهاتها هذه وأكياسها السابقة فى الحفظ والصون ، قد شيدت مقبرتها من حرّ مالى . اذهب لتنام .

فى الأسابيع التالية زار المنيا أكثر من مرة ، لاحظ امتلاء أسواقها بالبضائع المجلوبة ، أثاث إيطالى وزيتون يونانى ، وشمعدان وحلى ومجوهرات بندقى وفرنساوى ، وأقمشة حريرية وقطيفة تركية ، وستائر أشكال وألوان . لاحظ انتشار الثياب الفرنجية ، والبناء الرومى ، وأن سروج الجياد صارت مزركشة محلاّة بالشراريب ، والأسعار باهظة ، خاصة لحم الضأن والغلال والخضروات والفول . تعجب من فعل المال ، جميع ذلك بسبب ارتفاع سعر القطن !

رأى فى القرية إسراف الفلاحين ، يعيشون كأن الزمن آخاهم ، يملكون البهائم من أبقار وحمير وجمال . والده يمتلك ناقتين وجملاً وأربع بقرات وجاموستين وتسعة أغنام ضأن ، ودواجن تملأ الحوش توقظه كل صباح بصياح ديوكها ، وجواد لا يمتلك مثله إلاّ الشراكسة والباشاوات !

فى الأيام الأولى شعر أن أمه بهية نافرة من رباب ، كانت تريد له زوجة من مساتير القرية وذات أصل تعرفه ، أما هذه السواحلية فهى جريئة ، لا تخجل من الرجال وتسأل عن كل شيء . لكن رباب أظهرت الطاعة الكاملة لحماتها ، امتدحت

دائماً طبيخها . تسألها عن كيفية صنع بعض الأكلات وتنصت فى احترام ، تقف عند رؤيتها ولا ترفع صوتها مطلقًا ، تسارع إلى المعاونة وتمتدح جمالها ومهارتها ، حتى صارت فى أقل من أسبوعين أقرب النساء إلى قلبها . وراحت بهية ترقب حملها يومًا بعد يوم ، وتزودها بالنصائح ، إلى أن جاء ميعاد الوضع فولدت ذكرًا ، أصر أمشير على أن يكون اسمه حتحوت ، واستحسن والده إدريس ذلك ، كى يظل لقب الأسرة متجدداً فى ذريتها .

وكان ليوم السبوع احتفالان ، فى الصباح طاف الصغار بالشموع ورش الملح فى عين الحسود ، والزغاريد تلعلع فى أرجاء الدار .. وفى الليل تجمعت القرية كلها تنصت إلى المغنواتى وهو ينشد أغانى الهوى والغرام ، وعازف الربابة يخرج منها الآهات . ثم رقصت « هلالية » أجمل غوازى الناحية على دقات الدربكة . وتنافس شاعران فى إنشاد الأشعار المرتجلة ، يتفقان على موضوع ثم يتباريان فى الارتجال حوله . كانت ليلة التأمت ببشائر الشروق ، ونام أهالى القرية غير آبهين بصياح ديكة الفجر !

بعد انقضاء أيام النفاث ودّع أمشير ورباب جميع الأهل لزيارة المطرية . ويوم الرحيل أهداه والده عنزة عشاراً ، قال له :

– ارعها جيداً ، قد تلد بعد عشرة أيام ، اجعل ولدك يشرب من لبنها إلى جانب رضاع أمه كى يشب قويًا . تزور أنسباءك هناك وتعود بأسرع وقت ، أنت كبير الأسرة من بعدى . لا تنسى ذلك مطلقًا .

ثم حمّله هدية أخرى من خيرات الريف إلى ثروت بك وأمه ثريا . وغادر أمشير وسنابل القمح خضراء فى الحقول . قبل أن تصعد الشمس من وراء تل المقطم كانت المركب البخارية تتحرك شمالاً . مع بداية ضجيج آلاتها فزعت الماعز لكنها ركنت إلى الهدوء عندما ربت أمشير على ظهرها وبطنها العشار .

فى الليل كان يبيت فى دار ثروت بالقاهرة . نظر الطفل حبيب إلى الوليد حتحوت بعض الوقت ثم ضحك يداعب العنزة حتى نام ، ونام الجميع ، واختلى ثروت بأمشير وقال له فى حرج حزين :

– أريدك أن تعرف أننى أخبرت أفندينا بموضوع البنادق . لا تنزعج هكذا . لم أذكر أسماء وقلت : إنها إشاعة . لكنى فوجئت به يأخذ الأمر مأخذاً خطيراً ، ويأمر بإرسال تجريدة إلى بحيرة المنزلة للتقصى !

غلى الدم فى نافوخ أمشير ، ثروت بك يعيش مطمئنًا فى كنف إسماعيل ولا يعرف ما يفعله العساكر إذا دخلوا قرية ، مثل الجراد يجردون المكان من الأخضر ، لهذا يسمونهم تجريدة !

لم ينم طوال الليل ، عند الفجر ترك القاهرة ، يتعجل الوصول إلى المطرية ، بعد يومين كان يدخلها والصداع فى رأسه والمغص فى أمعائه ، هاله ما رأى ، بعض البيوت مهدمة محترقة ، والباقى باق فى صمت حزين ، لكن المصاطب أمام دار عبد الخالق شيخ القرية سليمة . كان واثقًا أن أحداً لن يعترف مهما كان التعذيب ، ومعظم الأهل فى سواد ، واحدة فقط هى حماته رحبت بحفيدها الطفل حتحوت ، حملته إلى غرفتها وأطلقت زغرودة خافتة ترحيباً به . وحكى ميهوب لأمشير واقعة وصول العسكر بخيولهم وجمالهم ، طلب الضابط التركى البنادق والذخيرة ، أنكر الشيخ عبد الخالق القصة من أساسها . هدده الضابط ثم رفع سوطه وضربه ، اندفع ضرغام غاضباً وسحب الضابط من فوق الجواد إلى الأرض ، فما كان من الجنود إلاّ أن أطلقوا الرصاص على رأسه . قال ميهوب :

– سقط الشيخ وضرغام الغالى صريعين فى دمائهما حيث تقف أنت الآن !

فزع أمشير ، اتجه يجلس فوق المصطبة . قال ميهوب :

– جلس الضابط مكانك يسأل عن البنادق القاعد فوقها .. أقسم الرّيس قنديل أن السر لم يخرج منه ، وأنا أصدقه !

أقسم أمشير أن يثأر لضرغام وللشيخ حتى ترتاح روحاهما الطاهرتان . ضيق ميهوب عينيه الضيقتين وضم فمه الواسع ثم قال :

– كيف ؟ وممن ؟ ونحن لا نعرف اسم الضابط !

- سأقتل البغل التركى إسماعيل شخصياً !

جاء شيخ القرية الجديد عبد الشافى ونبّه على أمشير أن يبقى صياداً فقط إن أراد المكوث بالقرية !

* * *

وهذا ما كان من أمره وأمر رباب وجتحوت الوليد وأهالى قرية المطرية . أما أهالى قرية تلة فقد فوجئوا بجابى الضرائب يدخل فى غير موعده ومعه خمسة من القواسين حاملى البنادق والسياط ، وبغل يجرون على ظهره آلة التعذيب المسماة بالعروسة ، يرافقهم رجل يونانى على رأسه قبعة كبيرة . استقبلهم شيخ القرية إدريس بترحاب مشوب بالتوجس . قال الجابى : إنه جاء تنفيذاً لأمر صدّيق باشا المفتش للمديرين ، بجمع ضرائب غلة القمح ، وأنه رأى بعينيه السنابل ما زالت خضراء فى الأرض ، ويعرف أنهم خالون من النقدية فى هذا الموسم ، لكنها الأوامر وسوف ينفذها ، لأنه لا يوجد فى بر مصر من يعصى أمر صدّيق باشا مفتش عموم الصعيد !

قبل أن يكمل قهوته كانت العروسة قد نصبت ، ولم يكن بحاجة لطواف المنادى لأن الفلاحين كانوا قد تجمعوا ، وهم يحتجون ويتوسلون . لم يستجب لهم وفتح دفاتره ووضع دواته وريشته ، وراح ينادى على الفلاحين ، واحداً بعد الآخر وهم يجيبون بعدم تيسر المال ، وهو لا يعلق . بعد مدة قال :

- أمامكم العروسة التى تعرفونها جيداً ، وأمامكم الخواجة مانولى الذى أحضرته معى خدمة لكم ، وهو جاهز لإقراضكم المال المطلوب ، إمّا هو وإما زفافكم إلى العروسة !

اشترى المرابى القمح جميعه بسعر ستين قرشاً ، خصم منها الفوائد مقدماً ، فقبضوها خمسة وخمسين قرشاً . ومن إجمالى السعر قبض الجابى ضرائب الباشا ، وتغدى هو ومن معه بأطايب المأكولات من طيور وعسل وبيض ، وانصرفوا حاملين هدايا الطيور الحية والجبن والسمن والخبز ، وفى المنيا دفع مانولى إلى الجابى

عمولته ، وإلى القواسين رشوتهم !

ما إن ذهب الجابى والمرابى ، حتى جاء الطاعون البقرى ، لا أحد يعرف كيف انتقل إلى الصعيد بعد أن أتى على بهائم الدلتا ، وجيف البهائم النافقة لا تصعد جنوبًا ضد التيار . ولا أحد يعرف لماذا بدأ فى المنيا أول ما بدأ . بقرة ثم ثلاث بقرات ثم جميع الأبقار تقريبًا ، ثم فشا الوباء فى أرجاء الصعيد . وحلّ الناس محل الدواب فى إدارة السواقى وجر المحاريث ، وحلّت الحمير محل الأبقار فى تذرية القمح . ثم حضر الخواجة مانولى لأخذ المحصول . توسلوا إليه أن يقرضهم قروضًا جديدة ، أعطاهم بفائدة شهرية أربعة فى المائة ، وانصرف بالقمح الذى صار سعر الأردب منه مائة وسبعين قرشًا !

مات لإدريس وحده بقراته الأربع وجاموستاه والخراف التسعة . لم يتبق إلاّ الناقتان والجمل والدواجن وجواده الأصيل . ندم لتبذيره فى العامين الأخيرين ، لكنه كان أفضل حالاً من الآخرين ، لأنه لم يقترض من المرابى ، أنفق من مدخرات ثريا لديه ، على أن يردها حين ميسرة . وبعد أن كانت العيون مبتهجة صارت منكسرة !

ثم جاءت الأنباء من الجنوب بظهور درويش اسمه أحمد الطيب من أهالى السلمية قرب قنا . قال : إنه يؤاخى الجن ويسخرهم لتنفيذ مطالبه . أقنع بدو الصحراء بأنه المهدى المنتظر . آمنت به ثلاث قرى . أعلن أنه سيحكم مصر بعد قتل البغل التركى إسماعيل ، الذى دفع إليه بتجريدة شرسة . أحرق أفرادها القرى الثلاث بمزروعاتها . قتلوا الرجال واغتصبوا الصبايا ثم وزعوا الأطفال وأمهاتهم على القرى المجاورة !

قيل : إن أحمد الطيب قتل ، وقيل : إنه هرب إلى الصحراء لأن رصاص الحكومة لا يؤثر فيه ، وأنه عائد بإذن اللّه . فأمر إسماعيل بضرورة القبض عليه والاحتفاظ به حيًا ، لحين حضوره ليقتله بنفسه !

(١٠) تغـــريبــة أمشــير

فى الشتاء التالى ، شقت الدهبية الملكية طريقها ضد التيار ، متجهة جنوبًا ، وإسماعيل فوق سطحها شارد مهموم بملف كبير أمامه ، كلما نظر إليه ازداد غيظًا . ولا أحد من الحاشية يجرؤ على الاقتراب منه . حتى ثروت وصدّيق المفتش انزويا جانبًا .. وغليونان مسلحان يسبقان الدهبية ، واثنان يتبعانها ، وعلى الشاطئ قوة كبيرة من الجيش ، بقايا جيش سعيد باشا ، والضباط فوق صهوات خيولهم المطهمة ، من ورائهم يجرى العبيد والتوابع . يسير الجند على الشاطئ بنفس سرعة الدهبية ، وهم رهن أدنى إشارة من ولى النعم ، بينما الفلاحون يفرون مذعورين !

فتح إسماعيل الملف الموجود أمامه ، قلب أوراقه ، جزّ على نواجزه ، تمتم بسباب بزىء يلعن نابليون الثالث . بينما الطيور تحلق فوق الدهبية . دنا منه ثروت بك بقصد مواساته ، تردد ثم توقف يرمقه فى أسى . منذ ستة أشهر كان إسماعيل فى ذروة زهوه بالمنصب وكله أمل وتفاؤل ، شرع فى إعادة المدارس ، استدعى بعثة فرنسية لإعادة بناء الجيش ، نقل المدرسة الحربية إلى سراى العباسية الضخم ذات الألفى غرفة وجعلها مدرسة للمشاة ، نوى أن يلحق بها مدرسة للفرسان وثالثة للمدفعية ورابعة لأركان الحرب . كى ينشئ الولايات المتحدة الإفريقية ، إمبراطوريته السوداء . خطط لإنشاء قاهرة حديثة ، قاهرة إسماعيل أو حى الإسماعيلية ، فى الأرض الخراب بين الأزبكية والنيل . بينما هو فى طموحاته هذه جاءت الضربة الغادرة من نابليون الثالث ، أصدر إمبراطور فرنسا تحكيمه فى النزاع بين إسماعيل وديلسبس . جن جنون إسماعيل ، لأول مرة يرتفع صوته بالسباب والصياح ، وهو الذى يتحدث دائمًا بصوت هادئ رتيب !

هبت نسمة نيلية قوية عبثت بالملف ، اندفع ثروت يلم الأوراق :

– الهواء قوى يا مولاى ، سأحفظه بغرفة سموك .

جذب إسماعيل الملف وعاد يقلبه من جديد . هز رأسه فى ابتسامة قهر :

– عبث بى زوج أوجينى ، عندما لم يعد ديلسبس الدنىء فى حاجة إلى العمال وصار لزامًا عليه استخدام الكراكات البخارية ، جاءنى وتنازل عن السخرة وقال عربون صداقة ، كان كلامه بوجودك ؟

– فعلاً يا مولاى . لننس ذلك !

– كيف أنسى هذا الحكم الصفيق ؟! تعويض ضخم عن وقف أعمال السخرة ، وتعويض عن الترعة الحلوة التى تنازل عنها طواعية أمامك ، وعن المياه التى كانت الشركة ستبيعها للأهالى على الجانبين ، وعن رسوم القوارب التى سوف تتواجد عليها وعن صيد الأسماك التى ستكون فيها . وتعويض ضخم عن الأراضى التى يفترض أن تروى على جانبيها ، وعن الخرابات الخشبية التى يسميها مستشفيات وثكنات . وكل هذا كان أخذه من عمى دون مقابل . المجموع حوالى أربعة ملايين من الجنيهات ، تعادل إجمالى نصف رأس مال الشركة كلها ، فإذا أضفنا إليها نفقات العمال المصريين وجمال المئونة ، نكون قد دفعنا جميع رأس المال ، والشركة شركة ديلسبس !

كانت الغلايين والدهبية تسير فى بطء . نهض إسماعيل متجهًا إلى الحافة . راقب مياه النيل المنخفضة ، كما لو كان فى شهر يوليو مع أنه فى موسم فيضانه . خبط بقبضته على السور فى كمد :

– وهذا نذير شؤم آخر . النيل شحيح والحرب الأهلية الأمريكية فى نهايتها ، وسوف يغرق قطنهم أسواق أوربا وينخفض قطننا إلى سعره الزهيد القديم ، ومعظم أراضى تفاتيشى وأراضى الأهالى مزروعة به !

أخرج ورقة من جيبه وهو يقول :

– ثم يظهر درويش الصعيد المعتوه ، يستهين بى ! . المهدى المنتظر المزعوم الذى سيطهر مصر من سلالة محمد على !

بسط الورقة وكانت بخط ثروت :

– وانضم أخى غير الشقيق مصطفى رفعت بخيانته ، لماذا كان فى باريس وقت صدور التحكيم ؟ يزعم أنه ذهب لزيارة متحف اللوفر ، ففضحه إبراهام رجلى الوفى فى الأستانة بهذه البرقية . ألم تترجمها بنفسك من لغتها الشفرية ؟

– بكل دقة يا مولاى ، مكتوبةحسب شفرة الكراسة السادسة لأنها مرسلة الساعة السادسة . يا مولاى أرجوك استرح . أمام سموك فتوحات فى السودان تحتاج إلى تركيزكم ، وإعداد الجيش المسافر يحتاج عنايتكم . لماذا لا تحاول النوم ؟

توجه إلى غرفته وبقى ثروت حزينًا فى مكانه . وكان إبراهام يؤكد أن مصطفى رفعت يقوم كلما زار الأستانة بتوزيع الرشاوى الهائلة للسلطان والصدر الأعظم وحاشيتهما ولكل من له تأثير ، من أجل أن يصدر عبد العزيز فرمانًا بعزل إسماعيل وتعيينه . فلما جاء توقيت زيارته إلى باريس مع صدور التحكيم ظن إسماعيل أنه يتآمر ضده مستعينًا بتأييد نابليون الثالث ، وخشى أن يرسل من يدس السم له أو يطعنه بخنجر مثلما حدث مع عباس باشا ، أو أن يقتله أفاق إيطالى من زملاء عمه حليم الماسونيين . أصيب بالذعر وطرد من القصر والقلعة جميع خدمه الأجانب ، ورفض مقابلة معظم زائريه ، وامتنع عن الخروج للنزهة بالعربة كعادته كل يوم . قلقت عليه أمه خوشيار ، لما لم يرد على برقياتها التى أرسلها عبد اللّه نديم من القصر العالى ، أرسلت تستدعى ثروت ، فأخبرها بمصدر جذع ولدها حتى إنه صار لا يأكل إلاّ فى الحرملك مع الحريم وبعد أن يتذوق الجميع الطعام ! . التاعت :

– يأكل عند الجارية شفق نور أم توفيق ! أنا لا أثق فيها !!

أمرت باستدعاء التلغرافجى عبد اللّه نديم وأمرته بالإبراق إلى سراى ولدها تطلب منه الحضور إليها فوراً ، بعد حوالى الساعة عاد وقال : إنه أبرق البرقية أربع مرات وكان الرد واحداً : سمو أفندينا باشا لا يسمح لأحد بالدخول عليه ! .

أمرت بإعداد العربة ، ونهضت مع وصيفتها ثريا تتساندان إليها . تحركت العربة ، وقف خلفها حارسان وجرى أمامها ثلاثة عبيد يفسحون الطريق ، حتى صعدت إلى قصر الحرم بالقلعة . تحاملت متكئة على ثريا إلى حيث ولدها إسماعيل ، جاورته الأريكة بعد أن أمرت بانصراف الجميع ، وراحت تطيب خاطره فى صوت حنون ، وتحتضنه وتقبله وتربت على ظهره ، وتنصحه بعدم الوثوق فى الفرنسيين الذين تخلوا عن والده البطل إبراهيم باشا .. ولم تتركه إلاّ وقد أقنعته بالرحلة النهرية . أطاعها ووعدها بشراء أرض أخيه مصطفى رفعت وعمه حليم لقطع دابرهما من مصر !

بينما الدهبية تتهادى رأى ثروت تمساحًا يترك الشاطئ ويهبط إلى الماء سابحًا نحوهم . ثم شعر بصدّيق المفتش يدنو منه ويسأله عما دار بينه وبين إسماعيل . لم يجبه فحاول استدراجه :

– أخطأ أفندينا عندما وثق فى عدالة الكافر الفرنسى !

– يا صدّيق ، كف عن تخابثك معى وأنت الغارق فى نعمته !

انزوى صديق مهمومًا يتابع التمساح السابح ، كان بإمكان إسماعيل السداد بسهولة من القرض الإنجليزى الكبير الذى وصله مؤخرًا ، بحجة استخدامه فى مقاومة الطاعون البقرى ، لكنه أنفق معظمه فى شراء قصر ميركون على البسفور ، وفى توسيع أملاكه والبدء فى بناء قصرى الجيزة والجزيرة ، والجميع يعرف أن الفلاحين تحملوا خسائر الطاعون ، وكلما احتاج إلى المال لزم على صدّيق جمعها من المزارعين ، حتى صار عدو الناس من جنادل أسوان إلى البحر المتوسط ، يدعون عليه فى صلواتهم ، مع أنه المخلب فقط !

كان عساكر إحدى الغلايين قد رأوا التمساح ، فأطلقوا عليه عدة طلقات حتى انقلب على ظهره ميتًا ، صعد إسماعيل إلى السطح مذعورًا ، هاج وأمر بجلد كل من أثار ضجيجًا !

اقتربت القافلة النهرية من بنى سويف ، تطلع المرافقون إلى مولاهم على أمل أن يأمر بالرسو ليستريح ، لكنه أمر بمواصلة السير ، وحاكم الإقليم واقف على الشاطئ

بفرقته الموسيقية فى أبهته وحراسه وعبيده يلوح بالتحية ، كان قد أرسل بالأمس إلى شيوخ القرى يأمرهم بإحضار البيض والأوز والدجاج المسمن وعشرة خرفان لزوم وليمة أفندينا وحاشيته ، وانهمك الطباخون منذ الفجر فى إعداد الطعام ، فلما تابعت القافلة سيرها احتفظ بمعظم الطعام لداره وفرّق الباقى على المقربين إليه !

دخلوا المنيا فى أول الليل ، وكان حاكمها جاهزًا بالوليمة ، واقفًا على الشاطئ بالمشاعل . رغب ثروت فى زيارة أهله بقرية تلة ، لكن القافلة تابعت المسير عند الفجر . بعد يومين وصلوا إلى سوهاج ، جاءه قائد التجريدة وركع أمامه . قبّل قدمه وأبلغه أن أحمد الطيب تمكن من الاختفاء فى الصحراء ، لهذا جعل ستين رجلاً ينبطحون على الأرض ، وأمر بقطع رءوسهم عشرة بعد عشرة بالبلط ! . رأى التقزز فى وجه مولاه فرطن بالتركية :

– كان أمرًا لابد منه يا أفندينا . تأثير المارق كبير ، حتى النصارى صدقوا أنه المهدى المنتظر ، لهذا قطعت رقاب الستين وتركت جثثهم دون دفن كى يتعظ الآخرون ، من مسلمين ومسيحيين ونساء وأطفال . ليسوا إلاّ فلاحين يا ولى النعم !

ركله إسماعيل بقدمه :

– المجرم الأصلى أفلت منك يا غبى !

ثم أمره بالكف عن ذلك ، لكنه شعر بالشماتة عندما علم أن أربعة وعشرين ألف رأس ماشية ماتت من دائرة عمه حليم باشا القريبة من سوهاج . وقرر أن يسعى لدى السلطان كى يجعل وراثة الحكم فى ذريته ، بهذا يقضى على طمع مصطفى رفعت وحليم فى العرش !

كانت سوهاج إحدى مراكز تجمع الجيوش المسافرة إلى السودان ، من أجل تأديب ثورة العساكر السود فى بلدة كسلا ، نزل إسماعيل وحاشيته إلى الشاطئ ليطمئن على حسن تنفيذ أوامره : أن يقدم الفلاحون بعض جمالهم إلى الحكومة على سبيل القرض ، فتجمع قرب النهر مئات الجمال فى انتظار البواخر لشحنها إلى

أسوان ، وعن قربها الأعلاف فى عشرات الأكوام . اطمأن إلى تموين حملة التوسع فى السودان ، لكنه لاحظ أن الأرض عطشى ، فقال فى أسى :

– لابد من قرض جديد ، الفلاحون والملاك استدانوا أموالاً كبيرة على محصول القطن ، بفائدة أربعة فى المائة شهريًا ، أى ثمانية وأربعين فى المائة سنويًا ، وإزاء توقف الحرب الأهلية الأمريكية وانخفاض سعر القطن ، سيعجزون عن السداد وتقع الأرض فى أيدى المرابين . سأقوم بالسداد عنهم من القرض الجديد ، على أن يسددوا لى ديونهم بفائدة سبعة فى المائة سنويًا ، وعلى سبعة أقساط .

دعا له أفراد الحاشية ، ومعظمهم مثقل بالديون بسبب بذخهم تشبهًا به !

فى الليل جافى النوم ثروت ، فنزل يتمشى على البر المضاء بالمشاعل . دنا من مناخ الجمال ومعسكر الجيش فسمع تأوهات وصراخًا ثم شاهد العساكر يجلدون فلاحًا لأن جمله ضعيف ، وثانيًا لأن سرج جمله عتيق مخروق ، وآخرين فى قيود خشبية بسبب عجزهم عن دفع تكاليف طعام جمالهم وأجرة حراسها لمدة شهرين . رأى كذلك آثار السلاسل الحديدية فى أعناقهم وبكاءهم على إبلهم التى يعرفون أنها لن تعود إليهم !

أراد ثروت أن يحتج فحدجه الضابط التركى بنظرة تحذير ، عاد إلى الدهبية وعلى مائدة الإفطار روى لإسماعيل ما رآه فغضب وقال :

– ماذا أفعل يا ثروت ؟ عمالى حمير لا يفهمون الأوامر ، سئمت من هذا المكان . أطلب من الربان أن يبدأ العودة إلى القاهرة !

تحركت الدهبية وغلايين الحراسة . ووقف ثروت يتابع البر بما عليه من جمال مسلوبة ورجال مضروبة . من هذه اللحظة بدأ يشعر بالنفور من واليه المحبوب ، أخيه فى الرضاعة . بمجرد عودته إلى القاهرة توطدت علاقته مع عبد اللّه نديم ، صار يشاركه بعض تبرمه ، ويتفق معه أن هذا الوالى نحس وقدمه قدم شؤم !

* * *

مع مجيء الصيف وقع ما تنبأ به الأطباء . ذهب الطاعون البقرى وحلّ وباء الكوليرا ، يحصد الناس بالآحاد ثم العشرات فالمئات . فى القاهرة التى تعدادها ٤٠٠ ألف نسمة مات يوميًا ألف شخص . فى الإسكندرية التى مجموع سكانها مائة ألف مات يوميًا ٥٠٠ إنسان . دفن الضحايا بالحدائق وأمام البيوت . فى الأحياء الفقيرة تكوّمت الجثث فى الحفر . وهرب الأغنياء إلى مصايف أوربا ، وذهب إسماعيل إلى الإسكندرية ليركب يخته مع بعض خاصته وارتحل إلى الأستانة ، تاركًا محمد شريف باشا الشهير بالفرنساوى قائمًا مقامه فى ولاية مصر ، ذلك لأنه لا يثق برجال أسرته . وأمر بشراء يخته الجديد المحروسة، وكان قد وجد بعض العزاء فى فتح بلدة فاشودة ، مفتاح جنوب السودان وملتقى طرق النخاسين الأنجاس ، وفى إنقاذ الفلاحين والمزارعين من ديون المرابين الفرنجة ، وكان هذا أفضل ما فعل .

وفى يوم هبت ريح عاصفة مترية جعلت الهواء أصفر اللون . بعدها تناقصت حالات الوفاة إلى أربعين يوميًا . ثم انحسر الوباء كأنه لم يكن !

أما فى قرية المطرية على بحيرة المنزلة ، فقد ولدت العنزة أربع عنزات ، وصار حتحوت الطفل يشرب من لبنها . وإن كان أمشير شعر بتحفظ الأهالى معه . فيما قبل كان يصطاد مع ميهوب والمرحوم ضرغام ويتقاسمون الريع ، أما الآن فقد انفرد ميهوب بصيده فقلت أرباح أمشير . فكر فى العودة إلى تلة . كان يخشى معارضة رباب فوجدها أكثر منه رغبة . لم يلح عليه أحد بالبقاء ، فأخذ الماعز وأهداها إلى صديقه ميهوب ، وأمطار الشتاء لا تتوقف ، ثم عاد إلى داره وأخذ مسدسيه من مخبئهما ، وحزم متاعه القليل .

بعد أسبوع كان يقطع الطريق من المنيا إلى قرية تلة ، مع زوجته وابنه حتحوت ، الذى تخطى عامه الأول بأيام . غادر القرية والسنابل خضراء بالأرض ، وها هو ذا يعود والسنابل الجديدة خضراء . تركهم ميسورى الحال وعاد ليجدهم فى أسوأ حال !

مع فرحة أمه بهية ، حكى والده إدريس ما لاقوه من أهوال خلال تغيبه . بكى أمشير ووعد بالبقاء الدائم وملازمة الأسرة فى شدتها ، وعندما سألته بهية عن ثروت بك قال :

– لم أجد وقتًا لأمر عليه بالقاهرة !

ولم يزد . ثم خبأ مسدسيه فى الحوش الخلفى . وفى أسابيع قليلة أتقنت رباب أعمال المرأة الريفية ، أسابيع مضت رتيبة حتى جاء الجابى ومعه المرابى اليونانى مانولى يطلب الضرائب الجديدة ، وقد زادت على الفدان سبعة قروش ، والخيار أمام الفلاحين : إما مانولى وإما الجلد على العروسة . دفع إدريس من جنيهات ثريا الذهبية . بعد شهرين عاد موكب الجابى يبلغهم أن الزيادة أصبحت عشرة قروش ، وبعد شهرين آخرين عاد بغبرته وآلة العروسة وقد زادت ضريبة الفدان عشرين قرشاً مرة واحدة . شاب شعر إدريس ، وترك بعض الجيران الأرض ونزلوا إلى المنيا يتسولون !

ثم كان يوماً أغبراً وقف فيه أمشير يرقب الغبرة القادمة ، التى انقشعت عن شاويش وجنديين بسيوفهم ومسدساتهم . قال كبيرهم لإدريس :

– يا شيخ القرية ، عليك التواجد من فجر الغد خارج سور المنيا ومعك عشرين رجلاً أصحاء !

– السماح يا جناب الباشجاويش ، نحن الآن فى وقت اشتغال الفلاحين بالحصاد والدريس وزراعة الذرة التى هى معظم قوتهم .

– ستعملون فى إنشاء السكة الحديدية التى يسير عليها القطار .

رأى الحيرة والمقت فى عيونهم :

– عليكم أن تكونوا سعداء ، هذا القطار سوف يحملكم من المنيا إلى القاهرة فى نصف يوم !

قال أمشير مشيراً إلى الفلاحين :

– لا أحد منهم يذهب إلى القاهرة ، أبعد ما وصلوا إليه هى مدينة المنيا !

رمقه الشاويش غاضباً :

– جناب والينا إسماعيل باشا شخصيًا هو صاحب الفكرة . سوف يكون بالانتظار على رأس المهندسين . حذار من التأخير !

ساد وجوم القهر على الجميع . احتقن وجع أمشير بدماء الغضب . بعد ساعة انصرف العسكر حاملين معهم الهدايا من خيرات القرية الشحيحة . وراقب الفلاحون ابتعاد غبرتهم بصياح الأوز والبط والدجاج ومأمأة الجديان الثلاثة التى أخذوها معهم . ثم جلسوا يتشاورون فيمن يقوم من نسائهم بدرس القمح وزرع الذرة !

مع آخر الليل كان إدريس يتجه شرقًا ومعه الأفراد . تعمد ألاّ يأخذ معه ولده أمشير لعلمه أنه سريع الغضب . قال له ممازحًا فى أسى :

– عليك بالبقاء مكانى هنا لرعاية القرية ، ألم تسمع أن أفندينا عندما يسافر صيفًا يترك من يحل محله فى حكم البلاد ؟

خارج سور المدينة وجدوا المئات من فلاحى القرى الأخرى قد سبقوهم ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ومعهم خبزهم وبصلهم وقليل من الجبن ، والضباط الأتراك يروحون ويجيئون ويسبون وهم فوق جيادهم ، والملاحظون من العسكر على أرجلهم بالسياط . أنبأ الجو بيوم قائظ ، وقد أخذ الذباب يحوّم . والفلاحون يتأملون كل من يرتدى ثياباً فاخرة متسائلين فى رهبة إن كان هو أفندينا حاكم جميع الديار (١) !

ما إن صعدت الشمس من وراء السور حتى وصل عدد من الأفندية المهندسين المصريين والفرنجة ، ومعهم بعض الأوراق والرسوم وآلات القياس . استقبلهم الضباط باحترام . سرعان ما رسموا على الأرض خطين طويلين متوازيين من الجير . وجاءوا بمعدات كثيرة ومقاطف ، وطلبوا من الفلاحين تسوية الأرض بحيث يأخذون من المرتفعة ويردمون المنخفضة . وفرقعت السياط تحثهم على العمل ، فاندفعوا بفئوسهم يحفرون ويملئون المقاطف التى حملها الصبية والنساء على رءوسهم بعيداً .

---

(١) كان إسماعيل وقتها بالمنيا . وأرسل إلى ناظر الأشغال بالقاهرة نوبار باشا برقية يقول فيها : " أنا الآن مع ٦٠ ألف رجل فى الموقع على استعداد للبدء فى أعمال مدّ خط السكة الحديدية . أرسل إلينا القفف اللازمة " .

وتعلموا كيف يمهدون الأرض ويضعون الفلنكات الخشبية متوازية وعلى مسافات معلومة ، ثم تثبيت القضبان بمسامير غلاظ .. وتثاقلت أيام العمل مرهقة قليلة الزاد ، من أول ضوء وتحت لهيب الظهيرة وإلى أول الليل ، يأكلون عند الفجر خبزًا جافًا ويصلاً مما أحضروه معهم ، ومثله عند الغروب ، ثم يستلقون على ظهورهم يتأملون بعيون منهكة نجوم السماء ، ويكون النوم راحتهم ومتعتهم الوحيدة !

مع الأسبوع الأخير تناقص نشاط الضعفاء ، وإدريس يرى ذلك ويتجاهلهم رأفة بهم ، إلى أن تنبه الملاحظ فاندفع إليه يسب ويلعن برطانة تركية ، وانهال عليه بالسوط في قسوة . تحمل إدريس وتجلد ، حامداً ربه أن ولده أمشير ليس معهم وإلاّ قتل الملاحظ مثلما فعل مع ملاحظى القناة .

مات منهم اثنان دُفنا إلى جوار الخط . وعندما اتصل ما أنجزوه مع ما أنجزه فلاحو القرى التالية ، عادوا إلى القرية ، وتفرقوا إلى أكواخهم .

وكانت بهية أعدت لزوجها إدريس وجبة دسمة ساخنة ، جلس يمضغها فى صمت .. وعندما نهض للنوم تألت ظهره .. وسمع أمشير أنينه ، فخرج يتمشى وحيداً فى ظلام الحقول ، ثم تسلل إلى الجرن خلف الدار الذى كان عامراً وأصبح خاوياً ، أخرج المسدسين من مخبئهما وجلس ينظفهما .. سمع بكاء طفلته مبروكة تطلب الرضاع فاغرورقت عيناه .

* * *

كانت الصداقة توطدت بين ثروت بك وعبد اللّه نديم . صارا يلتقيان أحيانًا فى المساء ، ويشربان قهوة الصباح معًا على مقهى بالأزبكية ، يتحدثان والطرقات ما زالت خالية إلاّ من الذاهبين إلى أرزاقهم مشاة أو بالحمير ، وبائعات الخضار والسارحين بالماعز لبيع لبنها طازجًا ، وبعض الفرنجة فى ثيابهم المهندمة فوق حمير الأجرة فى تكبّر يغيظ !

وفى يوم لن ينساه ثروت ، تحدث نديم عن إدمان إسماعيل القروض إدمان المسطول للحشيش، بحيث صار له كل عام قرض جديد ، سأل عن مجموعها فاحتار ثروت :

– هذا سر خاص بين أفندينا وناظر المالية الجاهل صدّيق ، لكن المؤكد أنها تفوق جميع إيرادات البلاد !

نستطيع أن نخمن ، احسب نفقات بناء أو تجديد قصور الجيزة والجزيرة وعابدين والقبة والزعفران والقصر العالى ومصطفى باشا بالإسكندرية وقصر « ميركون » الفاخر على ضفاف البسفور !

– واحسب للإنصاف نفقات إنشاء المدارس وإعادة الجيش والأسطول والسكك الحديدية والترع والطرق الجديدة .

– فى المقابل احسب ما يجنيه من ضرائب على كل رجل ، وعلى الفحم والزبد والملح والراقصات . تأمل بؤس الموظفين أمامك وهم لم يقبضوا مرتباتهم لشهور عديدة ، لدرجة أن اليهود توقفوا عن إقراضهم لحين تسديد الديون القديمة ، فلم يعد أمامهم إلاّ التسول أو السرقة ، فزاد فساد الإدارة والشرطة ! .. نحن محظوظان ، أنا أقبض مرتبى من مخصصات الأميرة خوشيار وأنت من ابنها !

نهضا وسارا معًا بعض الوقت ، وقال نديم :

– يا صديقى ثروت ، تعرف جيداً أن أفندينا وفى أقل زمن صار يملك هو وأسرته ربع أطيان مصر ، ويتسبب فى تعطيل زراعة ربع آخر بسبب نزع فلاحيها للتسخير فى أراضيه ، ويطلق ذنبه صدّيق على الناس ، يعرف أنه يبيع المناصب ، وكل مدير يشترى منصبه يصبح فى سنوات قليلة صاحب أطيان وعزب ، ولعل صديق يسلم الرشاوى لسيده !

ثم ودعه مسرعًا إلى القصر العالى ، حيث كان العمال الأجانب منهمكين فى تجديد طلائه وستائره وإعادة تشذيب أشجاره ، والعمال الأتراك يثبتون الحصى الملون فى طرقات الحديقة لتبدو مثل سجادة مزركشة . وكالعادة استقبله خليل أغا بتقطيبته الكريهة !

ورأى ثروت أن يختصر طريقه إلى القلعة عبر شارع جديد يشقونه ، هدموا بسببه عدة بيوت . بينما هو يسرع الخطو حدثت جلبة وهرولة ، ووجد نفسه فى كابوس ثقيل . رأى مذهولاً العساكر يمسكون المارة المصريين ويربطون أقدامهم بالحبال ، لتسخيرهم فى تعبيد الطريق . تحول ذهوله إلى غضب عندما رأى العسكرى يريد ضمه للمسخرين . نهره صائحًا :

– ارجع يا عسكرى . أنا ثروت بك من حاشية ولى النعم .

ارتبك الشرطى ، لكن الشاويش رد ساخرًا :

– وأنا السلطان عبد العزيز . اسمع يا أفندى ...

– ثروت بك .

– اسمع يا ثروت باشا ، إما أن تعمل مثل الآخرين نهارًا كاملاً ، أو تدفع المعلومات ، هذه هى التعليمات .

– انتظر حتى أخبر أفندينا يا لص !

ما شعر إلاّ والشاويش يلطمه على صدغه ، والعسكرى ينهال عليه بالعصا ، فدفع المعلوم صاغرًا وقد تمزقت كرامته وثيابه . ثم اندفع فى غل وقهر إلى القلعة ، إلى إسماعيل شاكيًا وهو فى أرذل حال . تظاهر أفندينا بالغضب وأمر له بثياب جديدة ، ثم تأمله بعينه اليسرى وقال يشاكسه :

– لابد من إنجاز قاهرتى الجديدة ، ألست من أنصار التمدن ؟!

لكن إسماعيل عوضه عما حدث بأن أخذه معه بعد أسابيع إلى الآستانة .. وعندما كان يخت المحروسة الجديد يتهادى إلى مياه القرن الذهبى ، خفق قلب ثروت طربًا وقد تراءت له الآستانة التى أحبها فى زيارته الأولى . أشار إسماعيل إلى قصر فاخر على شاطئ البسفور وسط حديقة وأسوار وقال :

– هذا ميركون .. قصرى !

ثم راح يعد فى سره عدد طلقات التحية التى بدأتها المدافع احتفاء به . وكان فى استقباله على الرصيف كبير التشريفات ، وعدة عربات عليها رموز السلطان ، أقلته وحريمه والحاشية إلى قصره الجديد ، حيث وقف ثروت مشدوهًا ، كانت البوابة الحديدية مطلية باللون الأسود وعقودها بلون الذهب ، وطرقات الحديقة مكسوّة بالحصا الملون ، ونافورة على شكل نجمة ثمانية مزركشة بالفسيفساء يتساقط رشاشها فى حوض مبطن بالمرمر الأسود والأبيض ، ودرج فسيح من الرخام يصعد إلى داخل القصر ، حيث البهو وسقفه الشاهق المزركش ، والحوائط مزدانة بالرسومات البهيجة ، والأرض مفروشة بالسجاجيد الفارسية والبسط التركية ، وعدة أرائك مغطاة بالحرير الموشى . وفى آخر البهو درج يؤدى إلى غرف النوم !

عندما دخل ثروت الغرفة المخصصة له ، وأطل من النافذة خلبه مشهد البسفور ، وعشرات الأشرعة للمراكب القديمة ، وعشرات المداخن للبواخر الحديثة ، والزوارق الصغيرة تنزلق مثل الأسماك بين شواطئ ومدن المضيق . وكان بالقصر أكثر من ثلاثين خادماً ورئيسهم التركى الأنيق ، من المؤكد أنهم جواسيس للخفية !

فى اليوم التالى زار إسماعيل السلطان . فى المساء تناول العشاء معه فى حفل حضره السفراء الأجانب ولم يحضره ثروت ، عاد بعده مسروراً ، ليرد الدعوة بأفخم منها ، وشرّفه السلطان والصدر الأعظم وحاشيتهما والسفراء ، واكتظ المكان برجال الخفية .

ومن اليوم الأول جاء إبراهام الأرمنى ، صديق باشوات البسفور وجاسوس إسماعيل ، والذى يعرفه ثروت من خلال البرقيات الشفرية . اختلى بالوالى كثيراً ، خرج وعاد وهمس . ثم عرف ثروت بك السر . لقد نال إسماعيل من السلطان فرماناً يجعل وراثة الحكم فى ذريته وحده ، دفع بسببه رشاوى للصدر الأعظم وللسلطان وحاشيتهما من رجال المابين والباب العالى ما مجموعه ثلاثة ملايين جنيه ، ورفع الجزية التى تدفعها مصر للسلطان من أربعمائة ألف جنيه إلى مليون إلاّ ربعًاسنوياً !

كذلك أنفقت أمه الأميرة خوشيار بسخاء بالغ لمساعدته ، رغم مقتها لولى العهد محمد توفيق ابن الجارية السابقة شفق نور ، والذى كان فى الرابعة عشرة من عمره .

لكن إسماعيل بفضل هذاالفرمان سوف يتجنب إلى الأبد مؤامرات مصطفى فاضل الطامع فى ولاية مصر !

* * *

فى قرية تلة وقف أمشير ووالده إدريس والفلاحون فى خوف ، وقد ظهرت غبرة آتية من ناحية المنيا ، أثارتها حوافر خيول ضابط تركى وعشرة عساكر ، اكتئب الجميع ، نظر بعضهم إلى بعض وقد بدا الشر فى عيونهم . ما إن حط الضابط بعسكره أمامهم حتى بادره إدريس :

– لم يعد مع أى واحد منا مليم واحد ، نحن جاهزون للجلد . أين العروسة !

– أترانى جابى أموال يا شيخ القرية ؟ حاكم المنيا يريدك عنده غداً صباحًا . لا تتأخر .

سأل أمشير فى شجاعة البواسل :

– لماذا ؟ لن يذهب أبى إلاّ إذا عرفنا السبب . هل يريد جناب الحاكم حبسه ؟

– يريده من أجل انتخابات مجلس شورى النواب !

– أهذه ضرائب جديدة ؟

– شاءت إرادة أفندينا أن ينشئ للبلاد مجلس شورى النواب ، مثل الدول الأوربية . أى يختار العمد والمشايخ بعض الوجهاء يتوجهون إلى القلعة ويتكلمون مع الحكومة نيابة عنكم .

انصرف بغبرته إلى القرى التالية ، من غير أن يفهم أحدهم شيئًا . هم لا يريدون الكلام مع الحكومة ولا يريدون رؤية ممثليها ؟

لكن فى الصباح كان إدريس فى سراى حاكم المنيا . دخل واجفًا . وجد البهو الكبير مكتظًا بجميع أعيان المنيا وبنى مزار فاطمأن قلبه . بعد حوالى الساعة ظهر الحاكم التركى ومعه حسن باشا الشريعى وسلطان باشا ، وقال :

- اتفق رأينا على أن تنتخبوا نوابًا عن المنيا : إبراهيم أفندى الشريعى عمدة سمالوط ، إسماعيل أحمد عمدة بنى أحمد ، أحمد على عمدة زاوية الأموات ، أحمد حبيب عمدة الفنت ، ميخائيل اثنا سيوس عمدة أشروبة ، وحسن أفندى شعراوى عمدة المطاهرة . موافقون طبعًا ؟

قبل المغرب عاد إدريس إلى قريته ليجد الجميع فى انتظاره ، وقد سد الخوف شهيتهم عن الغداء ، فلم يأكل إلاّ الأطفال . روى لهم ما حدث ، ولم يفهموا شيئًا لأنه لم يكن قد فهم !

ذهب النواب إلى القاهرة فى حيرة وخوف ، وعادوا وقد وافقوا على قصر السخرة على المنفعة العامة ، واشترطوا فرضها على الفقير والغنى ، لا يعفى منها إلاّ من دفع بدلاً نقديًا قيمته جنيه . كما وافقوا على فرض ضريبة جديدة عشرين قرشًا فى السنة على كل بقرة أو جاموسة أو ثور أو بغل ، وثلاثين قرشًا على كل جمل ، وعشرة قروش على كل حمار . فقال إدريس :

- أفندينا جعل أعياننا يفرضون علينا ضريبة المواشى . هذا مجلس شورى المواشى !

فسعل الفلاحون وكانوا يقصدون الضحك [1] .

وكانت رباب قد تعلّمت من حماتها بهية أصول حلب البقرة وعمل العجين وخبزه ، وأتقنت فنون الطبخ باللحم . وتعلمت بهية منها فنون إعداد الأسماك والأرز الأحمر . وتعلم حتحوت المشى من بعد الحبو ، وكانت أمه فى حملها الثانى .

---

(١) أول مجلس شورى للنواب ، وقد انعقدت جلسته الأولى بالقلعة فى نوفمبر ١٨٦٦ " وقد لبس أعضاءه الملابس الحشمة وجلسوا فى هيئة الأدب " . وطالبوا بعدم معاقبة العمد والمشايخ بالضرب ، وبإلغاء نظام العهد وإعادة الأطيان إلى أصحابها ، وبضبط عملية جمع المال فى الصعيد لأن المال الذى يدفعه المزارع ينتقل من يد إلى يد دون إيصالات ، فيقع الغش والاختلاسات . لكنهم فى الدورتين التاليتين تكلموا عن قروض الخديوى وخطرها .

أما نوبار باشا فكان فى باريس ، عندما أمره إسماعيل بالتوجه إلى الأستانة لاختيار لقب جديد يميز والى مصر عن باقى ولاة السلطان . تم استبعاد لقب العزيز ، أى كامل السلطة ، لأن السلطان اسمه عبد العزيز ، واستغل نوبار علاقته وصلات حماه الوطيدة برجال المابين والباب العالى حتى نال الموافقة بعد ثلاثة أسابيع على لقب الخديوى ، وهو نعت فارسى مشتق من كلمة خيفا ، وتعنى الربانى أو الإلهى أو المشمول بعناية الرب !

أرسل إلى إسماعيل يخبره فاشترط على ضرورة الإشارة فى الفرمان الجديد إلى « حكومة مصر » لكن السلطان رفض ، فرضخ إسماعيل وطلب من نوبار إرسال الفرمان إلى القاهرة على أن يلتقى به فى فرنسا قبيل افتتاح معرض باريس . عندما وصل الفرمان احتفل به إسماعيل في قاعة الفرمانات بالقلعة احتفالاً عظيمًا . فى أعقاب انصراف المهنئين قال لثروت متباهيًا :

– أراد المرحوم أبى البطل إبراهيم باشا تحقيق استقلالنا عن تركيا بقوة السلاح ، كاد ينجح لولا تدخل بريطانيا . سأحقق أنا ما فشل فيه ولكن بقوة المال . حتى الآن بلغت رشوة السلطان وحده يختًا بخاريًا وطاقمًا للمائدة مرصعًا بالماس ، فضلاً عما أخذه من المال نقدًا أو حوالات على بنوك أوربا !

– أنا فرح لك يا مولاى .

– اسمع يا ثروت ، ستصحبنى فى رحلتى القادمة . استعد . تعرف أننا مشتركون فى معرض باريس ، وسترى كيف أن جناحى أعظم من جناح السلطان !

كانت أيام الرحلة مثل الأحلام . نام ثروت فى أفخر فنادق باريس ، وكلما تناول الطعام كان يقف وراءه خادمان فى ثياب أجمل من ثياب باشاوات مصر وتركيا ، يبدلان له الملاعق والشوك والأطباق ، بإشارة من إصبعه ينفذان طلباته . عند النوم غاص فى مراتب لينة أكثر راحة من سرير قصر ميركون ، عند الاستحمام غاص جسده فى البانيو ورغوات الصابون المعطر . أكل عدة مرات على مائدة قريبة من مائدة السلطان عبد العزيز وإسماعيل . رأى تنافس الأباطرة والملوك والملكات والأمراء فى

الحفاوة بالخديوى ، ومعاملته مثل الملك المستقل ، حتى إن وجه السلطان امتقع غيرة ، وكاد يموت كمداً عندما أعلن حاجب قصر الإمبراطور الفرنسى عن تشريف إسماعيل هاتفًا :

– صاحب الجلالة ملك مصر !

أما وليمة نابليون الثالث فكانت ليلة من ليالى ألف ليلة ، قصر منيف وقاعة فسيحة جدرانها مزركشة ، مغطاة كلها بالرسومات والمرايا الضخمة ، والنوافذ عالية ستائرها من قماش لم ير مثل رسومه . الرجال جميعهم فى أناقة ودماثة ، والنساء بصدور ناصعة البياض وشعور مثل الحرير ، وعقود وأقراط من الماس وأنواع الجواهر النادرة . حتى المسنات كن بهيات المنظر بموضات باريس وعطورها ، وقد عوضت الصنعة نقص الشباب . وتفرج على الفرقة الموسيقية بملابسهم المدهشة وآلاتهم اللامعة وعزفهم المتقن . دخل السلطان أولاً . ونودى على اسمه بألقاب طويلة ، إلاّ أن أوجينى منحت إسماعيل أولى رقصاتها ، واختتمت السهرة برقصة ثانية معه !

فى لندن لم تكن وليمة الملكة فكتوريا أقل روعة . وإن كانت أكثر تزمتًا وجموداً ، وأهدت إسماعيل وسام الباث الأعظم !

فلما عاد ثروت إلى القاهرة والتقى بنديم قال له فى حماس :

– كان جناحنا فى معرض باريس أعظم الأجنحة بنقوشه الفرعونية الزاهية ، جناح السلطان إلى جواره كان مثل قرية إلى جوار عاصمة !

– يا فرحتنا !

– كنت أمشى مرفوع الرأس فخوراً بمصريتى وعراقتى . متحف اللوفر والمتحف البريطانى معظم مقتنياتهما مصرية .

– مسروقات ماريت قبل أن يصبح مدير متحفنا ، وسولت الإنجليزى ، وبلزيونى أكبر سارقى آثار الفراعين !

– على الأقل يحافظون عليها ويعرضونها بشكل لائق . مسلتنا تقف شامخة فى الكونكورد أهم ميادين باريس .

– رحبوا بالخديو يا فالح لأنهم يبعثون بأتباعهم وأبناء محظياتهم إلى مصر مفلسين فيصبحون من الأثرياء بفضله !

– معلوماتك ناقصة . صحف فرنسا تتحدث عن كيف أنه جعل شبرا والجزيرة مثل الشانزليزيه وغابة بولونيا عندهم ، تسير بين أشجارها الباسقة المركبات الجميلة ، وكيف أنه يحارب تجارة الرقيق .

– مع أنك تعلم مثلى أن أمه الأميرة خوشيار تهديه كل عام جارية من القوقاز أو جورجيا . وباستثناء زوجته الرابعة الإيطالية تريمى فإن زوجته الأولى شهرت تهديه كل عام أغلى وأحلى الجوارى البيض ، وبالمثل الثانية جنانير والثالثة جشت آفت .

داعبه ثروت :

– ألا تستحى ؟ .. لا يليق بمهذب مثلك أن يذكر أسماء نساء أفندينا ، عليك أن ترمز لهن حسب الترتيب : برنجى ، ايكنجى ، أو جينجى ، دورتينجى ، وتعنى بالتركية الأولى والثانية والثالثة والرابعة !

– هذا الذى يحارب الرقيق لديه أكثر من مائة محظية ، إلى جوار زوجاته البرنجى والأيكنجى والأوجينجى والدورتينجى ، تخدم كل واحدة منهن ست جوار بيض وعدد كبير من الجوارى السود ، بما يقرب مجموعه من آلاف ثلاثة ، ما بين حورية بيضاء وخمرية مسكرة وسمراء غانجة وحبشية ذات أعين بقرية ، وبرونزيةممشوقة ذات نهود بديعة ، وسودانية فحماء ذات دم هائج .

– يا سلام على البلاغة الركيكة ! لكنه أغلق وكالات بيع الرقيق بالقاهرة !

– ومع ذلك لا ينقطع وصول المركبات بالعبيد كل حين . من يشتريهم سواه والأمراء والباشوات المقلدون !

– لكن الصحف هناك تمتدحه كثيراً ؟

- تعرف أنه يشترى ذمة بعض الصحفيين الفاسدين .. آه لو معى مال لتركت مهنة التلغراف وأنشأت صحيفة حرة . لكن دعنا من هذا الغم ، صف لى الإمبراطورة .

بعد جهد قال ثروت :

- إنها أوجينى ، سحر عينين ، رقة شفتين ، جمال نهدين ، وشعر من خيوط الذهب !

- هل نالها ؟

- كف عن هذا المجون !

- إن كنت أنت انبهرت بها بالرؤية ، فما بالك به وهو محل الحفاوة ! .. إنهم يا سعادة البك يأخذون أموالنا ويعطون الحفاوة والأوسمة مثل وسام الباث . ثم إن الباث تعنى الحمّام . أقل حمّام عمومى عندنا أفضل من هذا الباث الأعظم . وقد بلغنى أن هذا الوسام يهدى بمناسبة الاستحمام الأول !

لم يشاركه ثروت القهقهة ، ودنا منه فى جدية :

- أقول لك سراً خطيراً ، فى فرنسا اتفق الخديو مع مصانع فرنسية على صنع ثلاث بوارج حربية مصفحة ، وعدة آلاف من البنادق الحديثة القوية ، وسوف ينشئ حصونًا جديدة على طول الساحل بين الإسكندرية وبورسعيد ، ويدعم الحصون القديمة بحوالى مائتى مدفع ضخم ، إنه ينوى إعلان استقلال مصر عن تركيا ، وهذا يكفيه شرفًا .

- كيف يحقق الاستقلال وهو واقع فى قبضة الدائنين !

انصرف ثروت بك حانقًا ، وتباعدت لقاءاته مع عبد اللّه نديم فيما بعد !

* * *

وكانت شريهان قد وضعت لثروت طفلة حسناء صار اسمها فريال . كذلك ولدت رباب لأمشير مولودة بديعة الحسن أطلق عليها اسم جدته مبروكة . ورغم أنها جاءت فى ظروف عصيبة إلا أنهم فرحوا بها .

وكانت مبروكة تخطت عامها الأول بشهور ، عندما وقف أبوها أمشير وجدها إدريس مع فلاحين آخرين فى غم ورهبة ، وقد ظهرت غبرة صغيرة من جهة الشرق ، وصلت بعساكر ثلاثة ، أمروا دون سلام بتواجد ثلاثين فرداً مع شيخ القرية إدريس لتطهير الترعة التى تحمل مياه النيل المبارك إلى أرض الغروب . أفلت لسان أمشير غضباً :

- غبرة عفراء لا تأتى بخير قط !

حدجه الشاويش قائلاً لأبيه :

- أحضر معك هذا الثور ، إنه قوى مثل الفحل !

رغم هذا لم يأخذه معه ، وتعلل بأنه مريض . فقال الشاويش :

- صنف فلاح كذاب . المرة القادمة سأحضره بنفسى مكبلاً فى عنقه !

عاد الثلاثون رجلاً بعد شهر منكسرين وقد نقصوا واحداً فقط ، لأنهم كانوا يغطون رءوسهم وصدورهم بطين الترعة ، وبذلك حموا أنفسهم من ضربة الشمس ولدغات البعوض !

مرت شهور ثقيلة كئيبة ، وعاد العسكر بغبرتهم يطلبون خمسين رجلاً لحفر ترعة الإبراهيمية ، التى سماها إسماعيل على اسم والده ، وغرضه منها زيادة الأرض المزروعة غرباً وضمها إلى تفاتيشه بالصعيد . وكانوا قد سمعوا عن بدء حفرها من نيل أسيوط .

فى هذه المرة جاء الشاويش ومعه خمسة من أعوانه وحبال غليظة ، ربطوا الأنفار من أرجلهم ، أولهم إدريس وثانيهم أمشير ، الذى قيدوا يديه إلى جانبى عنقه بقيد خشبى . وبعد أن جمعوا هديتهم مضاعفة تقدم الشاويش على جواده ممسكاً بأول الحبل ، حتى وصل بهم قرب الليل إلى خارج سور المنيا ، جوار الخط الحديدى . عندئذ فك قيودهم وتركهم ينامون !

تحسس أمشير آثار القيد الخشبى حول معصميه وعنقه ، والغيظ يقتله !

قبل الفجر استيقظوا على وصول أبناء القرى الأخرى بحيث صاروا ألوفًا . هذه المرة فرضوا الفئوس والمقاطف وقرب الماء على أهالى المدينة . بعد شروق الشمس وصل المهندسون المصريون ، حددوا مكان الترعة وعرضها بعصى ثبتوها فى الأرض على مسافات ، مدوا بينها حبالاً ، وقد جاء معهم مجموعة من العسكر بالزمور والطبول . فلما صدر أمر البدء طرقعت السياط وبدأ الحفر على دقات الطبول وزمر الزمور ، فكان ضجيج زاد من لهب الشمس . ومات كثيرون !

ظل أمشير يكتم غضبه بصعوبة ، حتى أفلتت أعصابه ، فاندفع وخطف السوط من الشاويش وانهال عليه ضربًا مرددًا :

– ذق أذى الكرباج يا خنزير !

اندفع أقرب العساكر شاهرين سيوفهم لإنقاذ الشاويش ، فإذا بأمشير يؤرجح السوط حوله بسرعة ، لدرجة أنه أصدر دويًا خافتًا أطار سيف واحد منهم ، وأوقع الثانى أرضًا وقد أصابه فى ساقه ، وأربك الثالث بلسعة على وجهه . قبل أن يتمكن الواقع أرضًا من إخراج مسدسه كان أمشير قد عدا مبتعدًا ، ومن خلفه الضابط بجواده . قفز إلى دروب ملتوية ضيقة صاعدة هابطة ، بحيث صعب على الجواد ولوجها ، والرصاص يدوى من حوله ، والفلاحون يرقبون ذلك فى هول وهم تحت تهديد البنادق . واستجاب الخالق لدعائهم فأفلح فى الهرب .

عاد الضابط هائجًا :

– أين شيخ القرية الذى يتبعه هذا العاصى ؟

تقدم منه إدريس بالدمع فى عينيه ، فأمر بحبسه رهينة حتى يظهر الهارب . اقتاده جنديان من الأربعة المصابين ، سيرًا على الأقدام إلى حبس المنيا ، وظلوا طوال الطريق ينفثان غضبهما فيه ضربًا ورفسًا وسبًا [1] .

---

(١) حفرت ترعة الإبراهيمية بين عامى ١٨٦٧ – ١٨٧٣ وبفضلها تحول الرى على جانبيها إلى رى دائم .

بعد أربعين يومًا عاد الأحياء إلى القرية من غير شيخ القرية وولده . ناحت بهية على رجلها وولدها ، وولولت رباب على زوجها ، بكى الصبى حتحوت على والده وجده ، مع بكائه صرخت أخته مبروكة ابنة العامين . تجمعت الأسرة تنعى عجزها حتى وقت طويل من الليل !

حط الظلام حزينًا حانيًا عدة مرات ، حتى ظهر الهلال خافتًا بالسماء . فى سكون الليل سمعت بهية فى نومها المضطرب أصواتًا خافتة فى الجرن الخالى . خفق قلبها لأن الكلاب لم تنبح . هرولت إلى خلف الدار تلف شالها حول رأسها . توقف الصوت . نادت :

– أمشير ولدى !

خرج إليها يخفى مسدسيه تحت جلبابه . أخذته فى حضنها حامدة ربها . ثم جلسا يتهامسان . عرف بمصير أبيه فقرر تسليم نفسه . نهرته بهية :

– سيعذبونك يا ولدى ثم يقتلونك . من أدراك أنهم سيفرجون عنه ، أبوك قوى مؤمن باللّه . الرأى عندى أن تتوجه فوراً إلى القاهرة .

– أتركه حبيساً وأهرب مثل الجبان !

– تذهب إلى ثروت بك ليجعل الخديو يأمر بالإفراج عنه . ثروت أخى ابن أبى ولن يتأخر ، وأمه الشركسية طيبة . ملعون الخديو ، يحفر الترعة لإدخال الزراعة الصيفية إلى أراضيه ، والسكة الحديد لنقل حاصلاته ، ونحن نجلد !

دخلت الدار تعد له زاد الطريق . وجدت رباب وقد صحت ، أمرتها بالعودة إلى فراشها فأطاعت دون سؤال ، بعد ساعة كان يسير إلى محطة سكة حديد المدينة . لم يتوجه إلى شباك التذاكر خوفًا من وجود عسكرى يعرف شكله . بقى مختبئًا حتى دق الناقوس وعلا صفير القاطرة ، فتسلل يتسلق إحدى العربات ، انبطح فوق سطحها ، ناويًا استعمال مسدسيه إن انكشف أمره . شعر ببرودة أطرافه رغم دقات قلبه

العنيفة . لم يطمئن إلاّ مع تزايد سرعة القطار . تحمل البرودة ودخان القاطرة الكثيف . توقف القطار بمحطات كثيرة . دعا اللّه بالستر فاستجاب وستر عليه .

في شوارع العاصمة العامرة سار مطمئنًا ، مشغول الفكر بحيث لم يتنبه إلى الإنشاءات الجديدة . بعد فندق شبرد رأى حيًا جديداً مكان الخربات والمستنقعات والمدابغ القديمة ، شوارع عريضة مستقيمة برصيفين على الجانبين . حديقة الأزبكية محاطة بسور حديدى عال وقد تغير حالها ، أشجار ونافورات وجبليات وغزلان ، بط يسبح على سطح برك صغيرة ، بَجَع أبيض يتهادى في رشاقة . والناس يدخلون بعد قطع تذاكر مثل القطارات . قرب وسطها كشك كبير به فرقة موسيقية عسكرية تعزف الألحان ، وبعض الحواة يبهرون الصغار والكبار بحيلهم !

تقدم قاصداً القلعة . على يساره يبنى العمال بناية غريبة فى مكان البيوت القديمة ، لم يعرف أنهم يشيدون الأوبرا الخديوية . تقدم أكثر إلى شارع طويل جديد ، أفضى إلى ميدان فسيح ، على يساره قصر منيف أمامه حرس الخديو ، قصر عابدين الذى يحكم منه إسماعيل الآن . لكنه لم يعرف ذلك ومضى فى سيره حتى وصل إلى القلعة ، وإذا الهدوء يلفها ، معظم الصاعدين إليها والهابطين منها جنود أو ضباط . ظل ينتظر موعد انصراف ثروت بك ، خرج بعض الموظفين ولم يكن منهم . فتوجه إلى داره القريب .

استقبله ثروت بالترحاب . أخبره أن مكان عمله صار بقصر عابدين الجديد . بعد السؤال عن الأهل عدة مرات تشجع وبلع ريقه واعتذر عما وقع لقرية المطرية بسبب موضوع البنادق . ثم قال :

– عندما غبت عنا طويلاً أدركت أنك غاضب منى .

– وكنت أنوى عدم الحضور إلى يوم مماتى ، لولا الشديد القوى !

وحكى له ما كان دون زيادة أو نقصان . فأطرق ثروت حزينًا ثم قال :

– من حسن الحظ أن الخديو يعيش الآن أسعد أيامه ، أولاً لأن ولى عهد بريطانيا البرنس إدوارد وزوجته يزوران مصر حاليًا ، ومعهما مترجم رحالة مشهور عندهم اسمه سير صمويل بيكر ، قيل : إنه اكتشف بعض منابع النيل . وثانيًا لأنه فى خلال أسابيع قليلة يتم افتتاح قناة السويس رسميًا .

زام أمشير ساخطًا :

– أتموها الأنجاس !

– وشاهدت أنا المرحلة الأخيرة منها ، عند بحيرة التمساح التى تقع فى منتصفها . تعرف أنت هذه المنطقة جيدًا ، لك فيها مغامرات تضاف إلى مغامرات جديك حتحوت والشاطر . أنشأوا هناك مدينة جديدة بها قصر للخديو واستراحات وبيوت صغيرة على النظام الفرنجى ، اسمها الإسماعيلية على اسم الخديو طبعًا . وقد رغب ولى عهد الإنجليز وزوجته رؤية القناة ، فدعاهما ديلسبس .

– الخنزير الوسخ !

– ورافقهما الخديو ، وذهبت معه أنا وشريف باشا وصدّيق المفتش .

– هذا أيضًا خنزير وسخ !

– هناك شاهدنا عملية شق الفتحات الأخيرة فى البحيرات المرّة نحو الطرف الجنوبى للقناة ، تمّ ذلك بالكراكات الضخمة التى رأيتها أنت منذ سنوات . وفى المساء أقام ديلسبس لضيوفه حفلاً تنكريًا بقصره هناك !

– ما الحفل التنكرى ؟

– أن يضع كل ضيف قناعًا على وجهه ، يتنكر به .

– مثل البلياتشو . أظن أن إسماعيل ظهر على حقيقته بقناع الغول ؟!

قطع ثروت ابتسامته :

– فى هذا الحفل التنكرى اقترح ولى العهد البرنس إدوارد على الخديو أن يكلف السير صمويل بيكر بمطاردة النخاسين فى أعالى النيل ، فتحمس وانتهز الفرصة وانتحى بهذا الرحالة جانبًا وعرض عليه أن يقود حملة حربية إلى جنوب السودان بقصد ضم أعالى النيل والقضاء على تجارة الرقيق ، وقبل بيكر على الفور . بعد عودتنا بقى البرنس إدوارد وزوجته أيامًا بقصر الجزيرة الجديد ، ثم استقلا دهبية الخديو لزيارة الأقصر .

ابتأس أمشير :

– والخديو معهما فى الصعيد طبعًا . يا لسوء الطالع !

– إنه هنا يعد لحملة بيكر الذى صار موظفًا لدى الحكومة الخديوية مثلى ، يحمل لقب بك وله راتب خرافى ، أربعون ألف جنيه عن مدة أربع سنوات فقط تبدأ من إبريل القادم !

– هل ستكلم الخديو لإطلاق سراح أبى إدريس ؟

– هذا طلب سهل . مشكلتك أنت هى العسيرة !

– المهم أبى ، وأنا لى رب كريم .

أطرق ثروت زمنًا كأنه الدهر ثم قال :

– يمكنك البقاء معنا هنا حتى تزول الغمة ويغفلون أمرك .

ثم إنه دعا زوجته شريهان ، فجاءت ترحب به ومعها حبيب ابن التاسعة وشقيقته الصغرى فريال . ثم توجهت لتأمر الخادمة بإعداد الطعام ، وعادت تحمل شراب التمرهندى .

فى اليوم التالى انتهز ثروت أول فرصة سنحت له وقال للخديو :

– يا مولاى ، لماذا يضطهد العسكر أسرتى . منذ عامين ضربونى بشوارع القاهرة ، ومنذ شهرين سجنوا زوج أختى بالمنيا !

ثم روى الحكاية بصراحة كاملة . أرخى إسماعيل جفنى عينه اليمنى وقال :

– أبلغ ناظر الداخلية شريف باشا أن يأمر بالبرق حاكم المنيا بالإفراج عن شيخ القرية فوراً . أما المتمرد الآخر الذى اعتدى على أحد عساكر الحكومة فمصيره الجلد والسجن . أهو فى بيتك الآن ؟

– لا . لا . انصرف بالأمس .

– لو كنت تخبئه فى دارك فسوف أنفيك إلى فازوغلى ، مقبرة الأحياء !

– بالطبع لا يا مولاى !

– أنا أنذرتك .. والآن أريدك أن ترسل بالشفرة برقية إلى وكيلى بالأستانة ، قل له أن يشترى الطيور النادرة التى يريدها السلطان المجنون ، وأن يدفع للصحفى الفرنسى الإعانة التى طلبها ، وأن يتابع تحركات عمى حليم بطريقة أدق ، هذا الماسونى الذى حاول قتلى [1] .

مضى ثروت لينفذ الرسالة . عندما انتهى منها وأراد الانصراف لإنذار أمشير استبقاه الخديو وكلفه بعدة أمور ، بحيث إنه لم يصل إلى داره إلا عند المغرب ، فوجد زوجته حزينة ، وابنه حبيب يبكى ، وطفلته فريال ترتجف ، بعد أن داهم عساكر الخديو الدار فى أثناء غيبته ، قبضوا على أمشير وانصرفوا به مكبلاً من عنقه ويديه ورجليه فى سلسلة واحدة !

انهار جالساً فى ذهول القهر . شعر بضيق تنفسه . أسرعت شريهان تحضر له بعض الماء . رشف رشفة واحدة . وظل لمدة ساعة عاجزاً عن التفكير ، رفض تناول الطعام . أخفق فى النوم رغم تعبه . مع أذان الفجر جاءته فكرة . قام وصلّى ودعا ربه بالتوفيق والنصرة . أكل وجبة الإفطار مع الأسرة . داعب صبيه وطفلته ومازحهما . ثم

---

(١) كان الماسونيون فى محفل الشرق الأكبر المصرى قد اختاروا حليم باشا أستاذاً أكبر لهم سنة ١٨٦٧ . ويبدو أنهم تآمروا على اغتيال إسماعيل ، لأنه اتهمهم سنة ١٩٦٨ بمحاولة اغتياله ، واتخذ ذلك ذريعة لإبعاد عمه عن مصر فى نهاية ذلك العام .

ارتدى ثيابه وخرج قبل موعد عمله بساعة على الأقل ، توجه إلى القصر العالى ، حيث قاده حارس البوابة إلى خليل أغا ، الذى أذن له بالدخول إلى الحديقة ، حيث تجلس أمه ثريا مع أميرتها خوشيار هانم أم الخديو . بعد السلامات حكى ما حدث ، ثم قال للأميرة والدموع تملأ عينيه :

– لابد أن قريبى أمشير يظن أننى وشيت به ، ومعه كل الحق فى إساءة الظن بى !

طيبت خاطره ، واستدعت عامل التلغراف عبد اللّه نديم ، وأمرته بإرسال برقية إلى ولدها تطلب منه العفو عن أمشير . لثم ثروت ظهر كفها شاكرًا ، ثم قبل أمه وانصرف . فى طريقه مرّ على نديم وتأكد أنه أرسل البرقية .

فى قصر عابدين استقبله إسماعيل غاضبًا :

– أتشكونى لأمى ؟ أتجرؤ ؟ .. لن أفرج عن العاصى حتى لو توسط له السلطان ، حتى لو تدخل القنصل الإنجليزى أو الفرنسى !

– كيف أواجه أهلى يا مولاى بعد أن صرت متهمًا بالوشاية ، اسجنى مكانه .

أغمض عينه اليمنى :

– لم أفكر من هذه الزاوية . أنت معذور . قل لى : أهو شاب قوى ؟

– وذكى ، أدّى الجهادية زمن سعيد باشا ، ومن أسرة كريمة ، خدم جداّه فى جيش المرحوم إسماعيل فاتح السودان زمن العزيز محمد على .

– صفات مطلوبة . هناك أمل فى العفو عنه ، لكن على شرط أن ينضم إلى حملة أعالى النيل . سير بيكر بك يريد لواء سودانيًا ولواء مصريًا .

– اسمح لى يا مولاى بمقابلته .

– توجه الآن إلى ثكنات قصر النيل ، خذ إذنًا من ناظر الجهادية . قل له : إن إرادة الخديو شاءت أمرين : أن ينقل قريبك إلى ثكنات القلعة ، وأن يلحق به سبعمائة شاب من أمثاله المساجين ، يطعمون طعامًا مغذيًا ، ويدربون تدريبًا قاسيًا لمدة ثلاثة

شهور ، يتوجهون بعدها إلى بلاد النوبة ضمن حملة بيكر . لن أضحى بلواء من جنودى المحترفين فى أحراش إفريقيا ، خصوصاً أنهم لن يواجهوا جيوشاً نظامية .

قابل ثروت قريبه أمشير الذى ابتسم فى قناعة :

– الحمد للّه . المهم الإفراج عن أبى .

– أضمن لك أنه الآن مع الأسرة الكريمة . أما أنت فطبقًا للخطة السرية التى تركها بيكر للخديو فسوف تغادر القاهرة يوم عشرة يونيو ، مع الآخرين .

ابتسم أمشير فى صفاء :

– يبدو أن التغرب مكتوب على بنى حتحوت ، سوف يحفظنى القدير المنجى وأعود لأحكى لزوجتى وابنى حتحوت وطفلتى مبروكة أخبار تغريبتى .

هذا عن أمشير ، أما والده الكريم إدريس ، نزيل سجن المنيا ، فقد جاءه أحد الحراس واقتاده فى احترام إلى الحاكم ، فمشى فوق سجاجيد ذات ألوان وشراريب ، ليلج قاعة فسيحة أعلاها طيقان مستديرة ذات زجاج ملون ، وجد بها الحاكم وحسن باشا الشريعى عين أعيان الإقليم ، وسلطان باشا الذى سمن بعد أن اغتنى . نهض الثلاثة يرحبون به ، تأسف له سلطان باشا عن سوء فهم الحاكم ، الذى أمر له بطبق خشاف ثم كنكة قهوة . وإدريس فى حيرة وشك . عندما أراد الانصراف خرج معه سلطان باشا واقتاده إلى فرس أحد أتباعه المنتظرين بالحوش وقدّم له اللجام :

– أقسم بالطلاق أنك لن تدخل قريتك إلاّ على فرسى هذا ، فرسك منذ الآن !

* * *

فى القلعة العتيدة نال لواء المساجين تدريبات شاقة متصلة وطعامًا ممتازًا ، وهم لا يدرون السّر وراء ذلك كله . ولم يشأ أمشير أن يخبرهم .

عندما اكتمل تدريبهم على فنون القتال والطاعة العمياء ، تأجل ترحيلهم إلى أسوان بسبب انشغال معظم بواخر الخديو فى نزهات ضيوفه الستة آلاف الذين توافدوا لحضور افتتاح القناة .. ولأن لكل شيء أوانًا ، فقد جاء يوم تحرك فيه من

القاهرة أسطول نهرى طويل ، حمل ثمانمائة مجند زملاء أمشير ، وهم فى زى جنود الهجانة بالكوفيات البيضاء ، ومعهم أجزاء مراكب حديدية مفككة مصنوعة من الصلب فى بلاد الإنجليز ، قاصدين وادى حلفا حيث جنادل النيل جنوب أسوان . وكل واحد يسأل الآخر عن بيكر بك ، الإنجليزى الذى سوف يقودهم !

فى أثناء مرورهم أمام مدينة المنيا سالت دموع أمشير . بعد الأقصر وآثارها الضخمة رأوا على الشاطئ الفلاحين المنكوبين الذين أخذوا جمالهم حسب النظام المعتاد ، دون مقابل ومع أعلافها وأجور سيّاسها . وارتحل عساكر البر فى محاذاة الأسطول ، إلى أن تجمعوا فى وادى حلفا ، فى عز أيام الحر . ناموا فى مئات الخيام ، إلى أن جاءهم رجل صعيدى ، خبير بالملاحة اسمه محمد نقد ، نجح فى تعدية المراكب والدهبيات الصغيرة خلال جنادل النهر الناتئة . أما المراكب العميقة الغاطس فقد أكد أن شهر يوليو الذى حدده بيكر اختيار خاطئ لأن المياه لا تبلغ الارتفاع المطلوب إلاّ فى شهر سبتمبر !

ظلوا فى الخيام حتى هبط النيل تماماً وظهر قاعه من حول الجنادل ، عندئذ جاء ألفان من فرق الألغام بالخيام والمطارق والفئوس ، فاكتظ المكان القفر بالانفجارات وزحام الأنفار ، نسفوا الصخور ونجحوا فى فتح ممر بين الجنادل . ثم انتظروا فيضان النيل المبارك ، وعبرت المراكب الكبيرة قاصدة الخرطوم ، من غير أن يرى أحدهم الإنجليزى بيكر !

أما أمشير فكان ضمن قافلة من مئات الرجال ومئات الجمال لم تشهد الرمال لها مثيلاً ، تكونت من ثلاث قطارات متوازية طويلة ، عبرت صحراء النوبة حاملة مراكب الصلب المفككة ، يقودهم أعظم أدلاء الصحراء العارفين بأسرار متاهاتها . تلهبهم الشمس نهاراً ، يؤرق برد الليل نومهم ، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق فجاهروا بأن السجن كان أرحم . تأكدوا من الهلاك فتذكروا الأحباب وتابوا عن السيئات .

فجأة شاهدوا الإبل تسرع السير بحماس زائد ، فصاح الدليل :

– حمداً للّه ، الجمال شمت المـاء .

بعد مسيرة ساعة كانوا يلقون بأنفسهم إلى النيل المبارك يرطبون أجسادهم ، غير آبهين بالتماسيح التى رموا بعضـها بالرصـاص ففرت البقيـة . واستلقى أمشير يستريح ، ويفكر فيما ينتظره فى هذه التغريبة الجديدة .

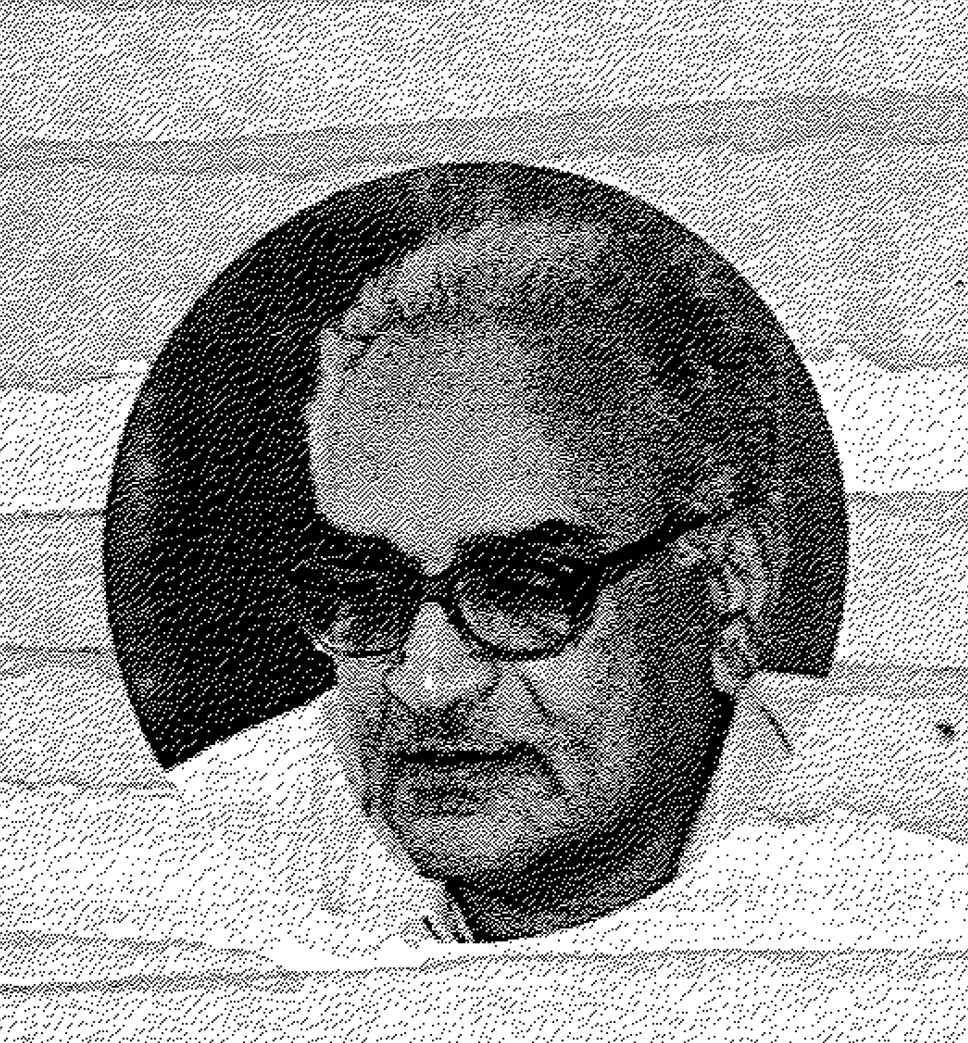
كتب للمؤلف

تاريخ الطبعة الأولى

١ - فوستوك يصل إلى القمر - قصص ١٩٦٧
٢ - خمس جرائد لم تقرأ - قصص ١٩٧٠
٣ - الأيام التالية - قصص ١٩٧٢
٤ - دوائر عدم الإمكان - رواية ١٩٧٢
٥ - الهؤلاء - رواية ١٩٧٣
٦ - أبناء الصمت - رواية ١٩٧٤
٧ - غرائب الملوك ودسائس البنوك ١٩٧٦
٨ - الوليف - قصص ١٩٧٨
٩ - غرفة المصادفة الأرضية - رواية ١٩٧٨
١٠ - مغامرات عجيبة - رواية للأولاد والبنات ١٩٨٠
١١ - كشك الموسيقى - رواية للأولاد والبنات ١٩٨٠
١٢ - حنان - رواية ١٩٨١
١٣ - عذراء الغروب - رواية ١٩٨٦
١٤ - الحادثة التى جرت - قصص ١٩٨٧
١٥ - تغريبة بنى حتحوت إلى بلاد الشمال - رواية ١٩٨٧
١٦ - حكاية ريم الجميلة - رواية ١٩٩١
١٧ - الأعمال الكاملة (١) تشمل المجموعات رقم ٨ ، ٣ ، ٢ ، ١ من هذا الثبت ١٩٩٢
١٨ - تغريبة بنى حتحوت إلى بلاد الجنوب - رواية ١٩٩٢
١٩ - القمر يولد على الأرض - رواية ١٩٩٥
٢٠ - التاريخ العريق للحمير - مقالات هزلية ١٩٩٦
٢١ - مؤامرات الحريم - وحكايات أخرى ١٩٩٧
٢٢ - عطر القناديل - عن يحيى حقى وعصره ١٩٩٩
٢٣ - ماسأة ديانا (دراسة عن أمريكا) ١٩٩٩
٢٤ - الأعمال الكاملة (٢) تشمل الروايات رقم ٤ ، ٦ ، ٥ ، ٩ من هذا الثبت ٢٠٠٠
٢٥ - بنك الضحك الدولى - مسرحية هزلية ٢٠٠١
٢٦ - الأعمال الكاملة (٣) تشمل الروايات ١٩ ، ١٦ ، ١٣ ، ١٢ من هذا الثبت ٢٠٠١

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٧٣١٢ / ٢٠٠٤



مجيد طوبيا

المؤلف فى سطور :

مواليد ٢٥ مارس ١٩٣٨ بمدينة المنيا بصعيد مصر .
بكالوريوس رياضيات وتربية ١٩٦٠ .
دبلوم معهد السيناريو ١٩٧٠ .
دبلوم دراسات عليا إخراج سينمائى ١٩٧٢ .
جائزة الدولة التشجيعية فى القصة ١٩٧٩ .
وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ١٩٧٩ .
ترجمات إلى لغات عديدة . ورسائل دكتوراه عن أعمال فى السربون . أكس بروفاكس . روما . نابولى . وارسو . جامعة المنيا وغيرها .
دراسات عنه لـ عبد القادر القط . سهير القلماوى . صلاح فضل . أحمد كمال زكى . على شلش . أحمد السعدنى . على الراعى . يوسف الشارونى . وغيرهم من النقاد المصريين والعرب والأجانب .
تأليف عدة أفلام روائية مثل « أبناء الصمت » و « صانع النجوم » إخراج محمد راضى - « حكايات من بلدنا » إخراج حلمى حليم - « قفص حريم » إخراج حسين كمال .
له خمس مجموعات قصصية :
١٠ روايات - روايتان للأولاد والبنات .
مسرحية واحدة بعنوان : « بنك الضحك الدولى » .
عضو سابق بلجنة القصة لعشر سنوات من ١٩٨٠ .

هذه الرواية تستغل كل تقنيات الرواية الحديثة ، كما تستغل أساليب من السرد العربى ، لكنها تشتغل على وجدان مصرى خالص ، أى على وجدان عربى ، لا يمكن أن توفره أية بيئة عربية أخرى لكاتب أخر .. ومن هنا أصالتها وتميزها ، صدقها وعمقها .. فى التغريبة يشتغل الكاتب بوجدان مصرى عربى وبلسان أهل مصر .. وفى إعتقادى أن المواطن العربى، وهو يقرأ مثل هذه الرواية، سيشعر أنه ليس أقل مصرية من أى مصرى عريق..

الميلودى شغموم

